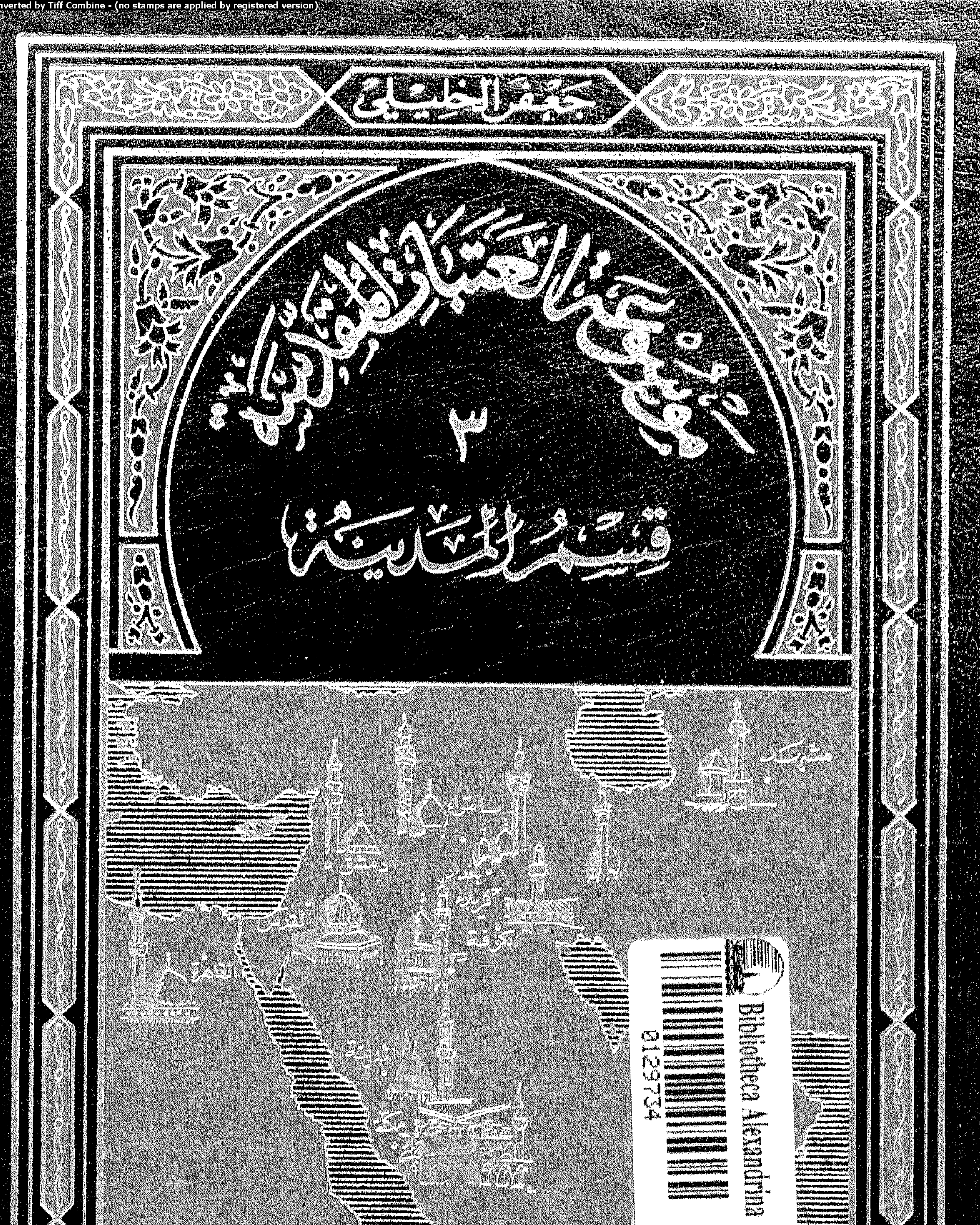

جعفر الخليلي
موسوعة العتبات المقدسة
٣
قسم المدينة
مشهد
سامراء
النجف
دمشق
بغداد
كربلاء
القدس
الكوفة
القاهرة
المدينة
مكة
مؤسسة الأعلمي - بيروت




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



موسوعة العتبات المقدسة

قسم المدينة المنورة ٣



موسوعة العتبات المقدسة

٣

قسم المدينة المنورة

جعفر الخليلي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة - ملك الاعلمي - ص.ب: ٧١٢٠

المدينة المنورة قديماً

إلمامة تاريخية شاملة عن المدينة المنورة
منذ اول تمصيرهـــا حتى قيام الاسلام

كتبها

جعفر الخليلي



المدينة المنورة قديماً

يثرب وموقعها الجغرافي

يثرب ثانية مدن الحجاز القديمة وأهم مدينة حجازية تاريخية بعد مكة المكرمة من حيث السعة والتجارة ، وأهم مدينة حجازية من حيث الحاصلات الزراعية ووفرة المياه ولعل البعض قد فضلها على مكة المكرمة من حيث القدسية ومن هؤلاء كان الخليفة عمر بن الخطاب (ض) .

والحجاز أحد أقاليم الجزيرة العربية الواقع في غرب جزيرة العرب ، وهو إقليم مستطيل تحده قديماً من الشمال بادية الشام أو الأردن الحالية ، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومن الشرق نجد ، ومن الجنوب بلاد العسير ، ويبلغ طول الحجاز من الشمال إلى الجنوب نحو ١٦٠٠ كيلومتر ، وعرضه من الغرب إلى الشرق نحو ٣٠٠ كيلومتر ، وقدر بالأميال بنحو ٧٠٠ ميل طولاً و ٢٥٠ ميلاً عرضاً .

وتقطع الحجاز من الشمال إلى الجنوب جبال (السراة) ويبلغ ارتفاع بعضها نحو ٨٠٠٠ قدم ، ويتصل بمنحدرات هذه الجبال سهل مشهور هو السهل المعروف باسم (تهامة) [1] وقيل إن الحجاز هو الجبال الحاجزة بين الأرض العالية من نجد وبين الساحل الواطىء (تهامة) . والحجاز

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين. مادة (عرب) .

على هذا هو الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير ، وقيل : بل سمي حجازاً لأنه يحجز بين الشام واليمن والتهائم [١] .

واعتبر البعض اسم الحجاز شاملاً لتهامة ، وتبوك ، وحتّى فلسطين ، وأن يثرب المدينة واقعة في القسم الشمالي من الحجاز وعلى بعد ٣٠٠ ميل شمالي مكة المكرمة وفي طريق الشام للمصعد من اليمن ومكة ، وعلى مسافة ١٣٠ ميلاً عن ينبع ميناء المدينة على البحر الأحمر ، ويثرب هذه واحة خصبة التّربة غزيرة المياه محصورة بين حرّتين أو ما تسمّى باللاّبتين ، وفي أرض سبخة – والحرّة هي الحجارة البركانية السوداء المنخوبة ، والسبخة هي التّربة المشوبة بالملح – وهاتان الحرّتان اللتان تقع يثرب بينهما هما حرّة (واقم) في الشرق ، وحرّة (الوبرة) في الغرب ، وتكتنف الوديان الحرّتين من الشرق ومن الغرب ، وتحيط بالمدينة من جهاتها الأربع .

ويجمل أحمد ابراهيم الشريف موقع المدينة ويستخلصه من المصادر ومن مشاهداته فيقول : ويقع جبل (عَير) في الجنوب الغربي من يثرب ، والقادم من مكة إلى يثرب – في زمن الهجرة النبوية – كان يمكنه إذا قام بأعلى جبل (عير) أن يحدّد صورة مكتملة لمنطقة يثرب ، فوادي العقيق إلى يساره ممتداً غربي المدينة فيما وراء حرّة (الوبرة) إلى ما بعد بئر (رومة) في شمالها الغربي ، والعريض وعوالي المدينة إلى يمينه من شرق حرّة (واقم) ، وهناك من أقصى الشمال يقوم جبل (أحد) ثم جبل (سلع) .

وتقع قرية (قُباء) في جنوب المدينة على ميلين ، وبين قباء والمدينة يسير وادي (بطحان) ووادي (رانوناء) حيث يتجهان شمالاً فيما

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٧١ مط البهية المصرية .

بين حرّة (الوبرة) والمدينة فيتصلان بوادي (قناة)، وهو واد يقع في جنوب (أحد) وينحدر غرباً بينه وبين جبل (سلع) حتى يتصل بوادي (بطحان)، وتلتقي هذه الوديان عند مجتمع الأسيال من (رومة)، كما يوجد وادي (مزينيب)، ووادي (مهزور) في الجنوب الشرقي من المدينة[1] والتي سيأتي ذكرها فيما بعد من هذا البحث.

وتقع مدينة (يثرب) بين خط العرض ٢٤° — ٢٥° شمالاً، وعلى خط الطول ٣٩, — ٤٠, شرقي كرينتش، وبجبالها ومرتفعاتها شهرة اكتسبت معظمها بعد هجرة الرسول إلى المدينة وبسبب ما حدث عندها من حوادث مهمة في تاريخ الإسلام مما أضفت عليها الأحاديث الشيء الكثير من الثناء والذكر الطيب، ومن أهم هذه الجبال: جبل (أُحد)، وهو واقع شمال المدينة بينه وبينها قرابة ميل واحد، وهو جبل أحمر، وعنده كانت الوقعة الفظيعة التي اشتهر بها (أحد) والتي قتل فيها سبعون من خيرة أصحاب النبي (ص) ومنهم كان حمزة بن عبد المطلب عمّ النبي (ص) فأقبلت (هند) زوج أبي سفيان وأم معاوية، ولم يكفها أنه مات — كما يقول هيكل — بل مثّلت به ما لم يمثّل بأحد في غزاة، إذ جدعت أنفه، وقطعت أذنيه، وشقّت بطنه، وأخرجت كبده تمضغها وتلوكها تشفياً وسخيمة[2] فلقبت بآكلة الأكباد، وأقبلت يومذاك (صفيّة) بنت عبد المطلب وهي أخت حمزة لأبيه ولامه، فقال رسول الله (ص) لابنها الزبير بن العوّام: إلقها فأرجعها لا ترى ما بأخيها، فقال لها الزبير: يا أمّه، رسول الله يأمرك أن ترجعي، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أنه مثّل بأخي وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنّ ولأصبرنّ إن شاء الله، فجاء الزبير فأخبره

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٢٨٨ مط مخيمر.
(٢) في منزل الوحي ص ٥٣١ مط دار الكتب بالقاهرة.

بذلك ، فقال الرسول (ص) : خلِّ سبيلها ، فأتته ، فنظرت إليه ، وصلّت عليه واسترجعت ، واستغفرت له [١] فأمر به النبي (ص) فسُجّي ببردة ثم صلى عليه ، فكبّر عليه سبعين ودفنه ، ولما رجع إلى المدينة سمع البكاء والنواح على القتلى فذرفت عيناه وبكى ، ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له ، فجاءت نساء بني عبد الأشهل لما سمعوا ذلك — وهم من بطون الاوس — فبكين على عمّ رسول الله (ص) ونُحنَ على باب المسجد ، فلما سمعهن خرج إليهن فقال : إرجعن يرحمكن الله قد أيستن بأنفسكن [٢] .

وهذا ما جعل لأحد بالإضافة إلى الوقعة الكبيرة شهرة واسعة زادها ذكراً موقع هذا الجبل وصفاؤه فيما حوله حتى لقد ورد ذكره في الشعر كثيراً ومما ورد : هو أن محمد بن عبد الملك الفقعسي حين كان ببغداد حنّ إلى وطنه وذكر (أحداً) وسلعاً دون الجهات الأخرى فقال فيما قال :

ألا ليتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً … بسلع ، ولم تغلقْ عليَّ دروبُ
وهل (أحدٌ) بادٍ لنا وكأنه … حصانٌ أمامَ المقربات جنيبُ
يخبّ السرابُ الضحلُ بيني وبينه … فيبدو لعيني تارةً ويغيبُ
فإن شفائي نظرةٌ إن نظرتُها … إلى (أحد) والحرّتان قريب [٣]

ومن أشهر جبال المدينة جبل (ورِقان) وهو جبل أسود واقع على يمين المتجه من المدينة إلى مكة . جاء في معجم البلدان عن عرّام بن الأصبغ في أسماء جبال تهامة قوله : ولمن صدر من المدينة مصعداً أول جبل يلقاه من عن يساره ورِقان وهو جبل عظيم اسود كأعظم ما يكون من الجبال ،

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٤٢ مط السلفية بمصر .
(٢) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار الملحق الثاني لشفاء الغرام ص ٣٤٧ مط عيسى البابي الحلبي بمصر .
(٣) معجم البلدان مادة أحد مط صادر ودار بيروت .

وفي وَرِقان أنواع الشجر المثمر وغير المثمر ، وقد ورد فيه شعر كثير ومن ذلك قول أبي سلمة يمدح الزبير :

إنّ السماحَ من الزبير محالفٌ   ما كان من وَرِقان ركنٌ يافعُ
فتحالفـا لا يغدران بذمةٍ   هذا يجود به وهـذا شافعُ

وجبل (رضوى) ويقع على نحو سبع مراحل من المدينة ، وهو عند ميناء المدينة (ينبع) ومن (رضوى) هذا يقطع حجر المسنّ ويحمل إلى الخارج ، وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية قال ياقوت الحموي : ورأيته من (ينبع) أخضر ، وأخبرني من طاف في شعابه أن به مياهـاً كثيرة وأشجاراً وهو الجبل الذي يزعم (الكيسانية) أن محمد بن الحنفية به مقيم حي يرزق ، على ما قال ياقوت .

وفي هذه الجبال الثلاثة وردت أحاديث مباركة عن النبي (ص) فمن قوله في جبل أحد : أُحدٌ نحبّه ويحبّنا[1] ، وفي (ورقان) قوله : خير الجبال أحد والأشعر وورقان ، والأشعر جبل جهينة ينحدر على ينبع من أعلاه ، وفي (رضوى) قوله : رضوى رضي الله عنه[2] .

وهنالك جبال أخرى ومنها (سَلْع) وهو واقع في سوق المدينـة وعلى مسافة ساعتين ، وفي سَلْع وردت أشعار كثيرة وبعض هـذه الأشعار قد دخل الغناء ومنه شعر لقيس بن ذريح وقد غنّته ذات مرة حبّابة جارية يزيد بن عبد الملك وكانت من أحسن الناس وجهاً ومسموعاً على ما أورد ياقوت عن الأصمعي ، وكان يزيد شديد الكلف بها وكان منشؤها المدينة المنورة ، فغنت :

لعمرك إنني لأحبّ سلعـاً   لرؤيته ومن اكناف سلْعِ

---

(١) أخبار مكة للازرقي ج ٢ ص ٢٨١ مط دار الثقافة بمكة المكرمة .
(٢) معجم البلدان مادة (ورقان) و (رضوى) مط صادر ودار بيروت .

تقرّ بقربـــه عيـــني ، وإني لأخشى أن يكونَ يريد فجعي
حلفتُ بربّ مكةَ والمصلّى وأيدي السابحات غداة جمعِ
لأنتِ عـــلى التنائي فاعْلميه أحبّ إليّ من بصري وسمعي

وتنفست حبّابة الصعداء على رواية الأصمعي ، فقال لها يزيد : لِمَ تتنفسين ؟ والله لو أردته — يقصد جبل سلع — لقلعته اليك حجراً حجراً ، فقالت : وما أصنع به ؟ إنما أردتُ ساكنيه .

ومن جبالها (عَيْر) قال عرّام على ما جاء في معجم البلـــدان أن (عَيْر) جبلان أحمران من عن يمينك وأنت ببطن العقيق تريد مكة ، ومن عن يسارك شوران و هو جبل مطل على السدّ ، وقال نصر : عَيَر جبل مقابل الثنية المعروفة بشعب الخوز ، وذكر عير كذلك في الشعر ومنه قول أبي صخر الهذلي :

فجلّـــل ذا عير ووالى رِهامَه وعن مخمصِ الحجاج ليس بناكب

وقال السكري أن عير جبل ، ومخمص : اسم طريق فيه ويروى ذا عير [1] وهو جبل عظيم شامخ يقع في جنوب المدينة وعلى مسافة ساعتين منها .

أما مناخ المنطقة فيختلف باختلاف الموقع من حيث الارتفاع ووفرة المياه وكثرة البساتين ؛ ومع ذلك فهو على العموم شديد الحرارة ولا سيما مناخ المدينة نفسها .

يثرب وأسماؤها

ويثرب هو الاسم التاريخي الذي كان يطلق على هذه المدينة قديمـــاً والتي عرفت بعد ذلك (بمدينة الرسول) ، وقد اختلف المؤرخون واللغويون

---

(١) معجم البلدان مادة (عير) مط صادر ودار بيروت .

في أصل هذا الاسم واعتبره البعض من مشتقات التثريب وهو الإفساد والتخليط لغة ، ولكن هذا البعض لم يذكر شيئاً عن وجه هذه التسمية وأسبابها إذا صح أن تكون من التثريب الغربية ، وقد قيل إن اسم يثرب هو اسم الأرض من ذلك الصقع [١] . وقيل بل هو اسم المدينة نفسها ؛ وقد زعم آخرون أن يثرب قد سميت باسم أول من سكنها من ولد سام بن نوح !! وزعم غيرهم أنها سميت باسم رجل من العمالقة !!

وهناك من يزعم أن كلمة يثرب محرّفة من الكلمة المصرية (إثريبس) [٢] ويقول ياقوت : إنها سميت بيثرب لأن أول من سكنها عند التفرق كان يثرب بن قانية بن مهلائيل ابن ارم بن عبيل بن عوض بن ارم بن سام ابن نوح ! [٣] ، وكل هذه أقوال ليس لها ما يسندها من واقع التاريخ شيء ، وعندنا أن ليس من الشرط أن يعرف سبب تسمية المدن بأسمائها ليحتاج الأمر إلى مثل هذه الأقوال والتضارب فيها ، وكل ما هو ثابت : أن يثرب مدينة قديمة ، وموغلة في القدم ، ولا يعرف بالضبط سبب تسميتها كما لم تعرف أسباب تسمية مئات المدن التاريخية وحتى مدن القرون الوسطى بل وبعض مدن القرون الأخيرة .

وما من مدينة من المدن الإسلامية كان لها من الأسماء وكثرتها كمدينة يثرب ، وإذا صح أن كل هذه الأسماء الواردة في كتب التاريخ هي أسماء لمدينة (يثرب) فالراجح أن كل اسم من هذه الأسماء قد أطلق عليها بناء على صفة اتصفت بها أو اريدان تتصف بها وأن معظمها قد أطلق عليها بعد هجرة الرسول (ص) .

وأورد ابن النجار في سلسلة من الأقوال أن : « للمدينة في التوراة

---

(١) تاج العروس مادة (ثرب) مط الخيرية بمصر .
(٢) دائرة معارف القرن العشرين نقلا عن الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتانوني مادة (يثرب) .
(٣) معجم البلدان مادة (يمامة) مط صادر ودار بيروت .

احد عشر اسماً[١] » وقد عدّد هذه الأسماء وذكرها ولم يكن بينها اسم ليثرب ! ! وروى ابن النجار بعد ذلك عن عبدالعزيز بن محمد قوله : « وبلغني أن لها في التوراة – أي يثرب – أربعين اسماً[٢] » وقد أوصلها صاحب كتاب وفاء الوفا إلى نيف وتسعين اسماً ! ![٣]

أما ياقوت الحموي فقد أحصى أسماء المدينة فوجدها تسعة وعشرين اسماً وهي المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، والعذراء ، والجابرة ، والمحبة ، والمحبّبة ، والمحبورة ، ويثرب ، والناجية ، والموفية ، وأكّالة البلدان ، والمباركة ، والمحفوفة ، والمسلمة ، والمجنّة ، والقدسيّة ، والعاصمة[٤] ، والمرزوقة ، والشافية ، والخيّرة ، والمحبوبة ، والمرحومة ، وجابرة ، والمختارة ، والمحرمة ، والقاصمة وطبابا[٥] .

قال ابن الأثير في الحديث : إن النبي (ص) هو الذي سمى يثرب ، طيبة وطابة لأن المدينة كان اسمها يثرب ، والثرب هو الفساد ، فنهى أن تسمى به ، وسماها طابة ، وطيبة[٦] .

ويقول القزويني : إن من خصائص (المدينة) أنّ من دخلها يشم رائحة الطيب ، وللعطر فيها رائحة لم توجد في غيرها[٧] وعلى هذا فالراجح أن يكون النبي (ص) قد أطلق عليها اسم (طيبة) لهذا السبب ، ومع

---

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة – الملحق الثاني بشفاء الغرام ص ٣٢٣ مط عيسى البابي الحلبي بمصر .
(٢) المصدر المتقدم .
(٣) مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٠٧ ط ١ مط دار الكتب المصرية .
(٤) ولا نستبعد إذا صحت هذه التسمية أن يكون اسم العاصمة لمركز الدولة العربية في الأقطار اليوم مأخوذاً من اسم العاصمة المدينة في الاصطلاح العربي .
(٥) معجم البلدان مادة (المدينة) مط صادر ودار بيروت .
(٦) لسان العرب مادة (طيب) مط صادر ودار بيروت .
(٧) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٧ مط صادر ودار بيروت .

ذلك فهناك من المؤرخين من يرى أن اسم (طيبة) كان من أسماء يثرب في الجاهلية وقبل ظهور الإسلام .

وعلى كثرة أسماء المدينة المنورة فقد اختصت بالشهرة باسم (يثرب) وباسم (المدينة) واسم (طيبة) دون الأسماء الأخرى ، وكان اسم يثرب هو أقدم اسم عرفت به هذه المدينة أو هذه الأرض ثم تغلب اسم (المدينة) بعد ذلك على يثرب وطيبة فسميت بعد هجرة النبي اليها (بمدينة الرسول) تمييزاً لها عن المدن الأخرى ، ثم اكتفي بعد ذلك باسم المدينة منفرداً وألحقت بها الصفة فصارت تسمى بالمدينة المنورة .

والنسبة إلى (يثرب) : يثربي وأثربي ، والنسبة إلى المدينة المنورة : مَدنيّ . ولغير (المدينة) تختلف النسبة ؛ فإذا نسبت إلى مدينة المنصور قيل : مدينيّ ، وإلى مدائن كسرى قيل : مدائني ، وذلك للتفريق بين النسب لئلا تختلط [١] .

وذكر بطليموس (المدينة) في جغرافيته باسم Lathrippa وهي أيضاً Lathrppa. Polis التي ذكرها اصطيفانوس البيزنطي وعرفت كذلك باسم (المدينة) من كلمة (مدينتا) التي تعني (الحِمى) أي (مدينة) على رأي المستشرقين الذين يرون أن اليهود المتأثرين بالثقافة الارامية أو بعض المتهودين من بني إرم الذين نزلوا (يثرب) هم الذين دعوها (مدينتا) ومنها جاءت (المدينة) .

أما كلمة (مدينة) على أنها اختصار (لمدينة الرسول) فيرون أنه رأي متأخر قال به العلماء [٢] .

---

(١) لسان العرب مادة (مدن) مط صادر ودار بيروت .
(٢) الدكتور جواد علي ج ٤ ص ١٨١ أخرجه أحمد ابراهيم الشريف في (مكة والمدينة) .

سكان الحجاز والجزيرة العربية

لكي نعرف الشيء الكافي عن نشأة المدينة المنورة وسكانها في العصر الجاهلي ، أو لكي نعرف بعض ما يمكن معرفته منها فإن علينا ان نلقي نظرة عابرة على الجزيرة العربية وأصل العرب ومبعثهم ليسهل علينا بعد ذلك ان نعرف جنسية سكان الحجاز بصورة عامة وجنسية سكان المدينة بصورة خاصة وأسلوب حياتهم .

ومن المؤسف ان تكون الوسائل التي يتم بها الوقوف على تاريخ العرب القديم بصورة علمية عميقة ليست كافية لتعطينا فكرة كاملة عن حياة العرب القديمة ، وكل ما ورد في الأخبار والقصص والأشعار والأساطير لا يتعدى مدى قرن أو قرنين على الأكثر قبل بعثة الرسول (ص) ثم ان كل ما جاء في الكتب العربية من تاريخ العرب – على ما أشار اليه فريد وجدي في دائرة المعارف – إنما كان يراد به الجانب الأدبي وتاريخه في الغالب ، فأين هو من الحقائق المؤيدة بالآثار والنقوش التي لا مجال للشك فيها .

وقد كتب في تاريخ العرب فطاحل من المؤرخين الاروبيين مثل (دروي) و (سديو) و (كوستاف لوبون) و (كوسان دوبرسفال) وهذا الأخير أشهرهم جميعاً ، ويعتبر كتابه أجمع الكتب لتاريخ العرب ولكنه دون كتاب تاريخ العرب للدكتور جواد علي من حيث الجمع

والتحقيق والاستقصاء – وعلى أن ما كتبه المستشرقون عن تاريخ العرب كان مستمداً من الكتب العربية فقد كان لهم فيه فضل التبويب والترتيب، وصحة الاستنتاج، والاستقصاء، ومع ذلك فإن هذا غير كاف لتحقيق تاريخ علمي صحيح للعرب، إذ المعول كله على ما يبذله المنقبون في الآثار والنقوش العربية والخطوط التي يعثرون عليها في اليمن وتدمر والحجاز. فإن هنالك آثاراً عليها نقوش حميرية بالقلم المسند. ونقوش آرامية بالقلم النبطي قد بدأت تكشف عن التاريخ القديم وتسفر عن الحقائق التي لم يكن يعرفها أحد من قبل عن العرب وتاريخهم البعيد وتلقي ضوءاً على فهم هذا التاريخ.

وأول من تصدى لهذه المباحث كان العالم الألماني (ميخايلس) المتوفى سنة ١٨٩١ ثم عثر الضابط الإنكليزي (ولسند) سنة ١٨٣٨ على نقوش حميرية باليمن اهتم بها العلماء غاية الاهتمام ولكنهم لم يستطيعوا حل رموزها إلا بعد سنين.

ووجد الضابط الإنكليزي (كروتندن) في صنعاء نقوشاً ظن أنها من خرائب مدينة (مأرب)، وأول من تصدى من الفرنسيين للبحث عن هذه النقوش والآثار كان المسيو (أرنو) فإنه اخترق اليمن سنة ١٨٤٣ وعاد ومعه ٥٦ نقشاً نقلها من صنعاء، ثم جاء المستشرق (أرسياندر) فحل رموز الآثار التي وجدها (أرنو) وذلك سنة ١٨٤٥.

وبعد هذا أرسلت وزارة المعارف الفرنسية المستشرق (جوزيف هاليفي) سنة ١٨٦٩ إلى اليمن فسار حتى بلغ مأرب، ورجع ومعه ٦٨٠ نقشاً، وجاء بعده (أدورد گلازر) الألماني، وساح في اليمن مراراً ونقل منها الف نقش. بينها نقوش غاية في القيمة التاريخية.

وعثر الباحثون أيضاً في شمالي بلاد العرب على آثار الأنباط فوجدوا منها آثاراً كثيرة في مدينة (بطرا) ومدينة (الحجر) واكتشفوا في

(حوران) و (العلا) نقوشاً بالخط المسند الحميري[١].

وقد لقي القرن العشرون من عناية علماء الآثار والبحاثين الشيء الكثير الذي كشف عن نواحي كانت غامضة من تاريخ العرب القديم، ومع ذلك فإن جميع ما اكتشف وما حققه الباحثون لا يؤلف إلا جزءاً صغيراً من التاريخ العربي في الأدوار القديمة التي تخص العرب البائدة، وظل التاريخ العربي القديم يعتمد في حكايته على الأساطير وما يترشح منها من القصص ومما ورد في التوراة أو الأخبار والشعر والأمثال.

والعرب على ما وصل إلينا من أخبارهم وعلى ما قسمهم المؤرخون قسمان: العرب البائدة. وهم الذين بادوا وانقرضوا قبل الإسلام بزمن بعيد ولم يبق منهم إلا تلك الأساطير المشار إليها والحكايات التي لا تزال تفتقر إلى ما يسندها من الآثار والنقوش، والخطوط، وهم قبائل: عاد، وثمود. والعمالقة. وطسم. وجديس. وجرهم وغيرهم، وقد ترشح إلينا من أخبارهم الشيء الذي لم يزل موضع مناقشة عند المؤرخين منها أخبار التبابعة والأذواء الذين شيدوا البنيان في الشرق والغرب ومصّروا الأمصار. والذين بنوا المدن الكبيرة (كافريقش) بن أبرهة. وما بنوا في المغرب من المدن كمدينة (أفريقيا) و (صقليا) وما كوّروا من الكور هناك وما اتخذوا من العمائر في أرض المشرق وبنيان مدينة (سمرقند) وما خلفوا هناك من قبائل حميرية بها[٢] ومنهم الحمورابيون ملوك بابل. وكل هذا وأمثاله مما ورد عن العرب البائدة لم يزل قيد الدرس عند المؤرخين الذين يبحثون اليوم بجد بين الآثار لمعرفة ما في تلك القصص والأخبار من الواقع الذي تسنده الآثار وتثبته الخطوط والنقوش.

والثابت من الآثار والتنقيبات التي أجريت في اليمن في السنين الأخيرة

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين مادة (عرب).

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٠ مط البهية المصرية

هو أن دولاً عربية كانت ذات حضارة ونظام قد قامت في التاريخ القديم فكان منها الدولة المعينية ، والدولة السبأية ، والدولة الحميرية ، وقد دلت هذه الآثار على مدنية قديمة ربما لم تقل شأناً عن مدنية الأشوريين ، والمصريين ، والفينيقيين ، فقد أنشأت تلك الدول في اليمن المدن ، وعمرت القصور ، وغرست الحدائق ، ونحتت التماثيل ، وحفرت المناجم ، ونظمت الجند ، وفتحت البلاد ، ووسعت التجارة ، وأتقنت الزراعة ، وقد ذكرهم هيردوتس الرحالة اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد . فقال : .

« إن في جنوبي بلاد العرب وحدها البخور والقرفة ، والدارصيني ، واللاذن والمر » وعدّها من أغنى ممالك العالم في زمانه [1] .

وقد سكن قسم من العرب البائدة الحجاز ، واستوطنوا (يثرب) وامتد نفوذهم إلى العراق والشام ومصر .

والقسم الثاني من العرب : هم العرب الباقية ، وهم على قسمين : عدنانيين وقحطانيين ؛ أما العدنانيون فهم من ولد اسماعيل وقد كان مسكنهم الرئيسي في الحجاز مكة المكرمة ، والقحطانيون وهم أولاد قحطان ، ومسكنهم الرئيسي من الحجاز (المدينة) ويقول المسعودي : وان من بقي من العرب البائدة قد دخلوا في العرب الباقية وهم قحطان ، ومعد ، ولا يعلم أن قبيلاً بقي يشار إليه في الأرض من العرب الأوّل غير معد (العدنانيين) وقحطان [2] .

وعلى أن معظم تاريخ العرب البائدة بل وحتّى الجاهلية الذي سبق ظهور الإسلام بقرن أو أكثر قليلاً ما زال مجهولاً فإن المحقق هو أن

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ٢٦ مط دار الهلال بمصر .
(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٠ مط البهية المصرية .

العرب انبعثوا من اليمن في دفعات أهمها الدفعة التي أعقبت سيل العرم.، وانتشروا في جزيرة العرب ، ومنها اندفعوا إلى خارج حدود الجزيرة ، وأن الحجاز ويثرب منه كان ملجأ تلجأ اليه قبائل اليمن العربية عند نزول الشدائد ، وحين تضيق بهم الأحوال الاقتصادية.. أو عند حدوث الغزو الكاسح ، وإذا لم نستطع أن نستخلص أصول التاريخ القديم لجزيرة العرب ،وسكانها القدماء فإننا نستطيع أن نؤكد أن الجزيرة العربية لم تعرف منذ أول تاريخها سكاناً غير العرب وأن الحجاز بالذات ، والمدينة منه كانت مسكناً منذ التاريخ القديم حتى اليوم من مساكن العرب البائدة اولاً ثم العرب الباقية أخيراً .

حياة سكان الجزيرة العامة

أما الحياة والنظام السائد في جزيرة العرب في العصر الجاهلي فهو نظام قبلي مرتبط بالقبيلة داخل الجزيرة ، ولكل قبيلة زعيم ورئيس أو شيخ يشترط في تبوئه الرياسة وجود مؤهلات خاصة فيه كالكرم ، والشجاعة والثروة النسبية ، وأن يكون حسن التدبير قد اكتسب من امتداد عمره وشيخوخته تجربة تساعد على رص الصفوف بين قبيلته وحفظ كيانهم ، وتنظيم شؤونهم العامة ، لذلك صار لكل قبيلة أنظمة ومراسيم خاصة يفرضها اختلاف طبيعة الشيوخ والرؤساء والظروف المعينة وما ورثوه من التقاليد المختلفة ، ولهذا صعب ان يتوحد النظام وتتفق المراسيم والتقاليد وصعب أن يكون للجزيرة طابع معين غير طابع البداوة التي لم تعرف شيئاً عن الدولة ومعناها داخل الجزيرة وأواسطها .

ويقول الرحالة (دوتي) : انه رأى في أهل البادية في هذا القرن – يعني القرن العشرين – من لا يتصور الدولة إلا على أنها قبيلة ، ويقيس

قوتها بما تملك من الأبل [١] ومع ذلك فلم تعدم الجزيرة في وقت من الأوقات نظاماً حضرياً شبيهاً بنظام الدول التي قامت في أطرافها ، مثل مملكة الحيرة ، ومملكة غسان ، ومملكة كنده .

أما مكة المكرمة ، والمدينة المنورة فعلى رغم ما بدا عليهما من معالم الحضارة فقد كانتا خاضعتين للنظام القبلي ، وقد جرى عرف العرب حتى في هاتين المدينتين على الانتساب إلى القبائل لا إلى المدن ، بل لم يعرف الانتساب إلى المدن إلا في القرن الثاني للهجرة [٢] وقد كان للعصبية القبلية حتى عهد الأمويين وأيام حكمهم أثر بارز في التفرقة بين المضريين والقحطانيين وموقف بعضهم من بعض في الحرب والسلم خلافاً للتعاليم الإسلامية التي كانت ترمي إلى القضاء على كل نعرة وتدعو إلى ذوبان القبائل في الدولة الإسلامية ، ولقد توسع مفهوم العصبية القبلية حتى عمت المنافسة والحروب القبلية ذات الأصل الواحد ، بل وحتى شملت الأفخاذ والأسر الصغيرة !!

نشأة المدينة المنورة وسكانها الأقدمون

كل ما ورد عن نشأة المدينة الأولى لا يتجاوز المزاعم والأساطير والحكايات فهناك من يزعم بأن أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قوم يقال لهم صعل وفالج ، فغزاهم داود النبي وأخذ منهم مائة الف عذراء [٣] !! وهناك من يزعم بأن بني عبيل وهم من العرب البائدة كانوا أول من نزلوا (يثرب) ، وعبيل هذا كما تزعم تلك الأساطير أنه ابن عوص ابن أرم بن سام بن نوح ، وقد كان أمير قبيلة من العرب العاربة

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٢٠٣ مط مخيمر .
(٢) المصدر المتقدم .
(٣) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار ص ٣٢٣ مط عيسى البابي الحلبي بمصر

التي انقرضت وهو أخو (عاد) بن عوص، أما الذي في (الروض) للسهيلي فهو أن عبيل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن ارم، وفي بعض هذه الأسماء اختلاف فيما ورد في الأخبار، وقال السهيلي: وبنو عبيل هم الذين سكنوا (الجحفة) فأجحفت بهم السيول فسميت الجحفة [1] وتسمى اليوم برابغ.

أما المسعودي فمن أقدم المؤرخين الذين يذكرون (الجحفة) ويعينون مكانها بين مكة والمدينة، ويقول: إن عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح هو الذي نزل بلاد (الجحفة) ومعه أولاده فهلكوا بالسيل، أما يثرب فيقول المسعودي أن يثرب وهو ابن قامة بن مهليل بن ارم بن عبيل قد نزل هو وولده ومن تبعه فيها فسميت بـه (يثرب) فهلك هؤلاء ببعض غوائل الدهر وآفاته فقال شاعرهم:

عينُ جُودي على عبيدٍ [2] برجعٍ بأمــاقٍ فيضانُهــا بانسجام
عمّروا (يثرباً) وليس بها سفرٌ و لا صارخٌ ولا ذو سنــامِ
غرَسوا لِينَتَها [3] بمجرى معــينٍ ثم حَفّوا السبيلَ بالأرحام [4]

وبين رواة هذه الأخبار والأساطير من يذهب إلى أن العمالقة هم الذين بنوا (يثرب) بعد خروجهم من مصر، ويقول محمد لبيب البتانوني في رحلته الحجازية: ان لنا في يهودية السكان ما يؤيد قول من ذهب إلى أن موسى في طريقه إلى فلسطين أرسل فرقة من قومه لتكشف له تلك الجهة فساروا إليها وبلغهم موته فبنوا مدينة (اثريبس) وأقاموا فيها [5]

---

(١) تاج العروس مادة (عبل).
(٢) هكذا ورد الاسم في هذه الطبعة والراجح أن يكون عبيلا وليس عبيداً.
(٣) اللينَ – كل شيء من النخل سوى العجوة (المنجد).
(٤) مروج الذهب ص ٣٢٣ مط البهية المصرية.
(٥) دائرة معارف القرن العشرين مادة (يثرب).

وعلى هذا فبالامكان اعتبار ابتداء عمران (يثرب) من سنة الف وستماية قبل المسيح أو الفين ومائتين واثنتين وعشرين قبل الهجرة[١] .

وكان العماليق – على هذا الرأي – هم الذين بنوا المدينة وزرعوا فيها الزروع وغرسوا النخيل . وعمروا الدور والاطام (الحصون) واتخذوا بها الضياع .

والعمالقة هم بنو عملاق بن ارفخشد بن سام بن نوح على ما تروي تلك الأخبار وكانوا ممن امتد نفوذهم وسطوتهم إلى جهات كثيرة فأخذوا ما بين البحرين وعُمان . والحجاز كله إلى الشام ومصر . فجبابرة الشام – وكان يقال لهم الكنعانيون – وفراعنة مصر . كانوا من العمالقة . وكان من العمالقة بالبحرين وعُمان أمة يسمون (جاشم) وكان ساكنو المدينة منهم : بنو هف وسعد ابن هفّان . وبنو مطرويل . وكان ملك الحجاز الأرقم بن أبي الأرقم ، ومن أشهر من ورد اسمه من العمالقة هو أذينة بن السميدع الذي استولى على بلاد الروم وتملك عليها وذكره الأعشى في شعره إذ قال :

أزالَ (أذينةَ) عن ملكـــه وأخرج عن ملكـه ذا يزنْ[٢]

ويقول ابن الأثير ان بني عبيل قد لحقت بيثرب قبل ان تبنى ولحقت العماليق بصنعاء قبل ان تسمى صنعاء ، وانحدر بعضهم إلى (يثرب) فأخرجوا منها (عبيلاً) ونزلوا موضع الجحفـــة ، وأن العماليق قوم عرب ولسانهم عربي[٣] .

وفي تاج العروس أن (يثرب) سميت بأول من سكنها من ولد سام

---

(١) المصدر المتقدم .
(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣١٤ مط البهية .
(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١ ص ٧٨ مط صادر ودار بيروت .

ابن نوح ، وقيل باسم رجل من العمالقة [١] .

وتوسع الزبيدي في أصل العمالقة الذين سكنوا (يثرب) ومصرّوها كما تقول الأخبار فقال : العماليق والعمالقة : قوم من عاد ، تفرقوا في البلاد ، وانقرض أكثرهم ، وهم من ولد عمليق كقنديل أو عملاق مثل قرطاس الأخير عن الليث : إنه ابن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام كما في الصحاح ، وفي المقدمة الفاضلة أن لاوذ أخو (إرم) وارفحشد بني نوح عليه السلام ، وقال الليث : وهم الجبابرة الذين كانو بالشام على عهد موسى عليه السلام .

وقال ابن الأثير : هم الجبابرة الذين كانوا بالشام من بقية قوم عاد . وقال ابن الجواني : عمليق : أبو العمالقة والفراعنة ، والجبابرة بمصر والشام وكانوا فبانوا منقرضين .

وقال السهيلي : من العماليق ملوك مصر الفراعنة منهم الوليد بن مصعب بن أشمير بن لهو بن عمليق وهو صاحب موسى عليه السلام ، والريان بن الوليد صاحب يوسف عليه السلام [٢] .

وكل ما أوردناه هنا عن نشأة (المدينة) الأولى وسكانها إنما هو خلاصة لأخبار لا يعول على أكثرها وذلك لعدم وجود ما يسندها من البراهين والأدلة من كتابات ونقوش وآثار ، وقد استُقيت هذه الأخبار عن نشأة المدينة الأولى وسكانها الأوائل من الروايات والأخبار المتناقلة ومن التوراة فسجلت في العصور الإسلامية كما تناقلتها الألسن دون تمحيص .

---

(١) تاج العروس مادة (يثرب) .
(٢) تاج العروس مادة (عملق) .

نزول اليهود المدينة

وتستمر هذه الأساطير في حكاياتها فتقول ان سبب نزول اليهود المدينة وأطرافها وضياعها على ما روى ياقوت في معجم البلدان وغيره هو أن موسى بن عمران بعث إلى الكنعانيين وهم (العمالقة) حين أظهره الله تعالى على فرعون ، فوطأ الشام ، وأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثاً آخر إلى (العماليق) في الحجاز الذين كانوا يحكمون تلك الأصقاع ، وأمرهم ان لا يستبقوا أحداً ممن بلغ الحلم من العمالقة إلا من دخل في دينه

وتقول الرواية : فقدموا على العمالقة وقاتلوهم وقتلوهم وقتلوا ملكهم (الارقم) وأسروا ابناً له وكان شاباً جميلاً كأحسن من رؤي في زمانه ، فضنوا به عن القتل ، وقالوا نستحييه حتى نقدم به على موسى ليرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم ، وقبض الله موسى وهم في الطريق وقبل وصولهم ، فلما قربوا ، وسمع بنو إسرائيل بذلك تلقوهم ، وسألوهم عن أخبارهم ، فأخبروهم بالفتح وما أصابوا في حربهم ، قالوا — فما هذا الفتى الذي معكم ؟

فأخبروهم بقصته ، فقالوا : إن هذه معصية منكم لمخالفتكم نبيكم ، والله لا دخلتم علينا بلادنا أبداً ، وحالوا بينهم وبين دخول الشام ..!!

فقال ذلك الجيش — ما بلد اذ منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذي فتحتموه وقتلتم أهله فارجعوا إليه .

فعادوا إلى يثرب وأقاموا بها ، فكان هذا أول تاريخ سكنى اليهود الحجاز والمدينة !! ثم لحق بهم بعد ذلك بنو الكاهن بن هارون — شقيق موسى بن عمران — فكانت لهم الأموال والضياع بالسافلة — والسافلة هي ما كان في أسفل المدينة إلى جبل أحد أما العالية فهي ما كان فوق المدينة فزعم بنو قريظة أنهم مكثوا كذلك زماناً .

وغزا الروم الشام واحتلوها وقتلوا من بني إسرائيل خلقاً كثيراً فخرج بنو قريظة ، والنضير ، وهدل ، هاربين من الشام يريدون الحجاز لينضموا إلى الإسرائيليين هناك ويسكنوا معهم ، ووجه ملك الروم في طلبهم من يردهم فأعجزوا رسله وفاتوهم على ما تقول الأخبار ، والراجح هو أن الروم قد طاردوهم فهاجروا إلى الحجاز لأول مرة وسكنوا المدينة وأطرافها منذ ذلك التاريخ [١] .

وفي الأساطير التي جاء بها بعض مورخي الحجاز من اليهود أن سبب نزول اليهود (يثرب) هو أن ملك الروم حين ظهر على بني إسرائيل واحتل الشام خطب إلى بني هارون ابنة منهم ، ولما كان زواج اليهودية بالمسيحيين وغيرهم ليس جائزاً فقد تحير اليهود في الأمر ، وخافوا بطش الملك فجاملوه وتحببوا إليه ، وسألوه ان يشرّفهم بزيارته لهم ، وحين جاءهم فتكوا به وبمن معه وهربوا إلى الحجاز وأقاموا بها .

ويقول ابن النجار : وكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق وكان الحجاز أكثر بلاد الله شجراً ، وأظهره ماء ، فنزل اليهود منه حيث شاؤا ، بعد ان هاجروا بسبب اضطهاد الروم لهم ، ويؤيد ذلك ما جاء في المصادر الإفرنجية ؛ أن مستعمرات اليهود في الحجاز كقرى خيبر وغيرها قد كوّنها اليهود الذين اضطهدهم أباطرة الرومان من أمثال (أدربان) الذي طردهم من فلسطين عام ١٣٢ [٢] .

وكان جمع من اليهود قد نزلوا (زهرة) وهي محل بين الحرة والسافلة مما يلي القف ، وكانت لهم الأموال بالسافلة ، ونزل جمهورهم بمكان يقال له (يثرب) بمجمع السيول : سيل بطحان والعقيق ، وسيل قناة مما يلي رغاية .

---

(١) معجم البلدان مادة (المدينة) مط صادر ودار بيروت .

(٢) من تعليق لجمع من العلماء على كتاب الدرة الثمينة لابن النجار .

وخرجت قريظة وأخوانهم بنو هذل ، وهدل ، وعمرو ، أبناء الخزرج بن الصريح ابن التوم بن السبط بن اليسع ، بن العتين بن عيد بن خيبر ابن النجار بن ناحوم بن عازر بن هارون بن عمران ، والنصر بن النجار بن الخزرج بن الصريح بعد هولاء ، فتبعوا آثارهم ونزلوا بالعلية على واديين يقال لهما (مذينيب) و (مهزور) ، فنزل بنو النضير على (مذينيب) واتخذوا عليه الأموال ، ونزل بنو قريظة وهذل على (مهزور) واتخذوا عليه الأموال ، وكانوا أول من احتفر بها الآبار ، واغترس الأموال ، وابتنى الآطام والمنازل ، وقد قيل : إن جميع ما بنى اليهود بالمدينة كان تسعة وخمسين اطماً أي قلعة [1] .

* * *

إلى هنا والتاريخ لم يسلم من شوائب الأساطير والحكايات المغرقة في الخيال والمزاعم التي تفتقر إلى تأييد مادي يعتمد الخطوط والنقوش والآثار ليصحّ تعيين مبدء لتاريخ المدينة القديم وسكانها القدماء وأجناسهم ، وكل ما يمكن الجزم به هو أن مدينة (يثرب) مدينة قديمة — كما قلنا — ومغرقة في القدم وقد ورد اسمها في الكتابات (المعينية) مما يدل على قدمها ، وأن (المعينيين) قد استعمروها على ما يستنتج من تلك الكتابات ، فقد كانت للمعينيين مستعمرات على طول الطريق التجاري من اليمن — مركز المعينيين — حتى تخوم الشام ، فليس من المحتمل أن يكونوا قد تجاوزوا يثرب دون ان ينتفعوا بموقعها ، وخصب أرضها ، وكثرة مياهها ، واتخاذها مستعمرة لهم ، ومحطة لتجارتهم ، لا سيما وأن مستعمراتهم كانت متصلة إلى شمال يثرب وعلى طول (وادي القرى) .

وإذا كان اسم (يثرب) قد ورد في الكتابات المعينية القديمة فلا بد

---

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار — الملحق الثاني لشفاء الغرام ص ٣٢٤ مط عيسى البابي الحلبي بمصر .

أنها كانت من المواضع التي سكنتها جاليات من المعينيين ثم صارت إلى السبائيين بعد زوال مملكة معين [١].

ولما كانت عوامل السكن والاستيطان متوفرة في هذه البقعة من الأرض ولا سيما الزراعة كان من البدهي ان تكون يثرب مطمح الأنظار من قديم الزمان وأن يقصدها السكان من جميع الجهات . أما تاريخها فمثل تاريخ كثير من المدن القديمة المجهولة الأصل ، فليس بالبعيد ان تكون كغيرها من المدن الزراعية نشأت في بادىء الأمر قرية صغيرة ثم كبرت فكانت مركزاً لملاكي الضياع ومسكناً للفلاحين والمزارعين الذين يذهبون صباحاً إلى حقولهم ويعودون مساء إلى بيوتهم ، وأن مثل هذا النهج في الحياة ، ومثل هذا الأسلوب في معيشة السكان لمنتهج في أغلب المدن القديمة عند أول تكوينها وتمصيرها ، وما زال سارياً منذ عهد حمورابي حتى يومنا هذا [٢] باستثناء المدن التي أنشئت لتكون مدينة منذ أول يوم كبغداد والقاهرة وسامراء وغيرها .

وكان ليثرب العوامل التي تستدعي قيامها في هذا الموضع من الحجاز وتستدعي ان يمتد نفوذها إلى مناطق بعيدة وواسعة تشمل قرى وضياعاً وأودية .

والقرى المحيطة بيثرب القديمة ككل القرى الأخرى يومذاك ، كانت تتألف في الأول من عدد من البيوت ، وتضم عدداً من الأسر تكثر وتقل تبعاً لأهمية موقع القرية وطبيعتها وعواملها الأخرى ، وتشد هذه الأسر روابط من الرحم والقرابة أو الجوار أو المصالح المشتركة ، فإذا كانت القرية واقعة في منطقة زراعية آل امتلاكها وزعامتها في الغالب إلى شيخ

---

(١) الدكتور جواد علي ج ٣ ص ٣٩٥ أسرجه أحمد ابراهيم الشريف في (مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول) .

(٢) جغرافية العالم الإقليمية – مؤسسة فرنكلين ج ٢ ط دار الحياة ببيروت .

أو رئيس قبيلة [١] ثم تؤول هذه الزعامات إلى زعيم واحد يكون ملكاً أو أميراً أو رئيساً كبيراً أو أية شخصية ذات نفوذ ووجاهة وقوة ، وحين يتساوى النفوذ بين صغار الرؤساء أو الكبار تقع الحروب القبلية وتستمر على مرور السنين حتى يتم خضوع الضعيف من القبائل والأسر للقوي المتنفذ ، أو يحصل اتفاق تفرضه المصلحة بين الزعماء يكون من شأنه تحديد النفوذ والسلطة وتعيين حدود كل رئيس وعلاقته بالآخرين من أتباعه أو جيرانه أو أصدقائه وأعدائه ، وقد مرّ مثل هذا على يثرب فمرّ تاريخها بالشيء الكثير من الخصومة والمعارك والصلح والمسالمة ، وشهدت في مختلف أدوارها ممن حكمها ما رفع قدرها حيناً وما ألحق بها من الخسائر والأضرار حيناً آخر .

وعلى هذا النهج قامت هذه المدينة ، وسكنتها قبائل لها صولة وجولة ومكانة في تاريخ جزيرة العرب .

* * *

وكلما بدأ الزمن يدنو من ظهور الإسلام كان يتلاشى أثر الأساطير والأخبار في تدوين التاريخ المقارب للواقع ، إذ يكون الرولة أقرب إلى مصدر الخبر والوقوف عـلى الوقائع عن كثب وتلقي الأخبار عن الثقاة في سلسلة قصيرة لا تسمح الظروف بإضافة نسبة كبيرة من الحلقـات المختلفة إليها .

وأن مثل هذا التاريخ القريب من الواقع بعض القرب والذي قد نجد لبعض حكاياته ما يسنده من الآثار قد بدأت علائمـه منذ ظهور اليهود والأوس والخزرج على مسرح تاريخ المدينة ، على رغم ما فيه من مبالغة وإغراق .

---

(١) المصدر المتقدم .

فالحقيقة التي يمكن أن يتوصل اليها المؤرخ هي أن اليهود قد نزلوا يثرب سواء تم نزولهم في أيام موسى وفي أثناء حربه العمالقة الذي نستبعده نحن – أو بدفعات نتيجة للعوامل الطبيعية والظروف التي تحتم علـى الأقوام الهجرة – وهو ما نميل اليه ونأخذ به – وأنهم بناء على ما عرفوا به من نزعة في كيفية استثمار الأموال والتجارة واستغلال مرافق الحياة وقصر المنفعة عليهم دون غيرهم استطاعوا أن يستولوا علـى ثروة البلاد ويسخروا مواردها لمنفعتهم حتى لقـد استأثروا بثروة (يثرب) كلها ، وكانت المدينة كما أشرنا من حيث الخصب والشجر والميـاه والموقع التجاري الاستراتيجي مطمح الأنظار فكان لها من القابلية مـا تستوعب سكنى الكثيرين من المهاجرين .

وكان أشهر اليهود الذين أمسكوا بزمام البلد واستولوا على مرافقة الزراعية والتجارية بنو قريظة وبنو النضير ، حتى صاروا ملوكاً ، وكانت يثرب وتهامة في الجاهلية تدفع الخراج لعامل عليها من قبل (مرزبان) فلما قويت شوكة اليهود وأصبحوا حكاماً بدأ سكان يثرب وضياعهـا يدفعون الخراج لليهود ولذلك قال بعض الأنصار :

نؤدّي الخَرْجَ بعد خراجِ كسرى وخرج بني قريظة والنضـير[1]

---

(١) معجم البلدان مادة (يثرب) مط صادر ودار بيروت .

الأوس والخزرج

وفي هـذا الوقت او قبله كان قوم من القحطانيين آخرون وهم الأوس والخزرج قد نزحوا من اليمن ونزلوا يثرب ، ولنزوحهم من اليمن قصص وحكايات لا يطمئن اليهـا المؤرخون المتثبتون ، وكل ما يمكن استخلاصه هو أن الأوس وخزرج وهم أبناء حارثة ابن ثعلبة قد هاجروا من اليمن إلى المدينة في دفعات، واستوطنوا يثرب كما فعل اليهود بناء على وفرة مياهها ورغد العيش فيها ، وأقاموا بين قريظة والنضير ، وخيبر ، وتيماء ، ووادي القرى ، ونزل أكثرهم في يثرب ، وكثيراً ما هاجر القحطانيون من اليمن عنـد نزول الشدائد والكوارث — كما قلنا — حتى لقد تم لهم حين تكاثروا ان ينشؤوا دولاً كدولة الغساسنة في الشام ، ودولة المناذرة في العراق ، وكندة بنجد وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

وجاء في دائرة المعارف أن القحطانيين خارج اليمن كانوا تسع عشرة قبيلة — أي قبائل يمانية غير عدنانية — وهي :

قبائل طي ، والأشعر ، وبجيلة ، وجذام ، والأزد ، وعاملة ، وكندة ، ولخم ، ومذحج ، وهمذان ، ومازن ، وغسان ، وعدنان ، ومزيقيا ، وأزد ، وشنوءة ، والأوس ، والخزرج ، وخزاعة ، ولكل من هذه القبائل بطون ، وأفخاذ ، وعمائر ، وعشائر لا سبيل لحصرها .

فليس من الشرط أن تختلق لنزوح الأوس والخزرج معاذير وأسباب

أكثر من أنها نزحت كما تنزح سائر القبائل حين تشتد بها الحاجة كأن يصيبها المحل ، أو تبددها الحروب ، أو تحل بها كارثة عامة ، ولعل لانهيار سد مأرب الأثر الكبير في مثل هذا التفرق الذي ظهر على القبائل القحطانية في اليمن .

وكان في (المدينة) قرى وأسواق لليهود من بني إسرائيل كما مر وكان قد نزلها عليهم أحياء من العرب قبل نزول الأوس والخزرج وهم : بنو أنيف ، حي من بلى وقيل إنهم من بقايا العمالقة ، وبنو مريد وهم حي من بلى أيضاً وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس ابن عيلان ، وبنو الجذما وهم حي من اليمن ، فبنوا الآطام والمنازل في يثرب وكانت الاطام عزّ أهل المدينة ومنعتهم التي يتحصنون فيها من عدوهم فكان منها ما يعرف اسمه ، ومنها ما لا يعرف اسمه ، ومنها ما يعرف باسم سيدها ، ومنها ما لا يدرى لمن كانت هذه الحصون ومنها ما جاء ذكرها في الشعر ، ومنها ما لم تذكر ، وكان ما بني من الاطام للعرب بالمدينة ثلاثة عشر أطماً [١] .

وقال ابن النجار عن العرب الذين كانوا في المدينة قبل نزول الأوس والخزرج نقلاً عن عبد العزيز بن عمران أنهم أحياء من العرب منهم أهل التهمة تفرقوا جانب بلقيز إلى المدينة فكانت منازلهم بين مسجد الفتح إلى يثرب في الوطا وجعلوا الجبل بينهم وبين المدينة وقد أبّروا الآبار وزرعوا الأرض وعمروها .

وحين نزول الأوس والخزرج المدينة كان فيها من اليهود بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو محمحم ، وبنو زعورا ، وبنو قينقاع ، وبنو ثعلة ، وأهل زهرة ، وأهل زبالـــة ، وأهل يثرب ، وبنو القصيص ، وبنو

---

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار ص ٣٢٥ من الملحق الثاني على كتاب شفـــاء الغرام مط احياء الكتب العربية .

فاعصة ، وبنو ماسكة وبنو القمعة ، وبنو زيد اللات ، وهم رهط عبد الله ، وبنو عكوة ، وبنو مرانة .

ولا يُعلم كم لبث الأوس والخزرج حتى استقر بهم المقام وحتى صار لهم شأن يذكر بين اليهود الذين كانوا يملكون المال والقلاع والسلطة الزمنية في يثرب وضياعها ، بحيث رأى اليهود ان مصلحتهم تستدعيهم إلى ان يعقدوا بينهم وبين الأوس والخزرج حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم من بعض ويمنعون بهذا الحلف من يتحداهم بالغزو أو الحرب من الخارج ، فتعاقدوا وتحالفوا وتشاركوا وتعاملوا ، ولم يزالوا على ذلك زمناً طويلاً ، وقد أثرى الأوس والخزرج وصار لهم مقام وجاه وصولة في يثرب .

وعلى أن الأوس والخزرج وقبائلهم ، وأن قريظة وبني النضير وسائر اليهود كانوا متقاربين في المجاورة والمنازل فقد اختصت كل جهة بكثافة معينة من تلك القبائل .

حضارة المدنية
ومنازل اليهود والعرب منها

فحرّة (واقم) وهي الحرة الواقعة شرقي (المدينة) كما عيّنا موقعها في محل آخر من هذا البحث كانت مسكونة بأهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة وعدد آخر من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية من بني عبد الأشهل ، وبني ظفر ، وبني حارثة ، وبني معاوية .

وتنقسم حرّة (واقم) باعتبار المنازل الواقعة منها قديماً إلى خمس مناطق متجاورة ، منطقتين منها كانتا لليهود ، وثلاث كانته للأوس .

وفي منازل عبد الأشهل من الأوس كان يقوم حصنهم (واقم)

(٣)

الذي سميت (الحرّة) باسمه، وقد ترك أصحاب هذه المنازل من اليهود والأوس آثاراً في (الحرّة) تدل على حضارة ونظام مدني لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس، ذلك لأن هذه (الحرّة) صارت ميدان حرب حين ظهر الإسلام واستقر في المدينة وخان اليهود العهود والمواثيق التي كانت بينهم وبين النبي (ص) الأمر الذي اضطر النبي (ص) إلى محاصرة بني النضير من اليهود حتى أجلاهم، ثم حاصر بني قريظة حتى قضى عليهم[١].

ومن ذكر أسماء القصور والحصون والقلاع في المدينة وضواحيها ومما بقي من أطلالها حتى اليوم تقوم أدلة كثيرة على وجود حضارة ذات لون خاص عرفت به المدينة المنورة بين المدن العربية القديمة، فهذه القلاع الضخمة المشيدة في جميع أنحاء يثرب والمبنية بالصخور والحجارة السوداء والتي لم يزل بعضها قائماً كحصن (الضحيان)، وحصن كعب بن الأشرف النبهاني، والقصور المنتشرة هنا وهناك ولا سيما قصور وادي العقيق، والأسوار التي كانت تحوط بعض القرى المنيعة، والابهاء التي تحيط ببعض الأبنية كسقيفة بني ساعدة لتشير كلها إلى طراز خاص من الحضارة التي تدل على شيء كثير من الاستقرار والراحة والنعمة، إضافة إلى الصهاريج وأقنية المياه وحفر الآبار وتنظيم السقي والمزارع.

أما الأبنية العامة أو بيوت الطبقة الوسطى فعلى رغم بساطتها من حيث المواد والطراز والهندسة فهي الأخرى لا تخلو من مظهر من مظاهر الحضارة في مثل تلك العصور وفي وسط محاط بقبائل البدو الرحل الذين لا تتجاوز حياتهم الحياة البدائية.

ويستبان من الحفريات التي يجريها المهندسون في المدينة المنورة اليوم

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٢٨٨ مط مخيمر.

لإقامة الأبنية الجديدة وشق الأسس أن كثيراً من ابهاء دور المدينة القديمة التي يعثرون عليها كانت مفروشة بالطوب المربع الأحمر ، ومبنية بالطين ، واللبن ، والحجارة ، والراجح أنهم كانوا يستعينون بأخشاب الأشجار التي يأتون بها من الوديان فيعملون منها الأبواب والنوافذ ، أما الزخرف فلم يكن معروفاً في العمارة العربية قبل الإسلام ولا في الصدر الأول منه [1] .

وفيما يعثر عليه المهندسون وهم يشقون الأسس من أشياء ، تكفي وحدها لتدل على لون الحياة الرفيهة التي لا يجوز اعتبارها حياة غير حضارية ، وقد جاء في كتاب (آثار المدينة) لعبد القدوس الأنصاري : أن العمال وهم يحفرون الأرض في (المدينة) لوضع نصب تذكاري سنة ١٣٣٥ هـ إذ انفتحت لهم هوة كشفت عن بيوت كانت سقوفها تحت طبقة هذه الأرض فنزلوا اليها ووجدوا بها ثياباً معلقةً على حبال !! ومع بلاها فقد كانت محتفظة بشكلها وهندامها وهي متماسكة بحكم الرطوبة ، وعدم تخلل الهواء للغرف الموجودة بها ، فدمّروا البيوت ، وشادوا عليها النصب وقد اتضح أن المدينة الحديثة مبنية فوق المدينة القديمة .

وعند دخول الإسلام المدينة كانت مواد البناء وهندسته عند الطبقة الوسطى لم تزل على ما هي عليه من أبعد العصور ، وحين قام النبي (ص) ببناء أول مسجد أسهم هو وابن عمه الإمام علي (ع) في العمل ، وكانت مواد البناء كما تقول الأخبار من اللبن ، وكان علي (ع) يعمل في البناء ويرتجز ويقول :

لا يستوي من يَعمرُ المساجدا يَدأب فيها قائماً وقاعدا
ومن يُرى عن الغبار حائدا

وكان عثمان بن عفان (ض) رجلاً نظيفاً متنظفاً — على ما يصفون —

---

(١) في منزل الوحي للدكتور هيكل ص ٤٥٢ مط دار الكتب المصرية .

يحمل اللبنة فيجافي بها عن ثوبه فإذا وضعها نفض كمّه وما يكون قد أصاب ثوبه من التراب [١] .

ومعظم كثافة سكان اليهود كان (بزهرة) من منازل بني النضير ، وبشمالها كانت منازل بني قريظة . وقد عرفت (غرس) منها بكثافة السكان .

قال الواقدي : وكانت منازل بني النضير بناحية (الغرس) [٢] وفي خارج المدينة . وفي الضياع والقرى . دساكر ومنازل اختصت باليهود من يثرب . وعجت بكثافة سكانها منهم خصوصاً بعد أن تغلب عليهم الأوس والخزرج ففر الكثير منهم إلى (خيبر) وإلى (فدك) وسائر القرى الأخرى وكانت لهم على (مذينيب) و (مهزور) بصورة خاصة — كما مر من قبل — منازل ومساكن وقلاع ما لبثت ان اكتظت بالسكان .

* * *

وكانت مصلحة السكن والاستقرار هي التي تفرض على القبائل العربية والقبائل اليهودية الالتئام والتقارب وإلا فإن هذه القبائل كانت على طرفي نقيض في العادات والأخلاق والتقاليد والدين بصورة خاصة . فقد كان الأوس والخزرج كسائر العرب يقدسون أصنام قريش بصورة عامة وعلى الأخص (مناة) بل لقد كان مناة هو الصنم الأكبر عند الأوس والخزرج ، وكان هذا الصنم منصوباً على ساحل البحر بناحية (المشلل) بقديد بين المدينة ومكة . وهو أقدم من الأصنام الأخرى كاللات والعزّى [٣] وسمت العرب : عبد مناة ، وزيد مناة [٤] .

---

(١) في منزل الوحي ص ٤٤٨ مط دار الكتب المصرية .
(٢) تاج العروس مادة (غرس) .
(٣) بلوغ الارب للالوسي ج ٢ ص٢٠٢ ط ٢ مط الرحمانية بمصر .
(٤) لسان العرب مادة (مني) .

وكانت العرب جميعاً تعظم (مناة) وتذبح حوله . ولكن الأوس والخزرج كانوا أشد إعظاماً له من سائر القبائل و (مناة) الصنم هو (منوتّ أو مَنَوَتْ Manavat عند النبط[1] » .

* * *

وتكاثر نزول العرب في يثرب وأطرافها ، وصار للأوس والخزرج منازل ومبان وأملاك وأموال أكثر من ذي قبل ، ولا بد أن تكون قد حدثت حوادث موضعية بين العرب واليهود وهو أمر طبيعي كثيراً ما يحدث بين الأسرة الواحدة والبيت الواحد كما حدث بعد ذلك بين الأوس والخزرج إضافة الى ان الحذر من ابرز طبيعة اليهود ، فآلت تلك الحوادث الموضعية الى توتر الحالة العامة بين العرب واليهود واستغل اليهود كثرتهم وتفوقهم على العرب فتنمروا للاوس والخزرج ونقضوا العهود والحلف الذي كان قائماً بينهم واعلنت الحرب ، وكان مالك بن العجلان من الخزرج ابرز رجالات القبيلتين فسودّته القبيلتان عليهما ، واحسن هذا تحشيد الرجال وتوحيد الصفوف والهجوم حتى استولى في المدينة على حصون اليهود ودفع بهم الى خارج يثرب ، والى الضياع التي يسكنها قومهم ، واتخذ هناك الأوس والخررج الديار والأموال وتفرقوا في (عالية) المدينة و(سافلتها) وجاء بعضهم الى عفا من الأرض لا ساكن فيه فنزله ونزل بعضهم بعض قراها واتخذوا فيها الأموال والاطام فكان ما ابتنوا من الاطام مائة وسبعة وعشرين أطماً (حصناً) واقاموا كلمتهم وأمرهم مجتمع[2] وصارت الكلمة العليا للأوس والخزرج .

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ١٦٠ مط مخيمر .

(٢) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، لابن النجار – الملحق الثاني لشفاء الغرام ص ٣٢٧ مط دار أحياء الكتب بمصر .

الاسطورة

وهنالك اسطورة في كيفية تغلب الاوس والخزرج على اليهود لابأس من إيرادها هنا للاطلاع على ما تقول الاخبار عن هذه الحرب .

فلقد قيل ان مالكاً هذا الذي سوّده الاوس والخزرج عليهم قد استعان بابي جبيلة وهو احد ملوك الغساسنة في الشام على حربه حين تغلب اليهود على العرب فجاء ابوجبيلة بقومه وقتل اليهود في خدعة انطلت عليهم ومهد للاوس والخزرج الاستيلاء على المدينة لان الاوس والخزرج كانوا ضعفاء لا يقوون على الوقوف في وجه اليهود ، فتقول الاسطورة :

إنه كان لبني اسرائيل في المدينة مَلِكٌ يقال له (الفيطوان) ويقول ياقوت بل انه (الفطيون) استناداً الى ما جاء في كتاب ابن الكلبي ، وكان اليهود ، والاوس والخزرج يدينون له ، وكانت له فيهم سنّة ألاّ تزوج امرأة منهم إلا أدخلت عليه قبل زوجها حتى يكون هو الذي يفتضّها !! إلى ان زوجت اخت لمالك ابن العجلان فيها وهو ابن زيد السالمي الخزرجي ، فلما كانت الليلة التي تهدى فيها الى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقيها واخوها مالك في المجلس ،

فقال لها ـــ : قد جئت بسوءة بخروجك على قومك وقد كشفت عن ساقيك .

قالت ـــ : الذي يراد بي الليلة أعظم من ذلك لأنني أُدخل على غير زوجي .

ثم دخلت الى منزلها فدخل إليها اخوها وقد أرمضه قولها فقال لها :

ـــ هل عندك من خبر ؟

قالت ـــ نعم فماذا ؟

قال ـــ أدخل معك في جملة النساء على (الفطيون) ، فاذا خرجن من عندك ودخل عليك ضربته بالسيف حتى يبرد .

قالت — افعل .

فتزّيا بزي النساء ، وراح معها ، فلما خرجت النساء من عندها دخل (الفطيون) عليها فشدّ مالك بن العجلان بالسيف وضربه حتى قتله وخرج هارباً الى الشام وقصد فيها ابا جبيلة ، — وقيل بل فر الى اليمن وقصد تبع الاصغر بن حسان — وشكا الى ابي جبيلة ما كان من (الفطيون) وما كان يعمل في نسائهم . وذكر له انه قتله وهرب . وانه لا يستطيع الرجوع خوفاً من اليهود . فعاهده ابوجبيلة ان لا يقرب امرأة . ولا يمسّ طيباً . ولا يشرب خمراً . حتى يسير الى المدينة ويذلّ من بها من اليهود ؛ واقبل سائراً من الشام في جمع كثير مظهراً انه يريد اليمن حتى قدم المدينة . ونزل بذي حُرُض . ثم ارسل الى الاوس والخزرج إنه على المكر باليهود وهو عازم على قتل رؤسائهم . وانه يخشى متى علموا بذلك ان يتحصّنوا في آطامهم . وأمرهم بكتمان ما أسرّه اليهم ؛ ثم ارسل الى وجوه اليهود ان يحضروا طعامه ليحسن اليهم ويصلهم ، فأتاه وجوههم واشرافهم ومع كل واحد خاصته وحشمه . فلما تكاملوا أدخلهم في خيامه ، ثم قتلهم عن آخرهم ، فصارت الاوس والخزرج من يومئذ أعزّ أهل المدينة ، وقمعوا اليهود ، وسار ذكرهم ، وصار لهم الأموال والاطام[1] .

عودة الى التصافي

ويبدو من متابعة التاريخ ان المصلحة عادت فوفقت بين قبائل العرب وقبائل اليهود ، وقد ساد الفريقين صفاء ضمنته احلاف وعهود جديدة ، فقد حالف بعض اليهود الأوس ، وحالف بعضهم الخزرج وفي هذه المرة وقف كل فريق مع حليفه في الحروب بحكم المصلحة على الرغم من تعارض

(١) معجم البلدان مادة (مدينة) — كتاب الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار ص ٣٢٧ —كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ١ ص ٦٥٦ مط صادر وداربيروت .

هذا الوقوف مع احكام التوراة ، وقد ظل اثر هذه الاحلاف الى ما بعد الهجرة اذ ظل الأوس والخزرج متمسكين بحلفهم مع اليهود ، وقد أشارت بعض آيات القرآن الكريم الى هذا التمسك والتزام العرب بهذا الحلف ووعدهم لليهود بالنصرة إذا ما قامت حرب ضدهم . وسمى القرآن اولئك بالمنافقين لانهم اظهروا الاسلام وقبلوه ومع ذلك فقد ظلوا على حلفهم ومواثيقهم وتضامنهم مع اليهود وذلك في الآية الكريمة :

« ألم تَر » يا محمد « الى الذينَ نافقُوا » فاظهروا الايمان وابطنوا الكفر « يقولون لاخوانهم » في الكفر وهم « الذينَ كفروا من أهل الكتاب » يعني يهود بني النضير . « لئن أخرجتُمْ » من بلادكم « لنخرجنّ معَكم » مساعدين لكم « ولا نُطيعُ فيكم أحداً ابدا » يعني في قتالكم ومخاصمتكم « ولئن قُوتلتُم » معاشر بين النضير « لننصرنّكم » ولندفعن عنكم [1] .

وكانت صلات الاوس والخزرج واليهود بالقبائل العربية الاخرى ولاسيما قريش صلات طيبة ، حتى لقد أصهر هاشم بن عبد مناف الى بني النجار الخزرجيين من أهل يثرب ، وظل ابنه عبد المطلب على صلة وثيقة باخواله هؤلاء ، كما كان لغيره من زعماء مكة صداقات واتصالات بزعماء يثرب ، ولكن قريشاً كانت تتجنب الحلف مع قبائل المدينة منعاً لتورطها في دخول حلف ربما جرّ الى التدخل في الحروب الداخلية التي كانت تنشب من آن لاخر بين الاوس والخزرج قبيلتي يثرب[2] ، وظلت علاقة قريش طيبة مع يثرب برغم ما كان يمكن ان يحدث من تنافس بين المدينتين الواقعتين على طريق التجارة .

كذلك كانت صلات مكة باليهود جميعاً طيبة في يثرب ، وخيبر ،

---

(١) التبيان في تفسير القرآن للطوسي – سورة الحشر الآية ١٠ ج ٩ ص ٥٦٨ مط النعمان في النجف الأشرف .

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ١٤٩ مط مخيمر .

وتيماء ، ووادي القرى ، كما كان اليهود يجلّون القرشيين ويعتبرونهم سادة العرب ، وملوك الناس ، ولم يكن اليهود في جزيرة العرب يحفلون كثيراً بتعاليم التوراة التي تأمرهم بالابتعاد عن الوثنيين وتلزمهم بمعاداتهم ، ومحاربتهم ، وإنما كانوا يجرون وراء مصالحهم المادية [1] .

حروب المدينة وأيامها المشهورة

وكان من الطبيعي بعد ان صفا الجو للاوس والخزرج واصبحوا هم الآمرين والناهين في يثرب أن يدّب الخلاف بينهم بداعي احتكار السلطة والمنفعة لاسيما وقد أمنوا جانب اليهود ولم يستطع الاصل والنسب المشترك ان يحول دون التنافس بينهما وذلك لداعي تنازع البقاء فقامت بين القبيلتين حرب طاحنة لم تخمد نيرانها مرة الا وتشب من جديد ، وقد اشار المؤرخون الى العداء القائم بينهم ووصفوه بكونه عداءً تجاوز حد الوصف !!

روى الطبري قال : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : قال ابن اسحاق : كانت الحرب بين الاوس والخزرج عشرين ومائة سنة !! حتى قام الاسلام وهم على ذلك فكانت حربهم بينهم وهم اخوان لأب وام فلم يسمع بقوم كان بينهم من العداء والحرب ما كان بينهم [2] وكان لهم من العز والجاه والتاريخ الذي حكى الشعر جانباً كبيراً منه ما سجل الكثير من المفاخر العربية في شتى الميادين فتهدم هذا بسبب تلك الحروب حتى ضعف شأن هاتين القبيلتين ، وضاع بسبب ذلك الكثير مما اكتسبت المدينة من المجد والعز والجاه والثروة .

وقد عرفت لحروبهم ايام مشهودة اشهرها : يوم الصفينة ، وهو اول يوم جرت الحرب فيه ، ويوم السرارة ، ويوم وفاق بني خطمة ،

---

(١) المصدر المتقدم .
(٢) دائرة معارف القرن العشرين مادة (الأوس) .

ويوم حاطب بن قيس ، ويوم حضير الكتائب ، ويوم أطم بني سالم ، ويوم أبتروه [١] ويوم البقيع ، ويوم بعاث ، ويوم مضرس ومعبس ، ويوم الدار ، ويوم بعاث الاخر ، ويوم فجار الانصار .

وكانوا ينتقلون – كما يقول اليعقوبي – في هذه المواضع التي تعرف ايامهم بها ويقتتلون قتالاً شديداً [٢] .

ولم تقتصر حرب المدينة على الاوس والخزرج وإنما شاهدت المدينة من غزو الغازين حروباً ضارية كان من اشهرها غزوة تبّع الاخر للمدينة ، وهو تبان أسعد أبوكرب ، وكان قد جاء من المشرق جاعلاً طريقه على المدينة ، وكان حين مرّ بها في بدأته لم يَهِجْ أهلها وقد خلف بين اظهرهم ابناً له فقتل ابنه هذا غيلة فقدم تبّع وهو مجمع لإخراب (المدينة) واستئصال أهلها ، وقطع نخلها ، فجمع له هذا الحي من الانصار حين سمعوا بذلك من أمره ليمتنعوا منه ، وكان رئيسهم يومئذ عمرو بن الطلة احد بني النجار من الخزرج ثم أحد بني عمرو بن مبذول ، فخرجوا لقتاله ، والذي زاد من حقد تبّع وموجدته على يثرب هو انه حين نزل بهم تصدى رجل من بني عدي بن النجار يقال له : أحمر ، فقتل رجلاً من أصحاب تبعّ وكان قد وجده في عذق له يجدّه على ما أورد الطبري ، فضربه بمنجله فقتله وقال : « إنما الثمر لمن أبَرَّه » اي اصلح زرعه ، ثم القاه حين قتله في بئر من آبارهم المعروفة يقال لها (ذات تومان) فوقعت الحرب بين تبّع والاوس والخزرج ، وبينا كان تبّع على ذلك من حربه وحربهم يقاتلهم ويقاتلونه قال ابن حميد يحدّث عن سلمة عن محمد بن اسحاق : ان الانصار من الاوس والخزرج زعموا انهم كانوا يقاتلون (تبّعاً) بالنهار ويقرونه بالليل فيعجبه ذلك منهم

---

(١) وفي التعليق على هذا الاسم من تاريخ اليعقوبي ترجيح بأنه يوم البزوة ، والبزوة موضع قريب من المدينة ، ذكره ياقوت في معجم البلدان .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٧ مط – النجف .

ويقول : « والله ان قومنا هولاء الكرام »[1] .

وإذا صح هذا فيكون ما نسب لصلاح الدين الأيوبي من مثل هذا الاكرام مقتبساً من نهج الاوس والخزرج ونبلهم في حرب تبّع .

وانتهت الحرب دون ان يستطيع تبعّ اخضاع المدينة ، ولكنها كلّفت المدينة ما كلفت من الخسائر ،

وفي امتناع المدينة على تبعّ يقول شاعر من الانصار :

تُكلّفني من تكاليفها نخيلَ الاساويف والمنَصعه
نخيلاً حمتها بنُو مالكٍ خيولَ ابي كربَ المفظعة[2]

ويبدو ان حرب تبعّ هذه قد طالت فقد اشار إليها غير واحد من المؤرخين حتى عبّر عنها بالحروب ، ومن هؤلاء كان المسعودي الذي يذكر (تبّعاً) هذا في ضمن ملوك اليمن ويقول : ثم ملك تبّع وهو الملك السائر من اليمن الى الحجاز وكانت له مع الأوس والخزرج حروب ، وأراد هدم الكعبة[3] .

ـ ومن استعراضنا لتاريخ المدينة في زمن الجاهلية ولاسيما في السنوات الأخيرة ما قبل ظهور الاسلام نرى ان الحروب قد الحقت بالمدينة اضراراً كبيرة ، وقد حال التنافس والعداء بين الأوس والخزرج دون تقدم البلاد اكثر حتى ضج القوم ، وحتى سئموا وراحوا يستنجدون بقريش في مكة فلم يجدوا فيهم عوناً لأية جهة حتى قام الاسلام ، فساوى بينهم وقضى على تلك العداوة التي تجاوز تاريخها الماية من السنين .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك – الطبري ج ١ ص ٥٣٠ مط الاستقامة بالقاهرة .
(٢) المصدر المتقدم .
(٣) مروج الذهب ج ١ ص ٢٨٠ مط البهية المصرية .

طبيعة المدينة وسكانها وميزتها

انفردت المدينة المنورة وسكانها بخصائص ميزتها بين الكثير من المدن العربية ، القديمة قبل الاسلام ، وقد زادها الاسلام بعد هجرة النبي (ص) اليها رفعة وعلو شأن ، تحدث عنها المؤرخون كثيراً فهي بلدة طيبة ، مباركة ، كثيرة الخيرات ، عذبة المياه ، وافرة النخيل والثمار ، وأهلها وسكنتها يودون الغرباء ، ويحبون المهاجرين اليها [1] ومن خصائصها التي عرفت بها في تاريخها القديم : ان من دخلها يشم رائحة الطيب على ما ادعوا ، وللعطر فيها فضل رائحة لم توجد في غيرها على ما ذكر القزويني ، وان أهلها أحسن الناس صوتاً ! وقد قيل لبعض المدينيين : ما بالكم أنتم أطيب الناس صوتاً ؟ فقال : مثلنا كالعيدان خلت اجوافنا فطاب صوتنا [2] ولا نحتمل ان يكون خلو الجوف هنا بسبب قلة الطعام كما قد يتبادر الى الذهن – هذا اذا صحت الرواية – والراجح أنه أراد ان ينفي النهم عن أهل المدينة الذي كان يستعيبه العرب .

وعن ابن عباس : ان النبي (ص) حين عزم على الهجرة قال : اللهم انك قد اخرجتني من أحبّ ارضك اليّ فأنزلني أحبّ ارضك اليك ، فأنزله المدينة .

---

(١) بلوغ الأرب للالوسي ج ١ ص ١٨٨ الثانية مط الرحمانية بمصر .
(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٧ مط صادر ودار بيروت .

وفي الاخبار والاساطير التي وردت في تاريخ العرب ما جاء في أمالي القالي عن خنافر بن التوأم الحميري – وقد مرت الاشارة اليـــه من قبل انه اوحى له (رَئيّهُ) ، أي الشبح الذي كان يظهر له ، ونصحه بأن يتجه الى يثرب واصفاً اياها بذات النخل ، وواصفاً أهلها بأهل الطول ، والفضل ، والمواساة والبذل [1] فاذا شككنا في ظهور الشبح فليس من شك في صحة وصف المدينة وأهلها :

وخص الاسلام المدينة بفضائل لم يخص بها غيرها من المدن ، ومن مناظرة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لعبد الله بن عيّاش يستدل بعض الرواة على تفضيل المدينة حتى على مكة المكرمة ، فقد روي ان الخليفة عمر بن الخطاب قال لعبد الله :

– أأنت القائل : ان مكة خير من المدينة ؟

فقال عبدالله بن عياش : – هي حرم الله وأمنه وفيها – اي في مكة – بيته ،

فقال عمر : – لا أقول في حرم الله وبيته شيئاً ، أأنت القائل .. الى آخره ، وقالها ثلاث مرات !!

ومن (المنتقى) قال محمد بن عيسى : ولو أقرّ له ابن عياش بذلك لضربه الخليفة عمر – يريد به تأديبه – على تفضيل مكة على المدينة لاعتقاده – أي لاعتقاد عمر ابن الخطاب – تفضيل المدينة على مكة ، او هو يرى ترك الأخذ في تفضيل احداهما على الاخرى ، إلا ان الوجه الاول اظهر لما اشتهر من اخذ الصحابة في ذلك دون نكير ، وهذا تصريح من الخليفة عمر (ض) بأن المدينة أفضل من مكة [2].

ومن فضيلة المدينة ورجحان عقول سكانها ، واخذهم الأمور بالموازين

---

(١) أمالي القالي ج ١ ص ١٣٤ مط المكتب التجاري ببيروت .
(٢) المدخل لابن الحاج . ج ٢ ص ٣٣ مط المصرية بالأزهر .

العقلية بالنسبة لامثالها من المدن العربية القديمة هو ان أغلب المدن والقرى قد افتتحت بالسيف ، اما المدينة فقد افتتحت بالقرآن على ما تشير اليه الاخبار .

ومما روي عن رسول الله (ص) انه قال : « المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها » وقيل : انه قال : « أمرت بقرية تأكل القرى يقولون : يثرب وهي (المدينة) تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد »[1] وقد علق ابن الحاج على هذا الخبر بقوله : ولا معنى لقوله تأكل القرى الا رجحان فضلها عليها — اي على القرى — وزيادتها على غيرها .

وكثيرة هي الاخبار التي تميّز المدينة وتفضلها على غيرها وعلى مكة ايضاً لخصائص طبيعية ذات علاقة بطيبها ، وطيب سكانها ، او ايمانها ، ونصرتها لرسول الله (ص) وايوائه ، وايواء المهاجرين ، وممن قال بتفضيلها من كبار الائمة كان الامام مالك الذي رووا عنه انه قال : إن المدينة أفضل من مكة .

ومما روى ابو هريرة عن رسول الله (ص) انه قال : « من صبر على لأواء المدينة وشدتها كنت له يوم القيامة شفيعاً او شهيداً » وقد تتنافى هذه الرواية في الظاهر مع طبيعة المدينة التي اشتهرت بالخصب والرخاء وطيب السكان فالراجح ان النبي أراد باللاواء الشدّة العارضة التي اصابت المدينة من جراء وباء عارض حلّ بها في فترة من الزمان ، وهي الفترة الاولى من التجاء المهاجرين الى المدينة فقد روي عن عائشة انها قالت :

لما قدم المهاجرون المدينة اشتكوا بها — اي مرضوا — فعاد النبي (ص) أبا بكر (ض) فقال :

— كيف تجدك ؟ فقال ابو بكر :

---

(١) المصدر المتقدم ص ٣٧ .

كلُّ امرىء مصبَّحٌ في أهلـه والموتُ أدنى من شراك نَعله

ثم دخل النبي على عامر بن فهيرة فقال :

– كيف تجدك يا عامر ؟ فقال عامر :

إني وجدتُ الموتَ قبلَ ذَوقه إنَّ الجبانَ حَتفُه من فوقه
كالثور يحمي جلدَه بروقه

ثم دخل رسول الله (ص) على بلال ، فقال :

– كيف تجدك يا بلال ؟ فقال بلال :

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً بفخّ وحولي أذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدنْ يوماً مياه مجنّة وهل يبدونْ لي شامةٌ وطفيلُ[1]

وإذا كان مجال الشكوك في صحة هذا الخبر من حيث الشعر واسعاً وموضعاً للمناقشة فليس هنالك اي شك في ان وباء من الحمى كان قد اجتاح المدينة في تلك الاوقات بحيث حمل النبي (ص) ان يدعو قائلاً :

« اللهمَّ حبّبْ الينا المدينة كحبنا مكّةَ واشدَّ ، وصححّها ، وباركْ لنا في صاعـها ومدّها ، وانقلْ حمّاها فاجعلْها بالجُحفة » وذلك حين رأى شكوى اصحابه من وباء المدينة[2] واضاف بعضهم (خيبر) الى الجحفة في دعاء النبي وقال : ان النبي (ص) قال : وانقل حمّاها الى خيبر والجحفة باعتبارهما من منازل اليهود .

ولابد ان السجايا والفضائل التي اتصفت بها المدينة كانت من مواريث اجيالها المتقدمة لان اكتساب هذه الصفات لا يمكن ان تأتي مرة واحدة وبين ليلة وضحاها ، وحين جاء الاسلام صقلها وأيد الطيب منها ، ودعا

---

(١) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للازرقي ج ٢ ص ١٥٦ ط ٢ مط دار الثقافة بمكة .
(٢) المصدر المتقدم ص ١٥٥ .

لنبذ الرديء ، من الاخلاق التي صاحبت الجاهلية ، فكان للمدينة وسكانها من الانصار شأن بحيث اكثر القرآن من الثناء عليهم[1] .

وقد خُصَّ الكثير من أهل المدينة بخصائص اعتبرت قدوة عند المسلمين ، ومن بعض هولاء كان عاصم بن الأفلح ، وكان حبيب بن ثابت ، وكان حنظلة بن زاهب . وكان مالك بن التيهان الأوسي ، ومنهم كان سعد بن معاذ وهو سيد الاوس الذي قال عنه رسول الله (ص) : اهتز العرش بموت سعد بن معاذ ، لقد قالها من باب المجاز تكريماً لسعد ، وان لكل اولئك وامثالهم قصصاً تدخل ضمن الاخبار اكثر مما تدخل ضمن التاريخ الممحوض .

ومن اشهر اولئك كان خزيمة بن ثابت الاوسي المعروف بذي الشهادتين وقد شهد مع رسول الله (ص) بدراً وما بعدها ، ولقّب بذي الشهادتين لقصة اجمع عليها المؤرخون وقالوا : ان النبي ابتاع فرساً من أعرابي ـ كان اسمه كما جاء في اسد الغابة ـ : سواء بن قيس المحاربي فاستتبعه النبي ليقضي ثمن فرسه ، فأسرع النبي (ص) المشي وابطأ الأعرابي ، واعترض الاعرابي رجالٌ يساومونه بالفرس ولا يشعرون ان النبي قد ابتاعه حتى زاد بعضهم الاعرابي في ثمن الفرس ، فنادى الاعرابي وقال :

ـ إن كنتَ مبتاعاً هذا الفرس ـ يخاطب النبي ـ فابتعه وإلا بعته ...

فقام النبي وقال :

ـ اوليس قد ابتعته منك ؟

فقال الاعرابي ـ لا والله وما بعتك ! !

قال النبي ـ بلى قد ابتعته منك .

فاجتمع الناس عليهما وهما يتراجعان ، فجعل الاعرابي يقول :

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٩ مط صادر ودار بيروت .

– هلمّ شهيداً يشهد أني بعتك ،

فجاء من المسلمين من قال للاعرابي : ويلك ان النبي لم يكن يقول إلا حقاً ، وجاءهم (خزيمة) فاستمع لمراجعة النبي والأعرابي ، وسمع الاعرابيّ يقول : هلمّ شهيداً يشهد اني بايعتك ، فقال خزيمة : انا أشهد انك قد بايعته ، فقال النبي : ما حملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً ؟

فقال خزيمة – صدّقتُ بما جئتَ به ، وعلمتُ انك لا تقول الا حقاً ، وفي : رواية قال انا اصدّقك بخبر السماء ولا اصدّقك بما تقول – فقال رسول الله (ص) « من شهد له خزيمة او شهد عليه فهو حسبه » .

وكان هذا سبب تلقيب خزيمة (بذي الشهادتين) ، واصبحت شهادته بعد هذا تعدل شهادة رجلين ، حتّى اذا أراد الخليفة عمر بن الخطاب (ض) ان يجمع القرآن قال : من كان تلقى من رسول الله شيئاً من القرآن فليأتنا به ، وكانوا قد كتبوا ذلك في الصحف ، والالواح ، والعسب (جريد النخل) وكان عمر لا يقبل شيئاً من ذلك حتّى يشهد عليه شهيدان ، فجاءهم خزيمة بالآية : « من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهّ عليه » ، واكتفى الخليفة بشهادته عليها وقال : « لا اسألك عليها شاهداً غيرك » .

واصبحت هذه الميزة لخزيمة مدعاة فخر لقبيلة الأوس ، حتّى اذا ما افتخر الحيّان : الاوس ، والخزرج ، قال الاوس : « ومنّا ... ومنّا من جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين : خزيمة » .

واستشهد خزيمة هذا تحت راية علي (ع) بصفّين سنة سبع وثلاثين وأجمع المؤرخون في بيان وفاته وقالوا : شهد خزيمة مع عليّ (الجملَ) و (صفين) كافاً سلاحه وهو يقول : « لا اقاتل حتّى يُقتل عمّار فأنظر من يقتله فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : « عمّارُ تقتله الفئة الباغية »

فلما قتل عمار . قال خزيمة : قد بانت لي الضلالة ، ثم اقترب فقاتل حتى قتل[1] .

وإتماماً للفـائدة نأتي بخلاصة من تعليق العالم المحقق السيد مرتضى العسكري على مقتل خزيمة الرجل الذي تفخر به المدينة وتباهي بامثاله المدن الأخرى .

يقول العسكري : وكان وقع مثل خزيمة عظيماً على أمير المؤمنين علي (ع) وقد ذكره بشجو في خطبته التي انتدب فيها أهل الكوفة لحرب اهل الشام . وقال : « ما ضرّ اخواني الذين سفكت دماؤهم بصفين ان يكونوا اليوم احياء يستسيغون الغصص . ويشربون الرنق — الى قوله — : اينَ اخواني الذين ركبوا الطريق . ومضوا على الحق . اين عمّار ؟ واين ابن التيهان ؟ واين ذو الشهادتين ؟

هذا هو الصحابي خزيمـة ذو الشهادتين . وكان في قصـة استشهاده منقصة مزدوجة لبني أمية في قتلهم اياه وهو ذو الشهادتين ومن مشاهير اصحاب رسول الله (ص) . ومن مفاخر الاوس . وهذه هي المنقصة الاولى بكونهم قتلوا شخصاً كهذا . والمنقصة الثانية كونهم قد اثبتوا انهم هم الفئة الباغية التي نسب النبي البغي للفئة التي تقتل خزيمة . .

وان شهادة النبي (ص) في ضلالة قاتلي خزيمة قد حملت سيف بن عمر التميمي الذي وقف نفسه لخدمة بني أمية وممالئة سلطتهم نشداناً للنعمة والجاه . لقد حملته على ان يحاول محو هذا العار عن بني امية فيختلق صحابياً آخر باسم خزيمة بن ثابت ليكون هو المقتول في صفين بسيوف امية وليس خزيمة ذا الشهادتين !؟ وقد وضع لذلك من الحديث ما انطلى امره على الطبري فاورده في تاريخه نقلاً عن سيف الذي نقله عن محمد وعن طلحة ومضمونه : ان علياً (ع) لما رأى من أهل المدينة ما لم يرض ،

---

(١) خمسون ومائة صحابي مختلق — القسم الأول ص ٣٣٢ دار الكتب بيروت .

جمع وجوه أهل المدينة وخطب فيهم ، وطلب منهم ان ينصروه — على حد قول سيف — فأجابه رجلان من اعلام الانصار : ابو الهيثم بن التيهان — وهو بدري — وخزيمة بن ثابت — وقال سيف على ما روى الطبري : وليس هذا بذي الشهادتين لأن ذا الشهادتين مات في زمن عثمان (ض) وراح سيف يعزّز روايته هذه بما اختلق من الاخبار ليزيل ما علق بذهن الناس عن قاتلي خزيمة مبالغة في خدمته لبني امية .

ويقول العسكري : ويطول علينا المقام ان حاولنا إيراد اسماء الحاضرين من أهل المدينة مع الإمام علي (ع) في حروبه ، لذلك سنقتصر على ذكر عددهم مما جاء في (تاريخ الاسلام الكبير) للذهبي فقد روى ان عدد أهل المدينة مع علي في (الجمل) كان اربعة آلاف ، وفي رواية بعدها : كان مع علي (ع) يوم وقعة الجمل ثمانماية من الانصار ، وسبعماية ممن شهد بيعة الرضوان وفي رواية بعدها : شهد مع علي يوم الجمل مائة وثلاثون (بدرياً) وسبعماية من اصحاب النبي [1] وكان معظم هؤلاء من الانصار المدينيين ، ومثل هذه الاخبار عن أهل المدينة ورجالاتها تشهد بتميزها منذ العصور القديمة حتى العصر الاسلامي .

ويبدو من تصفح الاخبار واستعراض التاريخ ان أهل يثرب كانوا اكثر تبصراً بالأمور ، واكثر ادراكاً لقيمة العقل ، واقل تعصباً للتقاليد الموروثة على رغم تلك الحروب الضارية التي كانت تقوم بينهم وبين من يغزوهم ، وعلى رغم تعصب الاوس والخزرج كل لآله وأسرته وقبيلته ، وليس أدلّ على فهم (المدينيين) ووعيهم من قبول الدعوة الاسلامية وهي دعوة جاءت لتهــدم كل معتقداتهم ، وتزيل من الوجود كل تقاليدهم

---

(١) (خمسون ومائة صحابي مختلق) للسيد العسكري القسم الأول ص ٣٣٥ مط دار الكتب ببيروت ، وليراجعه من يريد الاستزادة في التحقيق .

الموروثة ، وتقلب حياتهم رأساً على عقب لو لم يكونوا على شيء من الوعي والتروي وتحكيم العقل في الامور العامة ،

فالمروي عن جابر بن عبدالله الانصاري : ان رسول الله (ص) لبث بمكة عشر سنين يتبع الحاج في منازلهم في الموسم بمجنّة ، وعكاظ ، ومنازلهم بمنى ، ويقول : من يؤويني وينصرني حتى ابلغ رسالات ربي وله الجنّة ؟

فلا يجد احداً يؤويه ، ولا من ينصره ، حتى ان الرجل الذي يريد ان يرحل من مصر او اليمن يأتيه قومه أو ذو رحمه فيقولون له : إحذرْ فتى قريش — يعنون محمداً — لا يفتنك — انه — يمشي بين رجالهم ويدعوهم — الى — الله عز وجل ، — وهم — يشيرون اليه باصابعهم حتى — يقول جابر — بعثنا الله عز وجلّ من يثرب فيأتيه الرجل منّا فيؤمن به ويُقرئه القرآن فينقلب الى اهله فيسلمون باسلامه حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الاسلام ، ثم بعثنا الله عز وجل له فأتمرنا ، واجتمعنا سبعين رجلاً منا فقلنا حتى متى ندع رسول الله (ص) يطرد في جبال مكة ويخاف ؟ — ويقول جابر الانصاري — فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فتواعدنا شعب (العقبة) واجتمعنا فيه من رجل ورجلين حتى توافينا عنده ، فقلنا يا رسول الله على من نبايعك ؟ قال تبايعونني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى التفقد في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى ان تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم ، وعلى ان تنصروني اذا قدمتُ عليكم يثرب فتمنعوني مما تمنعون منه انفسكم ، وابناءكم ، وازواجكم ولكم الجنّة .

يقول جابر الانصاري : فقمنا اليه نبايعه فأخذ بيده أسعد بن زرارة

وهو اصغر السبعين رجلاً إلا أنا ، فقال : رويداً يا أهل يثرب ، إنّا لم نضرب اليه اكباد المطيّ إلا ونحن نعلم انه رسول الله ، وان إخراجه اليوم



شيخ من شيوخ قريش على ما يتخيل (برتون) مترجم الف ليلة وليلة الى الانكليزية

مفارقة العرب كافة . وقتل خياركم . وان تعضكم السيوف ، فاما انتم قوم تصبرون على عض السيوف اذا مستكم . وعلى قتل خياركم ، ومفارقة العرب كافة . فخذوه وأجركم على الله ... واما انتم قوم تخافون على انفسكم خيفة فذروه هو اعذر لكم عند الله . قالوا أمطْ عنا يدك يا اسعد بن زرارة ، لا تذر هذه البيعة ولا نستقبلها . فقمنا اليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا شرطه ويعطينا على ذلك الجنة[1] واصبح هذا المكان مسجد البيعة وهو واقع على يسار الذاهب الى منى . ويسمى الموضع الذي فيه المسجد (شعب البيعة) و (شعب الانصاري) وقد بقي اثره الى اليوم[2] .

وفي الطبقات الكبرى لابن سعد ان النبي (ص) اقام بمكة ما اقام يدعو القبائل الى الله ويعرض نفسه عليهم كل سنة بمجنّة ، وعكاظ ، ومنى ، ان يؤوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فليست قبيلة من العرب تستجيب له ويؤذى ويشتم حتى أراد الله اظهار دينه ، ونصر نبيه ، وانجاز ما وعده ، فساقه الى هذا الحي — يريد به المدينة — من الانصار لما أراد الله بهم من الكرامة ، فانتهى الى نفر منهم وهم يحلقون رؤسهم فجلس اليهم فدعاهم الى الله ، وقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ولرسوله ، فاسرعوا وآمنوا وصدقوا ، وآووا ، ونصروا ، وواسوا ، وكانوا والله اطول الناس السنة ؛ وأحدّهم سيوفاً[3] .

ومثل هذا الايمان الصادق ، ومثل هذه الشجاعة التي لم تبال بجموع العرب في تألبهم على اليثربيين ، ومثل هذه الشهامة التي لاحت من أهل المدينة في ايواء النبي لأمور ليس من السهل قبولها ما لم يكن لدى سكان هذه المدينة من سالف الزمن من المثل العالية ، والطيبة ، وسمو الاخلاق

---

(١) أخبار مكة للازرقي ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ص ٣٢ مط جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٢٠٤ مط لجنة نشر الثقافة الإسلامية بمصر .

ولو بنسبة محدودة معينة جعل للمدينة وسكانها ميزة محسوسة ملموسة بين المدن العربية الاخرى في الازمان السالفة .

ولقد أحسّ النبي (ص) بهذه الميزة فاثنى عليها في مختلف المناسبات وذكرها بالحمد والثناء ، ولم ينزل بيوت مكة بعد ان سكن المدينة ، ويقول ابن جريج نقلاً عن عطاء : ان النبي كان اذا طاف بالبيت انطلق إلى أعلى مكة فضرب به الأبنية ؛ ولم ينزل بيوت مكة بعد ان سكن المدينة [1] .

(١) أخبار مكة للازرقي ج ٢ ص ١٦٢ مط دار الثقافة بمكة .

عوامل السكن والتمصير

عوامل قيام القرى والدساكر والمدن في العالم منذ اقدم تاريخ البشرية حتى اليوم احد ثلاثة هي الزراعة ، والصناعة ، والتجارة بجميع مفاهيمها الاقتصادية ولما كان لهذه المنطقة من ارض الحجاز من المؤهلات الكافية من هذه العوامل الثلاثة التي تجعل منها بلداً مرموقاً عامراً بالنسبة لكثير من مواقع جزيرة العرب أمّها السكان من كل جانب ، وقامت فيها على مرور الزمن مدينة (يثرب) وعدد من القرى والحصون الآهلة بالسكان ، حتى لقد تنافست على امتلاكها القبائل والامم وقد بلغ من امرها ان امتد نفوذها ذات يوم الى مسافات شاسعة من شمال الحجاز من تيماء وتبوك ، والى جهات البحر الاحمر من الغرب ، واصبح الكثير من هذه القرى والأودية وحتى (مَدْين) وجبالها ذات يوم من ملحقات يثرب وحكامها ، بل ان هذه العوامل التي يعود اليها تمصير هذه البقاع وقيام هذه المدينة بسبب الخصب والنماء والصناعة والتجارة كثيراً ما أطمعت بها الدول البعيدة وجعلتها احدى امنيات الغزاة وموطن رجائها .

قوام الزراعة ومياه المدينة

وقوام الزراعة هي المياه ، وحيث توفرت المياه الصالحة والأرض الصالحة كثر الخصب والنماء ، وقد كان لوفرة المياه في هذا القسم من الحجاز الشمالي — يثرب وتوابعها — اثره في تمصير هذه المدينة وعمران

ضياعها ، فقد جادت عليها الطبيعة بعدد من الوديان ، والعيون ، والابار التي يرجع اليها الفضل في انتعاش زراعتها — واستثمار ارضها ، واذا كانت بعض تلك العيون والابار غير صالحة للشرب ، او كان بعضها موبوءً كبئر (الملك) التي احتفرها (تبّع) على ما قيل في (المدينة) فان هناك عيوناً وآباراً اشتهرت بعذوبتها كبئر (رومة) في المدينة ، وبئر (عروة) من آبار عقيق المدينة التي ارسل ماؤها على سبيل الهدية الى هرون الرشيد وهو مقيم (بالرقّة) وعلى شاطىء الفرات العذب ! !

والكثير من هذه المياه جوفية تستخرج بواسطة حفر الآبار لذلك كثرت الابار في هذه المنطقة وفي نفس مدينة (يثرب) بحيث سدّت حاجة السكان من الشرب وغرس النخيل ، ورعي الابل والغنم ، وعلى رغم ان الكثير من هذه الابار قد عرف باسم عدد من مشاهير العرب والمسلمين من سكان يثرب فان الأغلب منها كان قديماً ومن عهود بعيدة ، يؤيد ذلك وجود السكان القدماء وبعض الاسماء غير العربية التي تطلق على تلك الابار والتي بقيت على حالها ولم تتبدل ، ويغلب على الظن ان الاسماء العربية والاسلامية التي اطلقت على هذه الابار فانما اطلقت على اساس امتلاكها لا على اساس حفرها وتاريخها ، ولا يعني هذا ان كل الابار التي ورد اسمها في التواريخ كانت كلها من آبار العهود الماضية ذلك لان عدداً من الابار قد حفر في المدينة وملحقاتها في عصور مختلفة من العصور الاسلامية .

وما عدا الابار التي فاضت بخيراتها على سكان يثرب وتوابعها فان هناك اودية تفيض بالمياه في مواسم المطر الذي قد يبلغ من غزارته ان يخرب الطرق ، ويقطع طرق المواصلات ، ويهدم البيوت ، ويقتلع الأشجار ، وحتى هذا اليوم والامطار والسيول تنزل في جهات يثرب وشمال الحجاز بغزارة مدهشة .

وقد روى الدكتور محمد حسين هيكل وهو على مسافة قريبة من المدينة وفي قرية بني حصان : انه لقي بسبب غوص السيارة في الرمل شيئاً من

العنت فقال احد السكان : « إنها سيول هذا العام أفسدت الطريق وكان من قبل صالحاً ، فقد انهمرت وبلغ انهمارها حداً لاعهد لنا به مذ عرفنا الحياة ؛ وكان من ذلك ان ارتفعت المياه في هذا الوادي حتى غمرت سيارة من سيارات اللوري فمات بها اثنا عشر من راكبيها » .

واضاف القائل وهو يشير الى الفندق الذي نزله هيكل قائلاً : « وقد بلغت المياه هذا الفندق وكادت توهن جدرانه لولا متانة بنائه » .

ويقول هيكل : وعجبت لما سمعت ، وقلت للرجل : وماذا كان يفعل آباؤكم الاولون وقد كان هذا طريقهم من مكة الى يثرب والى الشام [1] .

وكان سكان يثرب ينتفعون بمياه الامطار في مواسم المطر ، وعند الجفاف كان يسهل استخراج المياه من بطون تلك الوديان بمجرد إزالة قليل من التراب او حفر بعض الحفر في اعماقها .

وإننا نورد هنا أهم موارد المياه من الوديان ، والعيون ، والابار التي يعود لها فضل تمصير تلك البقاع وقيام مدينة يثرب بالذات كاحد عوامل الازدهار والسكن .

١ ـ الوديان

وادي العقيق

والعقيق لغة الوادي ، وكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه ، والعقيق بالمدينة فيه عيون ونخيل [2] وقد قيل عن عقيق المدينة انه عقيقان : الأكبر ، وهو ما يلي الحرّة ما بين ارض عروة بن الزبير الى قصر المراجل ومما يلي الحمى ما بين قصور عبد العزيز بن عبدالرحمن بن عبد الله بن عمرو بن

(١) في منزل الوحي للدكتور هيكل ص ٥١٤ مط دار الكتب المصرية .
(٢) تاج العروس – مادة عق مط الخيرية .

عثمان الى قصر المراجل ثم الذهاب بالعقيق صُعداً الى منتهى البقيع ، .

والعقيق الاصغر ما سفل عن قصر المراجل الى منتهى العَرْصَة ، وفي عقيق المدينة يقول الشاعر :

إني مررتُ على العقيق وأهلُهُ ... يَشكُون من مطر الربيع نُزُورا

ما ضرّكم إن كان جعفرُ جارَكم ... ان لا يكون عقيقكم ممطورا

وهناك عقيق آخر هو اكبر من ذينك العقيقين في المدينة [1] وقد أقيمت على العقيق قصور ومبان منذ القديم ، وهو واقع في غربي (المدينة) ومصدر (حضير) على مسيرة يوم ونصف يوم منها على ما عينه عبد القدوس الانصاري في (آثار المدينة المنورة) ، وفي العقيق عدد كبير من الآبار .

وادي القرى

وهو اشهر اودية الحجاز واوسعها يمتد بين المدينة والشام ، وقد كان مشهوراً بغزارة مياهه ، وكثرة عيونه ، وقد روى الرواة انه استخرجت في أيام معاوية ثمانون عيناً فيه بعد ان كان هذا الوادي قد أهمل لترك سكانه له ، وقد استنتج بعض المؤرخين من تسميته بوادي القرى كثرة ما كان عليه من القرى بسبب غزارة مياهه .

وادي مذينيب

ويقع وادي مذينيب على نحو سبعة أميال من (المدينة) وهو من أشهر وديان المدينة قامت عليه منازل بني النضير وهم اول من احتفر به ، وبنى ، وغرس ، وقد نزل عليهم بعض قبائل العرب فشاركهم في ذلك ، ومن هؤلاء الاشراف والد كعب صاحب الحصن المشهور باسمه [2] .

---

(١) معجم البلدان مادة (العقيق) — مط صادر ودار بيروت .

(٢) آثار المدينة المنورة لعبد القدوس الأنصاري ص ١٧٠ .

العيـون - ٢

عين فدك

وفي (فدك) عين فوارة ، ونخيل كثيرة ، هي اشهر عيون يثرب ، وفدك هذه واقعة في شمال المدينة وعلى مسافة قليلة منها -كما سيأتي الحديث عنها- ولمياهها في التاريخ شهرة كبيرة .

عيون الفُرْع

وفي الفُرع ، وهي في جنوب المدينة عيون كثيرة ورد ذكرها وذكر نخيلها في كثير من المصادر والاخبار وعلى الاخص معجم البلدان .

عين دومة الجندل

وفي دومة الجندل بين دمشق وبين المدينة عين قال عنها ياقوت الحموي انها عين تثج فتسقى ما به من النخل والزرع ، وقد جاء في عهد النبي (ص) (لأكيدر) صاحب دومة الجندل : ان له (الضامنة) اي النخل ، و (المعين) من المعمور وهو الماء الدائم [1] .

عين أبي نَيْزَرَ وعين البُغَيبْغَة

وهما عينان في ضيعتين من ضياع المدينة يجري فيهما جدول يسمى (بالربيع) اما ابونيزر فهو من ولد النجاشي رغب في الاسلام صغيراً واتى رسول الله (ص) على ما روى ابومحلم محمد بن هشام في اسناده ، وكان معه في بيوته ، فلما توفي رسول الله (ص) صار مع فاطمة وولدها ، قال ابونيزر جاءني علي بن ابي طالب (ع) وأنا اقوم بالضيعتين : عين

---

(١) معجم البلدان - مادة (دومة) مط صادر ودار بيروت .

ابي نيزر والبغيبغة فقال : هل عندك طعام؟ فقلت طعام لا ارضاه لأمير المؤمنين ، قَرْعٌ من قرع الضيعة صنعته بإهالة سَنخة ، فقال : عليَّ به ، فقام الى (الربيع) وهو جدول فغسل يديه ثم اصاب من ذلك شيئاً ثم رجع الى (الربيع) فغسل يديه بالرمل حتى انقاهما ثم ضم يديه كل واحدة منهما الى اختها وشرب منهما حُسى من (الربيع) ثم اخذ المعول وانحدر فجعل يضرب وأبطأ عليه الماء فخرج وقد تنضح جبينه عرقاً فانتكف العرق من جبينه ثم اخذ المعول وعاد الى العين فاقبل يضرب فيها وجعل يهمهم فانثالت كأنها عنق جزور ، فخرج مسرعاً وقال : اشهد الله انها صدقة : عليَّ بدواة وصحيفة ، فعجلت بهما اليه فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تصدق به عبد الله علي امير المؤمنين (ع) تصدق بالضيعتين بعين ابي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة ، وابن السبيل ليقي بهما وجهه حر النار يوم القيامة لا تباعا ن ولا توهبان حتى يرثهما الله وهو خير الوارثين الا أن يحتاج اليهما الحسن والحسين فهما طلق لهما وليس لا حد غيرهما » .

قال ابو محلم محمد بن هشام : فركب الحسينَ دين فحمل اليه معاوية بعين ابي نيزر مائتي الف دينار فأبى ان يبيع وقال : « انما تصدق بهما ابي ليقي الله وجهه حرّ النار ولست بائعهما بشيء » .

والبغيبغة في اللغة البئر القريبة الرشاء وكل ماء كا ن قامة او نحوها سمي بالبغيبغ وقال ياقوت فلم تزل هذه الضيعة في يدي بني عبدالله بن جعفر من ناحية ام كلثوم يتوارثونها حتى استخلف المأمون ، فذكر ذلك له فقال : كلا هذه وقف علي بن ابي طالب (ع) على ولد فاطمة ، فانتزعها من ايديهم وعوضهم عنها ، وردّها الى ما كانت عليه .

الآبـــار – ٣

وما عدا هذه الاودية والعيون وديان وعيون اخرى ورد ذكرها عرضاً في كتب التاريخ والروايات والاخبار والاحاديث ، كما ورد ذكر عدد كبير من الابار وفي ضمنها آبار عرفت بالعذوبة ، وحين جاء الاسلام واستوطن النبي (ص) يثرب بارك بعض هذه الابار واضفى عليها شيئاً من القدسية التي اشارت اليها كتب الحديث ، اما أهم آبار يثرب التاريخية فهي :

بئر غُرْس

وبئر غرس بئر في (المدينة) بينها وبين مسجد قبا نحو نصف ميل وهي واقعة في الشمال الغربي من المدينة عذبة المياه كان النبي (ص) يستعذب ماءها ويستطيبه ، ويباركه ، وتقول الروايات : ان النبي (ص) حين حضرته الوفاة اوصى علياً (ع) قائلاً : « اذا انا متّ فاغسلني من ماء بئر غرس بسبع قرب »[1] .

وفي حديث ابن عمر قال : قال رسول الله (ص) وهو قاعد على شفير (غرس) رأيت الليلة كأني جالس على عين من عيون الجنة يعني بئر غرس و(غُرس من عيون الجنة) رواه ابن عباس[2] .

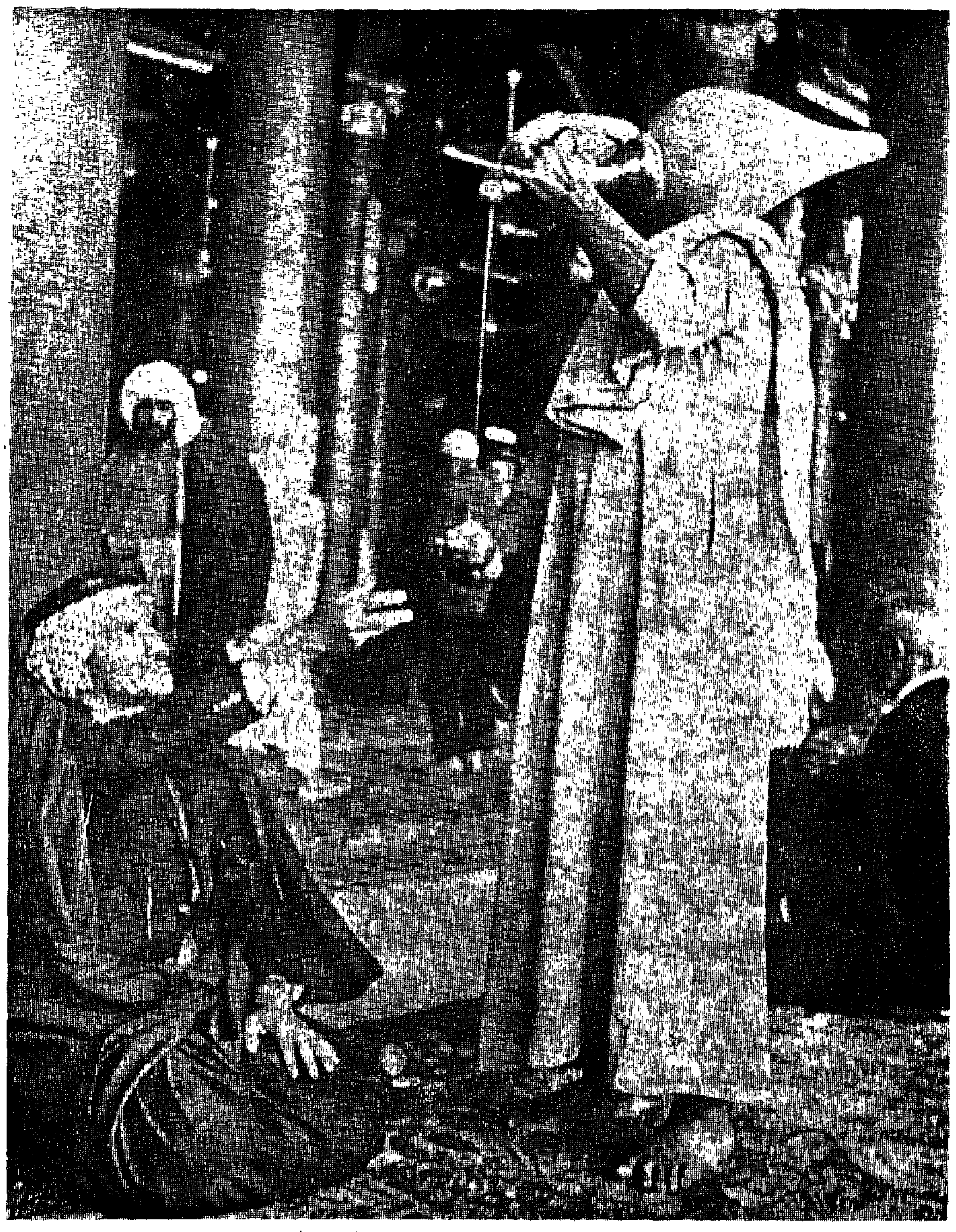
بئر أرما

ومن اشهر آبار يثرب القديمة بئر عرفت ببئر أرما ، ويستدل على قدمها من اسمها وكون هذا الاسم أعجمياً ، وهي بئر واقعة على ثلاثة أميال من (المدينة) وعندها كانت غزاة ذات الرقاع ، وقد ضبطها (تاج العروس) بالالف المقصورة وقال عنها : « وبئر أرمى كحمى قرب المدينة » .

---

(١) معجم البلدان مادة (الغرس) مط صادر ودار بيروت .

(٢) تاج العروس مادة (غرس) مط الخيرية بمصر ، وآثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٣ مط صادر ودار بيروت .



ماء بارد زلال لسقاية الحجيج داخل المسجد النبوي الشريف

بئر أريس

وبئر أريس هي الاخرى من اشهر آبار المدينة القديمة التي ظل اسمها غير العربي شاهداً على قدمها ، وهي بئر بيثرب في غربيها مقابل مسجد قبا .

قال احمد بن يحيى بن جابر : نسبت هذه البئر الى (أريس) وهو رجل من المدينة من اليهود رواه الحموي ، وقد اشتهرت هذه البئر بحادثة اوردتها كتب الاخبار وهي ان للنبي (ص) كان خاتم في يد عثمان بن عفان (ض) وهو في السنة السادسة من خلافته فسقط الخاتم من يده في هذه البئر ، واجتهد عثمان في استخراجه بكل ما وجد اليه سبيلاً فلم يظفر بنتيجة فاستدلوا بعدم وجوده على وقوع حادث في الاسلام عظيم ، وقالوا : ان عثمان لما مال عن سيرة من كان قبله كان اول ما عوقب به ذهاب خاتم رسول الله (ص) من يده ، وقد كان قبله في يد ابي بكر (ض) ثم في يد عمر (ض) ثم في يد عثمان [١] .

ويقول ابن الاثير في وصف هذا الخاتم ان نقشه كان ثلاثة اسطر : (محمد : سطر ، ورسول ، سطر ، والله : سطر) فتختم به رسول الله حتى توفي ثم تختم به ابو بكر ثم عمر ثم تختم به عثمان ست سنين ، ثم سقط منه في بئر (أريس) حين كان عثمان يعبث به ، فطلبوه فيها ونزحوا ما فيها من الماء فلم يقدروا عليه ، ولما يئس عثمان (ض) صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه ، فبقي في اصبعه حتى هلك [٢] ، فلما ذهب الخاتم فلم يدر من أخذه .

بئر حيا

هي في شمال شرقي المدينة ولا يفصلها عنها الا مسافة قليلة جداً ولا

---

(١) معجم البلدان مادة (بئر) مط صادر ودار بيروت .

(٢) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١١٣ مط صادر ودار بيروت .

يعرف بالضبط سبب تسميتها ببير (حا) وقد زارها ابن النجار في اوائل القرن السابع الهجري فوجدها معمورة وقال عنها : انها واقعة وسط حديقة صغيرة جداً . وعندها نخلات ، ويزرع حولها . وعندها بيت مبني على علو من الارض وهي قريبة من سور المدينة . وهي ملك لبعض اهل المدينة . وماؤها عذب حلو . ثم يقول : وذرعتها فكان طولها عشرة أذرع ونصف ماء . والباقي بنيان . وعرضها ثلاثة أذرع وشبر .

وقد عين ابن النجار موقعها من المسجد فقال انها مقابل المسجد .

وبئر (حا) هذه من الآبار التاريخية القديمة . كان يدخلها رسول الله (ص) ويشرب من مائها العذب .

وروى البخاري في (الصحيح) من حديث أنس بن مالك قال : كان ابو طلحه أكثر انصار المدينة مالاً من نخل . وكان احب أمواله اليه بئر (حا) فلما نزلت هذه الآية : « لن تنالوا البرّ حتى تُنفقوا مما تحبّون » قال ابو طلحة لرسول الله (ص) :

ان أحب أموالي اليّ (بئر حا) وانها صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فقال رسول الله (ص) : بخٍ بخٍ ذلك مال رابح . واني أرى ان تجعلها في الاقربين .

فقسمها ابو طلحة في اقاربه وبني عمه [1] .

بئر بُضاعة

وبضاعة هذه دار بني ساعدة (بالمدينة) وبئرها مشهورة بلون من

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة – الملحق الثاني لشفاء الغرام ص ٣٤٠ مط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة .

القدسية التي تحمل السكان على الاعتقاد بانها تشفي المرضى ، ويبدو من استقصاء أخبارها أنها كانت بئراً مشوبة باختلاطات من المياه غير الصافية ، ولذلك كانت الفتوى التي افتاها النبي (ص) بخصائص الماء وطهارته وكون الماء طاهراً ما لم يتغير. وتحديد هذا التغير انما كانت بشأن هذه البئر ،

وفي الخبر: ان النبي (ص) أتى بئر بُضاعة هذه فتوضأ من الدلو ، وشرب منها ، وردها الى البئر[1] . وكان اذا مرض المريض في أيام النبي (ص) يقول : اغسلوني من ماء بضاعة فيغسل فكأنما أنشط من عقال ، وجاء في الاخبار عن شيوع تبرك الناس بماء هذه البئر وشفاء المرضى ان اسماء بنت ابي بكر (ض) قالت: كنا نغسل المرضى من بئر بُضاعة ثلاثة أيام فيعافون.

وهي عين جارية الى بساتين يشرب منها ، وقد رد البعض بهذا على من قال باختلاط المياه القذرة بها واحتمال نجاستها ، واعتبرها طاهرة ما دامت مياهها جارية ، وما دام النبي قد توضأ بها وشرب منها ، وحدّد طهارة الماء بسببها ، وزارها ابن النجار في أوائل القرن السابع الهجري وقال انه وجدها في بستان وان ماءها عذب طيب ، ولونه صاف ابيض وريحه كذلك ويستقى منها كثيراً ، ويقول :وقد ذرعتها فكان ان طولها احد عشر ذراعاً وشبراً[2].

بئر رُومة

بئر في عقيق المدينة وقد باركها النبي (ص) فقال عنها: نعم القليب قليب المُزني — والقليب هو البئر والمقصود بالمزني (رومة) — ونقل ياقوت

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٨ مط صادر ودار بيروت.

(٢) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة الملحق الثاني لشفاء الغرام ص ٣٤٣ مط عيسى البابي الحلبي بمصر .

عن الكثير من الرواة ان المهاجرين لما قدموا المدينة استنكروا الماء ، وكان لرجل من بني غفار بئر يقال لها (رومة) كان يبيع منها القربة بالمدّ ، فقال له رسول الله (ص) بعنيها بعين في الجنّة ، فقال يا رسول الله : ليس لي ولعيالي غيرها لا استطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان (ض) فاشتراها بخمسة وثلاثين الف درهم ، وصار الناس يستقون منها .

وجاء في معجم البلدان : ان مصعب بن عبد الله الزبيري قد ذكر (رومة) وتشوقها وهو بالعراق فقال :

أقولُ لثابتٍ والعينُ تَهمي ... دموعاً ما أُنَهنِهُها انحدارا
أعرني نظرةً بقرى دجيلٍ ... تُحايلها ظلاماً أو نهارا
فقال : أرى (برومة) او بسلعٍ ... مَنازلنا معطلــةً قفارا

وقال أهل السير لما قدم (تبعّ) المدينة ، وكان منزله (بقبا) واحتفر البئر التي يقال لها (بئر الملك) وبه سميت فاحتوى ماءها ، فدخلت عليه امرأة من بني زريق يقال لها (فاكهة) فشكا إليها وباء بئره ، فانطلقت واستقت له من بئر (رومة) ثم جاءته به فشربه فاعجبه ، فقال لها : زيدي ، فكانت تصير اليه مقامه بالماء من (رومة)[1] .

وحين حوصر عثمان في داره حالوا بينه وبين ما يريد ، ومنعوه كل شيء حتى الماء ، فاشرف عثمان يوماً على محاصريه وسلم عليهم ثم قال :

أنشدكم الله ، هل تعلمون اني اشتريت بئر (رومة) بمالي ليستعذب بها فجعلت رشائي فيها كرجل من المسلمين ؟ قالوا نعم .

قال : فَلِمَ تمنعوني ان اشرب منها حتى افطر على ماء البحر[2] .

وزار ابن النجار بئر (رومة) في اوائل القرن السابع الهجري في اثناء

---

(١) معجم البلدان (بئر رومة) مط صادر ودار بيروت .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ١٧٣ مط صادر ودار بيروت .

طوافه بالمدينة وربوعها فقال عنها : وهذه البئر بعيدة عن المدينة جداً وهي في براح واسع من الأرض وطئ ، وعندها بناء من حجارة خراب قيل انه كان ديراً ليهود ، وحولها مزارع وآبار .

ويقول بعد ذلك : فذرعتها فكان طولها ثمانية عشر ذراعاً ، وماؤها صاف[1] .

بئر رئاب

من آبار المدينة التي اشتهرت على الالسن حتّى قال احد الشعراء فيها :

أسلُ عمّن سلا وصالَكَ عمداً وتصابى ، وما بـه من تصابي
ثم لا تنسَها على ذاك حتّى يسكنَ الحيُّ عند بئر رئـابِ

بئر عروة

من اشهر آبار عقيق المدينة بئر عروة وهي منسوبة لعروة بن الزبير بن العوام وقد قال علي بن الجهم فيها :

هذا العقيق فَعَدِّ أيـدي العيس من غلوائهـا
واذا أَطفتَ ببئرِ عروة فاسقني من مائهـا
إنّا وعيشك مـا ذممنـا العيش في أفنائها

قال الزبير بن بكار : كان من يخرج من مكة وغيرها اذا مرّ بالعقيق تزوّد من ماء (بئر عروة) وكانوا يهدونه الى اهاليهم ويشربونه في منازلهم ، قال الزبير : ورأيت أبي يأمر به فيُغلى ثم يجعله في القوارير ويهديه الى الرشيد وهو بالرقة ، والرقة كما هو معلوم واقعة على الفرات وان لعذوبة

---

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار ص ٣٤٤ ملحق بشفاء الغرام مط عيسى البابي الحلبي بمصر .

ماء الفرات شهرة كبيرة . ومن هذا يستبان ان ماء بئر عروة كانت اكثر عذوبة بحيث يستحق ان يهدى ماؤها الى الرشيد وهو على شاطىء الفرات ! !

ويقول السري بن عبد الرحمن الانصاري في بئر عروة :

كفنوني إن متُّ في درع أروى   واجعلوا لي من بئر عروة مائي
سُخنةٌ في الشتاء باردةٌ الصيف   سراجٌ في الليلة الظلماء

وجاء في آثار البلاد واخبار العباد عن الزبير بن بكار : « وماء هذه البئر يأخذه من مرّ بالعقيق هدية لأهله »[1] .

* * *

هذا إضافة إلى عشرات العيون والابار التي ورد ذكرها في التاريخ وكتب الأخبار كعين (يـُحـَنّس » وقد كانت هذه العين للحسين بن علي ابن ابي طالب (ع) وكان للحسين (ع) غلام يسمى (يُحـَنّس) وهو الذي استخرج هذه العين وقد باعها علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) بسبعين ألف دينار قضى بها دين أبيه ، وكان أبوه (الحسين) (ع) قتل وعليه دين هذا مقداره[2] .

وبئر (ذروان) وهي بئر بمنازل بني زريق بالمدينة ، وبئر (جُشم) و (بئر جـَمـَل) وبئر (الدُريك) با لمدينة وبئر (عائشة) بالمدينة وهو عائشة بن نـُمير بن واقف رجل من الأوس وليس هو بامرأة ، وبئر (أبي عـنبة) وهي بئر بينها وبين المدينة مقدار ميل ، وبئر (السقيا) وهي بئر قديمة وكانت ملكاً لذكوان الزرقي واشتراها منه سعد بن أ. وقاص ، وبئر (غـَدق) وهي بئر بالمدينة وبئر (مطّلب) وهي بئر تقع على سبعة أميال من المدينة ، وبئر (بني مـَرَق) وبئر (أنّا) وسماها البعض (أنّي)

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٩ مط صادر ودار بيروت .
(٢) معجم البلدان مادة (عين) مط صادر ودار بيروت .

وهي من آبار بني قريظة، وبئر (البصّة) بالقرب من البقيع .

هذا إلى جانب العدد الآخر من الوديان والعيون والابار التي كان لها شأن كبير في تمصير هذا الجانب من الحجاز كوادي(السيّالة) وهو واد يقع في أول مرحلة لأهل المدينة إذا أرادوا مكة، وقد نقل ياقوت عنه على رواية ابن الكلبي أنه قال: مرّ « تبّع » بالسيّالة بعد رجوعه من قتال أهل المدينة وواديها يسيل فسماها (السيّالة) ووادي(الرُّمة) المعروف بخصب الكلأ وكثرة العشب والمراعي وهو أكبر واد بنجد يجيء من الغور والحجاز أعلاه لأهل المدينة وبني سُلَيم، ووادي (راثوناء) وهو في الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة . ووادي بطحان، وقد روي عن النبي (ص) أنه قال : ان بطحان على ترعة من ترع الجنّة، ووادي (مهزور) وادي (قناة) وهو يبعد عن المدينة في أقرب جهاته نحو ثلاثين دقيقة بالمشي المتوسط على ما عينه عبد القدوس الأنصاري، ووادي (رابغ) وهو وادٍ له ذكر في المغازي وفي أيام العرب بين(الابواء) و (الجحفة) .

ومن مواطن تجمّع المياه المعروفة :(المهراس) وهو ماء بجبل (أحد) وهو في أقصى شعب(أحد) يجتمع المطر هناك في نُقر كبار وصغار فيؤلف مجاميع من المياه التي سميت (بالمهراس).

وهناك مهراسان على ما جاء في (آثار المدينة المنورة) هما الآن مقيل للمتنزهين لوجود الماء العذب القراح فيهما خصوصاً في فصل الشتاء لكثرة هطول الأمطار في المدينة في هذا الفصل فتنساب المياه من أعالي هضاب الجبل إلى هذه النقر فتمتلىء وتفيض .

من كل هذه المنابع وغيرها التي يصعب حصرها لاندثار البعض منها وقلة شهرة البعض الآخر كانت (المدينة) وبقاعها وملحقاتها تستمد مياه الشرب والزراعة والمراعي، وليس من شك أن الذي فات كتب التاريخ ذكره لاندثاره لم يكن قليلاً، فقد ذكر عبد القدوس الأنصاري في

كتابه (آثار المدينة المنورة) أنه قد عثر في اثناء الحفريات لإقامة أسس القسم الشمالي لمدرسة العلوم الشرعية الحالية في المدينة وذلك في سنة ١٣٥٢ هجرية وقعوا على بركة صغيرة ومجاري مياه، وقطع من قلل المياه على عمق أربعة أمتار، وكل هذا دليل على ما كانت يثرب تتمتع به من الخصب والثمر والحاصلات الزراعية المتنوعة بسبب كثرة المياه التي أشرنا إليها ودياناً، وعيوناً، وآباراً.

الحاصلات الزراعية

وكثرة هذه المياه لا بد وأن توفر لهذه البقاع حاصلات زراعية وافرة خصوصاً حين يتم الحصول على أرض صالحة للزراعة ولهذا كان الحجاز من المناطق التي حظيت بالكثير من الزروع والأشجار على الأخص (الطائف) وارباضها، والوديان التي تمتد بين مكة وجده، ويثرب وارباضها وملحقاتها، ولا تزال هذه المناطق منذ القديم حتى الآن تحتفظ بالكثير من الينابيع والوديان التي أتينا على ذكر الكثير منها، ولا تزال تتمتع بخضرة السهول، وجنات النخيل والأعناب ومختلف الفواكه والزروع.

وعلى أن يثرب نفسها من مناطق الحرار المعروفة في الجزيرة فقد اشتهرت هي وأطرافها وملحقاتها بالخصب والنماء بسبب كثرة مياهها ووجود التربة الصالحة إلى جانب الصخور والمرتفعات، والمؤهلات الطبيعية المتوفرة للزروع كوادي القرى الذي لا بد وأن يكون قد سمي بذلك -كما أسلفنا- لكثرة قراه، والذي عرف بكثرة بساتينه، ومياهه، وقراه في التاريخ القديم.

والمنطقة بين قباء والمدينة هي الأخرى قد عرفت بكونها من أخصب مناطق يثرب بل لعلها أخصبها لذلك فهي تثمر جل فاكهة هذه البقاع وخضرواتها ومن ثم كانت بسبب هذا الخصب والنماء متنزهاً لأهل

يثرب ، ومصحاً ينتجعون فيه الراحة في مختلف العصور ، فكان الناس يخرجون اليها للتريّض ويقيم بها الناقهون استعادة للنشاط والقوة [1] .

وخير دليل على خصب المدينة هو وجود غابة كثيفة الشجر في شمال المدينة وهي قائمة منذ العهود القديمة حتى اليوم ، وهي غابة كثيفة الشجر في وسط أودية كثيرة الشقوق تشغل مساحات شاسعة من الأرض بحيث يتعذر ارتيادها بغير دليل خبير حتى هذا اليوم .

ولقد نقل السمهودي : أن الزبير ين العوام كان قد اشتراها بمائة وسبعين ألفاً ، وبيعت في تركته بألف الف وستمائة الف [2] لذلك فليس من العجيب أن يكون نصيب يثرب في مختلف العصور القديمة من الشجر والزرع والفاكهة كبيراً بحيث شمل صنوفاً متعددة من الشجر وعلى الأخص النخل وأنواع التمور وحتى صار النخل صفة من أكثر الصفات الملتصقة بأرض يثرب ولقد نسب لخنافر بن التوأم الحميري — وكان كاهناً — زاعمين أنه كان يتلقى وحيه في كهانته من ملهم كان يتراءى له في الحلم وكان اسمه (شصار) فكان (رئيّاً له) فلما ظهر النبي (ص) ظهر (شصار) لخنافر بن التوأم في الحلم ، وأوصاه بأن يؤمن بدين الإسلام . وحين سأله خنافر :

— كيف ؟ واين ؟

قال له شصار — : إلحق بيثرب ذات النخل [3] (كذا) .

ومن أشهر بقاع يثرب وضياعها التي عرفت بزراعة النخيل ، وكثرة التمور كانت قرى (خيبر) فقد قال البخاري عن عائشة إنها قالت : لما فتحت خيبر قلنا الآن نشبع من التمر ! !

---

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ٢٨٨ مط مخيمر .
(٢) آثار المدينة المنورة ص ١٢٨ ط ٢ مط المكتبة العلمية .
(٣) أمالي القالي ج ١ ص ١٣٤ مط المكتب التجاري ببيروت .

وعن ابن عمر قال : ما شبعنا – يعني من التمر – حتى فتحنا خيبر[1] .

وعلى انه لم يعرف بالضبط متى عرفت النخلة وفي اي موطن من البلدان عرفت لاول مرة فإن هنالك كثيراً من المرجحات الدالة على أن جزيرة العرب هي أقدم ما اعتبرها التاريخ موطناً للنخيل[2] وان القسم الجنوبي منها كاليمن ، والمدينة المنورة ، والطائف ، لمن اقدم تلك المواطن[3] .

ولقد افادت يثرب من زراعة النخيل في حياتها الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية فوائد كبيرة ، فالى هذه النخلة يرجع تحسن أحوال السكان ، والخروج من حياة البداوة ، وتنظيم امور المعيشة النسبية ، ونمو الثروة اكثر مما يرجع الى المنتوجات الزراعية الاخرى .

سأل عمر رجلاً من اهل (الطائف) الحُبلة – اي شجرة الكرم – خير ام النخلة ؟ فقال الطائفي :

ـ الحُبلة أتزببها ، واتربها ، واصلح بها بُرمتي – يعني الخل – وانام في ظلها .

فقال عمر – : لو حضرك رجل من أهل يثرب ردّ هذا عليك .

فدخل – حينذاك – عبد الرحمن بن محصن البخاري فاخبره عمر (ض) خبر الطائفي ، فقال البخاري :

ـ ليس كما قال الطائفي ، فاني إن آكل الزبيب أضرّس ، وان أتركه أغرث ، ليس كالصقر – اي الدبس – في رؤوس الرقل – اي النخل الطوال – الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل ، تحفة الكبير ،

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٠٢ مط السلفية .
(٢) التمور العراقية قديماً وحديثاً تأليف جعفر الخليلي ص ١٠ مط المعارف – بغداد .
(٣) شجرة العذراء ص ٢٨ مط الارشاد – بغداد .

وصُمتة الصغير ، وزاد المسافر ، وعصمة المقيم ، وتخرسة مريم بنت عمران ، وينضج ولا يُعنّي طابخه ، ويحترش به الضّب من الصلفاء »[1] .

ونستبين أثر النخلة في حياة يثرب الاقتصادية ، وقيمتها في رفع مستوى يثرب بين العدد الكبير من اصقاع جزيرة العرب وبلدانها الشهيرة . من حكاية تعود الى ما قبل ميلاد المسيح عن شخص من قدماء سكان العراق وقد سئل :

— ما هي اثمار بلادكم ؟

فأجاب : التمر .

ثم قيل له : — ثم ماذا ؟

فأجاب : التمر ايضاً .

فلما استغرب السائل قال الرجل :

— « اننا نستفيد من النخل فوائد عدة ، فاننا نستظل به من وهج الشمس ، ونأكل ثمرته ، ونعلف ماشيتنا بنواته ، ونعلن عن افراحنا بسعفه ، ونتخذ من عصارته عسلاً وخمراً ، ونصنع من جريده وخوصه الاواني والحصران وغيرها من الاثاث ، ونصنع من جذعه خشباً لسقوفنا ، واعمدة لبيوتنا ، ووقوداً لطبخنا »[2] .

ومن المؤكد ان قدر النخلة وقيمتها الاقتصادية في حياة المدينة كان معروفاً فقد امتلأ التاريخ باخبارها واخبار صنوف التمور فيها واهمية تلك التمور — تمور يثرب بالذات — في التجارة ، وكانت النخلة تعد ثروة كبيرة عند أهل يثرب ، ولها ولتمورها الشأن الاكبر في حياة السكان القدماء ، ولذلك

---

(١) التنبيه على أمالي القالي ص ٩٥ مط المكتب التجاري — بيروت .

(٢) كتاب (في بلاد الرافدين) صور وخواطر — بقلم ليدي دراور ترجمة فؤاد جميل ص ١٧٨ نقله عبد القادر باش أعيان في كتابه (النخلة سيدة الشجر) .

ظل مثل (عرقوب) في مواعيده قائماً منذ أقدم الأزمنة وذلك ليس لغرابة خلف عرقوب لمواعيده فحسب وانما لقيمة التمر الذي عزّ على الأخ ان يعين به أخاه ويسعفه ويسدّله به حاجته لما كان لهذا الثمر من شأن في المعيشة بحيث جعل الأخ يبخل على اخيه بحاصل نخلة واحدة ليسدّ به عوزه وهو طلع بعد ولم ينضج .

والقصة كما ترويها كتب الادب هي : ان رجلاً من العماليق أتاه أخ له يسأله ، فقال له (عرقوب) – وهو الأخ المسؤول – اذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها ، فلما اطلعت أتاه للعدّة ، فقال عرقوب : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت ، قال : دعها حتى تصير زهواً ، فلما زهت قال : دعها حتى تصير رطباً ، فلما أرطبت ، قال دعها تصير تمراً ، فلما أتمرت ، عمد اليها عرقوب من الليل فجذّها ولم يعط أخاه شيئاً ، فصار مثلاً في الخلف وفيه يقول الاشجعي :

وَعدتَ وكان الخُلفُ منك سجيّةً مواعيد عرقوب أخاه بيثرب [1]

ويروي البعض انها (يترب) بالتاء وهو موضع قرب اليمامة ، ولكن الاصح انه يثرب مدينة الرسول وليس (بيترب) اليمامة ، وعلى هذا الرأي كان ياقوت الحموي فقد قال ان الصحيح هو ان عرقوب من قدماء يهود يثرب [2]

والحكاية وان كانت تدل اكثر ما تدل على الجشع والطمع ولكنها لا تعدم الدلالة على قيمة التمر واهميته بحيث يثير الطمع في نفوس الطامعين .

وبلغت قيمة التمر وقيمة النخلة مبلغاً طالما آلت الى الخصومة وحتى الى القتل وكان أهم تنكيل اذا أراد اعداء يثرب ان ينكلوا بسكان يثرب في الحرب هو ان يعمدوا الى نخيلهم فيقطعوها ويجذوها من رؤوسها ،

---

(١) مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٣٤٦ .
(٢) معجم البلدان مادة (يثرب) مط صادر ودار بيروت .

ووجد مرة رجل من بني النجار من سكان يثرب يقال له أحمر رجلاً من اصحاب (تبعّ) وهو يجذّ عذقاً له في بستانه – وقد كانت لتبعّ عظمته وسلطانه وكان قد غزا المدينة بجيشه الجرّار – فضربه احمر بمنجله وقتله وقال : انما الثمر لمن أبَرَهُ – اي زرعه ولقحه – ثم القاه حين قتله في بئر من آبارهم يقال لها ذات تومان[1] ولم يبال ، ولم يخش سلطان (تبعّ) وقد مرت الاشارة الى هذا الحادث من قبل .

وأنواع تمور المدينة كثيرة ، وأقل ما أورده المؤرخون لتمور المدينة انه مائة وبضعة وثلاثون نوعاً[2] اشهرها العجوة . والصيحاني ، وعذق ابن طاب وهو تمر معروف في المدينة كما جاء في الصحاح :

وتفيد المدينة من تجارة التمور كثيراً ، وان امتيار بدو البادية والاطراف انما يجري من تمر المدينة وحاصلاتها .

ومن اشهر صادرات المدينة من حاصلاتها الزراعية هو التمر الصيحاني ، وهو نوع لم يوجد في غير المدينة[3] وحبّ (البان) الذي يحمل الى سائر البلاد وتفيد المدينة من تجارته شيئاً كثيراً ، والبان شجر قديم يكثر في بقاع المدينة ، ولحب ثمره دهن طيب ، وكان حبّه يوصف فيما مضى للبرش والنمش ، والكلف ، والحصف والبهق ، والسعفة والجرب ، وتقشر الجلد . طلاء بالخل ، وصلابة الكبد والطحال شرباً بالخل ، وان مثقالاً منه شرباً مقيء ، مطلق بلغماً خاصاً[4] الى غير ذلك مما كانوا يصفون به هذا الحب من المنافع فكانت تجارته تدر ارباحاً كثيرة ،

وحين جاء الاسلام ، وهاجر النبي الى المدينة حث على العناية بالتشجير

---

(١) تاريخ الأمم والملوك – الطبري – ج ١ ص ٥٣٠ مط الاستقامة بمصر .
(٢) شجرة العذراء ص ٢٦ مط الإرشاد – بغداد .
(٣) آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٠٧ مط صادر ودار بيروت .
(٤) القاموس مادة (البون) .

واوصى برعاية النخلة ، ودعا لتناول التمور في مختلف الأحوال ، وقد وردت في تمر المدينة روايات وأحاديث من قبيل : « ان الله ليربي لاحدكم التمرة واللقمة كما يربي احدكم فلوّه وفصيله حتى يكون مثل أُحُد » وهذه استعارة لطيفة والمراد بها هو ان الله تعالى يجمع القليل الى القليل من صدقاتكم حتى يعظم يسيرها ، ويكبر صغيرها ، فجعل (ص) ذلك كتربية الفلو والفصيل ، وتربية الطفل الصغير [1] .

وروي عن النبي (ص) انه قال : « ان قامت الساعة وفي يد احدكم فسيلة فان استطاع ان لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها ».

ومما رواه احمد : « من أكل سبع تمرات عجوة ما بين لابتي المدينة على الريق لم يضرّه يومه ذلك شيء حتى يمسي » [2] .

وهذا وغيره ما ضاعف العناية بالتمور وغرس النخيل فضاعف الحاصل منه حتى كان النخل هو الركيزة الاولى التي ارتكزت عليها حياة المدينة الاقتصادية في تاريخ الإسلام فضلاً عن تاريخها القديم ولذلك قيل عنها : انها بلدة طيبة مباركة ، كثيرة الخيرات ، عذبة المياه ، وافرة النخيل والثمار [3] . ومع كون المدينة وبعض الأطراف ارضاً حرّة سبخة فقد وصفها ياقوت بقوله : لها نخل كثير ، ومياه ، وزروعهم تسقى من الابار ، هذا الى جانب الحاصل الكبير الذي تجنيه المدينة من فواكه الشجر والخضروات .

ومن استعراضنا للتاريخ نعرف ان في المدينة الى جانب النخل والشجر المثمر الشيء الكثير من الأشجار غير المثمرة والمنتفع باخشابها وحطبها او ظلها وخضرتها وعلى الاخص (العضاه) وهو كل شجر له شوك يعظم : ومن أعرف ذلك : الطلح ، والسلّم ، والسّيال ، والعُرفُط ، والسّمُر ،

---

(١) شجرة العذراء ص ٢٧ مط الارشاد – بغداد .
(٢) المصدر المتقدم .
(٣) بلوغ الارب ج ١ ص ١٨٨ مط الرحمانية بمصر .

والشبهان ، والكنهبل، والواحدة عضة ، قال الراعي :

وخادَعَ المجدَ اقوامٌ لهم ورقٌ راح العضاهُ به والعرق مدخول(١)

والمنقول عن النبي (ص) انه قال : «أحرّم بين لابتي المدينة ان يقطع عضاهها او يقتل صيدها» واللابة هي الارض ذات الحجارة النخرة السوداء وقد فسرت اللابة بالحرّة .

وفي (ورقان) وهو من جبال المدينة أنواع من الشجر المثمر وغير المثمر الذي أتى على وصفه المؤرخون وفيه (القرظ) وهو ورق يستعمل لدبغ الجلود ، والسماق ، والخزم ، وهو شجر تتخذ منه الأرشية الجياد ، وله ساق كساق النخلة على ما وصف ياقوت الى غير ذلك مما درّ على المدينة من حاصل زراعي كان له الاثر الكبير في انعاش هذا البلد في مختلف ادواره التاريخية .

الصناعة والتجارة

والعاملان الاخران اللذان يعود اليهما الفضل في تمصير يثرب في تاريخها القديم والعمل على خلق حضارة نسبية لها: هما الصناعة والتجارة ، والصناعة والتجارة في يثرب وان لم تكونا مورد قياس مع صناعة المدن التاريخية المتحضرة وتجارتها بأي وجه من الوجوه ولكنهما كانتا كبيرتي الأهمية جداً بالنسبة لمدينة تقوم هي وضياعها في موقع جغرافي كموقع يثرب تحوطه البوادي وسكانها البدو من جميع الجهات وينعدم اتصالها الوثيق بالحضارات العريقة كحضارة وادي الرافدين ووادي النيل وانعدام الوسائل التي يتجاوز مفعولها الحدود التي كانت عليه صناعة المدينة وتجارتها ، ومع ذلك فقد كان هذان العلان مما لا يستهان بهما في انعاش الحالة الاقتصادية

(١) أمالي القالي ج ١ ص ١٠ مط المكتب التجاري ببيروت .

والاجتماعية لسكان يثرب وضياعها فالى جانب حاصلات المدينة الزراعية وكثرة الفواكه والاشجار والنخيل وما كان يفيد سكان المدينة من الحاصلات الزراعية وبيع التمور وتصديرها الى الخارج كانت هناك صناعة تفرضها عليهم طبيعة السكن ومقتضيات الحاجة ، لذلك عرفت المدينة فيما عرفت بصنع النصال فقيل عن نصالها :

« وما هو الا اليثربيّ المُقطّعُ » .

والمقصود باليثربي المقطع هو النصل ، وقد زعم بعض الرواة ان المراد باليثربي السهم لا النصل ، وان يثرب لا يعمل فيهـا النصال ، وأنكر ابو حنيفة ان يكون الأمر كذلك لأن النصال تعمل بيثرب ،وبوادي القرى، وبالرقم ، وبغيرها من ارض الحجاز [١] وقد ذكر الشعراء ذلك كثيراً ، وجاء في قول كثيّر :

وماءٍ كأنّ اليثربيّة أنصلتْ باعقارهِ دفع الازاء نزوع

واشتهرت يثرب بصناعة السهام الى جانب صناعة النصال فقيل في الوصف « سهم يثربيّ وأثربيّ » منسوب الى يثرب [٢] .

ولكون يثرب المركز الرئيسي والعاصمة الكبرى في القسم الشمالي من الحجاز كان لابد ان تكون مركزاً رئيسياً لصناعة الالات الزراعية والاجهزة المنصوبة على الابار والدلاء وما شاكل ذلك ، والافادة من منتوج النخيل كالجذوع في بناء البيوت ، والليف في صنع الحبال والرشاء ، والجريد في مختلف الصناعات التي كانت تسد حاجة البيوت بالاضافة الى دبغ الجلود واستعمالها في مختلف الشؤون التي تقتضيها الحاجة الى الجلود .

ويكفي شهرة يثرب في الصناعات المختلفة ان يكون في (زهرة)

---

(١) معجم البلدان مادة (يثرب) مط صادر ودار بيروت .

(٢) أمالي القالي ج ٢ ص ١٦٠ مط المكتب التجاري – بيروت .

وحدها وهي قرية من قرى ضواحي المدينة ثلثماية صانع من اليهود [١] .

ولما كانت المدينة بحكم مؤهلاتها واهميتها محل ارتياد القبائل فليس بالبعيد ان تكون مختصة من بين المدن المهمة بصناعة كل ما يلائم حياة البدو الذين يمتارون منها مأكولاتهم ، وملابسهم كنسج الأخبية وبيوت الشعر ، وصنع حدوج الابل ، والعدول ، والقدور ، والاواني ، والقرب ، اضافة الى صناعة كل ما يحتاج اليه الحضر من السكان ، وقد شاعت ثياب المدينة حتى قيل في وصفها : (ثوب مدني) .

والمدينة وضياعها واقعة في ممر القوافل القادمة من اليمن الى الشام والقادمة من الشام الى اليمن حتى لقد اعتبروا وادي القرى طريقاً عالمياً منذ القديم كانت تسلكه القواقل بين الشام واليمن [٢] .

وصحيح ان مكة كانت مركزاً مهماً من مراكز التجارة بل انها كانت اهم المراكز التجارية في شبه جزيرة العرب خصوصاً في القرن السادس الميلادي ولكن المدينة كانت تنافسها لحد غير قليل لوقوعها على نفس الطريق بين اليمن والشام ، وكانت المدينتان تجلبان الميرة وما تحتاجان اليه من خارج جزيرة العرب من مرفئيهما جده كميناء خاص بمكة ، وينبع كميناء خاص بالمدينة .

والمدينة بعد ذلك متصلة ببادية نجد من الشرق التي توصلها بالعراق الذي يوصلها بالبحر الأحمر من الغرب ، وان مركزاً جغرافياً كهذا لمما يجعل الفوائد الاقتصادية كبيرة جداً لاسيما وان يثرب خير مقيل لراحة القوافل واستعادة النشاط لمواصلة السفر وذلك لكثرة مياهها وبساتينها ووفرة ما تحتاج اليه القوافل المارة من زاد ومؤون وبضاعة للطريق ، فكان

---

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار – الملحق الثاني لشفاء الغرام ص ٣٢٣ مط دار أحياء الكتب العربية بمصر .

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ص ١٠ مط مخمر .

كل ذلك سبباً من اسباب انعاش الحركة التجارية وارتفاع مستوى الحياة . فضلاً عما كانت تجني يثرب من انتقال الحضارة النسبي وتبادل الافكار والاتصال بالعالم الخارجي على قدر ما في تلك الحركة المستمرة من قابلية في نقل الحضارة النسبية وتأثيرها في هذه الجهة من الحجاز .

وكانت تجارة الرقيق في الجاهلية رائجة . ومن هذا الطريق دخلت الى المدينة افكار جديدة حملها الارقاء الى السكان . وليس من البعيد ان تكون تلك الافكار قد احدثت تفاعلاً ولو بنسبة محدودة في حياة المدينة . فقد كان الرقيق شائعاً لحد كبير وكثيراً ما يأتي عن طريق الأسر والغزو كأن تغزو القبيلة القوافل المارة في طريق الشام او طريق العراق وتأسر بعض الاشخاص الذين ترى في اسرهم مغنماً وتبيعهم في أسواق المدن . وقد كان سلمان الفارسي من هؤلاء الارقاء الذين اسروا في قافلة خرجت من العراق تريد الشام فاسترق وبيع لبعض يهود المدينة .

وبلغت تجارة المدينة وثروتها ان اقتنى السكان العبيد والاماء واستخدموا العمال والخدم وعاش الكثير منهم في نعمة مشهودة . ويقول ياقوت عن أهل المدينة ان نخيلهم وزروعهم كانت تسقى من الابار ويملكها العبيد[1] .

---

(١) معجم البلدان مادة (مدينة) مط صادر ودار بيروت .

اشهر قرى المدينة وضياعها

تحيط بالمدينة قرى وضياع كان لها في أيام الجاهلية شأن كبير من حيث عمرانها ، وخصبها ، وازدهارها ، وحصونها ، ومناعتها في الحرب ، وقد بقي قسم من تلك القرى حتى اليوم محافظاً على خصبه . مزهواً بنخيله وثمره . وقد كانت هذه القرى والدساكر مسكونة بقبائل ليس لدينا منها إلا أخبار يفتقر الكثير منها إلى التأييد الذي يأتي به الحفر والتنقيب والبحوث الحديثة في كتب الأخبار والأحاديث والرحلات قبل نزول اليهود ونزول الأوس والخزرج وحتى في العصور الإسلامية ، وسنستعرض هنا أهم تلك القرى على قدر ما يستسيغه علم التاريخ الحديث من اخبارها .

العقيق

والأعقّة كثيرة ، وكل عقيق ينسب لجهة من الجهات ، أما عقيق المدينة فهو واد عليه أموال المدينة يقع على مسافة ميلين أو ثلاثة أميال وقيل سبعة على ما ذكر ياقوت الحموي ، وكان عامراً بالقصور ، والأبنية ، والسكان في الجاهلية فقد روي أن رسول الله (ص) ركب إلى العقيق ثم رجع فقال :

– يا عائشة جئنا من هذا العقيق . فما ألين موطئه ، وأعذب ماءه .

قالت : يا رسول الله – أفلا ننقل اليه ؟

فقال — : كيف وقد ابتنى الناس — أي أنه ملك غيرنا من الناس —

ولأهل العقيق أخبار مستحسنة في الكتب . وأشعار رائعة . ويبدو أن العقيق ظل معموراً إلى أواسط زمن العباسيين لانتساب الكثير اليه كمحمد بن جعفر بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن علي بن الحسين (ع) ابن علي بن أبي طالب (ع) المعروف بالعقيقي .

ويقول ياقوت الحموي عن محمد بن جعفر أن له عقباً . وفي ولده رياسة . ومن ولده أحمد بن الحسين بن أحمد بن علي بن محمد العقيقي أبو القاسم كان من وجوه الأشراف بدمشق . ومدحه أبو الفرج الوأواء . ومات بدمشق سنة ٣٧٨ ودفن بالباب الصغير .

وفي هذا العقيق قصور . ودور . ومنازل . وقرى [١] ويقول المسعودي ولست ترى قبيلاً من العرب توغل عن الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم كماء ضارج . وماء العقيق . والسباط . وما أشبه ذلك من المياه [٢] .

يقول ابن النجار : وولى رسول الله (ص) العقيق لرجل اسمه هيضم المزني . ولم تزل الولاة على المدينة يولون والياً من عهد النبي إلى زمن الرشيد والأمين . وهذا يدلّ على أهمية (العقيق) وبعد تاريخه . وقيام المنازل والقصور فيه قبل الإسلام .

قالوا : ومات سعيد بن زيد . وسعد بن أبي وقاص . وهما من العشرة بالعقيق وحملا إلى المدينة فدفنا بها .

وقال ابن النجار : ووادي العقيق اليوم ليس به ساكن . وفيه بنيان خراب ، وآثار تجد النفس برؤيتها أنساً كما قال أبو تمام :

---

(١) معجم البلدان — مادة (العقيق) مط صادر ودار بيروت .

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٧ مط البهية المصرية .

ولا الخدودُ وان أدمينَ من خجلٍ أشهى إلى ناظري من خدِّها التَرِبِ
ما ربع ميّة معموراً يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخربِ[1]

وابن النجار من أبنـاء القرن السادس الهجري ومعنى هـذا انه لم يبقَ من العقيق وواديه في هذا القرن وما بعده غير آثار خرائب الماضي .

خيبر

خيبر ناحية على نحو ثمانية بُرد من المدينة (والبريد اثنا عشر ميلاً عربياً فتكون المسافة كلها ٩٦ ميلاً عربياً[2] وقد جاء في أخبارها القديمة أنها إنما سميت بخيبر نسبة إلى خيبر بن قانية بن مهلائيل بن ارم بن سام بن نوح ، وهو عمّ الربذة ، وزرود ، والشقره بنات يثرب ؟

وكان خيبر أول من نزل هذا الموضع على ما ذكر الحموي ومـا جاءت به الأخبار القديمة التي لم تزل بحاجة إلى التمحيص . ولكن قدم هذه الناحية في التاريخ أمر ليس فيه ريب ، وقد ورد اسم خيبر في الكتابات البابلية القديمة ، ويقول محمد رضا في كتابه (محمد) أن معنى خيبر باللغة العبرية هو الحصن أو القلعة مستنداً على ما ذكره ياقوت في معجم البلدان ،

وخيبر هذه مشهورة بحصونها المنيعة المبنية بالحجارة والصخور ، وأشهرها سبعة حصون هي :

١ — حصن ناعم .
٢ — القموص حصن أبي الحقيق .
٣ — حصن الشق .
٤ — حصن النطاة .
٥ — حصن السُلالم .

---

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار ص ٣٤٠ مط عيسى البابي بمصر .
(٢) محمد رسول الله — محمد رضا ص ٣٨٠ ط ٢ مط عيسى البابي الحلبي بمصر .

٦ – حصن الوطيح .
٧ – حصن الكتيبة .

ويستبان أن كل حصن من هذه الحصون كان يشتمل على مجموعة من الحصون ، ولكون هذه البقعة تشمل هذا العدد من الحصون سميت (بالخيابر) وكان أمنع حصونها حصن الناعم من حصون (النطاة) .

وسكان خيبر يهود كانوا يقطنون بيوتاً حصينة وسط النخيل وحقول القمح . ومن سكانها المشاهير كان السموأل بن عاديا المشهور بالوفاء . ولعل خيبر أكثر القرى في شمال الحجاز ثروة ومالاً لوفرة زرعها وحاصلاتها من الحبوب والفواكه وعلى الأخص التمور .

يقول حسان بن ثابت :

أتفخرُ بالكتّان لما لبستَه وقد تلبس الأنباط ريطا مقصّرا
فلا تَكُ كالعاوي فأقبل نحره ولم تخشه سهماً من النبل مضمراً
فانّا ، ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا[1]

وأن لخيبر في حاصل تمورها شهرة كشهرة (هجر) التي ورد في الأمثال عنها : (كمستبضع التمر إلى هجر) أو (مستبضع التمر إلى خيبر) وكان لحاصل التمور يومها قيمة جد كبيرة في ثروة البلاد .

وكان يهود خيبر يحسون بقيمة هذه الثروة الطائلة من المزروعات والنخيل والتمر ويخافون عليها من الغزو لذلك حصنوا قراهم وبساتينهم بقلاع ليس من الهين الاستيلاء عليها لمناعتها ولوفرة السلاح وتنوعه فيها ، فحين حاصر النبي (ص) قلاع خيبر في السنة السابعة من الهجرة اتاه رجل في الليلة السادسة من الحصار من يهود خيبر وأخبره أنه قد خرج من حصن (النطاة) وهو يعرف بعض أسرار الحصن ، وقال : إن في

(١) معجم البلدان مادة (خيبر) مط صادر ودار بيروت – وفي مجمع الأمثال للميداني ينسب البيت الأخير إلى النابغة الجعدي في المثل ويقول (كمستبضع التمر الى هجر والى خيبر) .

حصن (الصعب) وهو من حصون (النطاة) وفي بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً، ودبابات، ودروعاً، وسيوفاً. فإذا دخل فيه رسول الله أوقفه على أسراره [١]. فإذا كان في بيت من بيوت خيبر مثل هذه العدة فكم يكون في عشرات البيوت الأخرى.

ولقد توقى الغزاة هذه القلاع وتهيّبوها ولذلك لم نعثر على فـاتح استطاع أن يخضعها لنفوذه ويفتحها قبل الإسلام، وقد كلف فتحهـا الإسلام الشيء الكثير من العنف والشدة، حين حنث اليهود ونكثوا العهد الذي أعطاهم النبي إياه والذي تضمن حريتهم وحفظ أموالهم وأغراضهم ومعتقداتهم، وقد جاء أن النبي (ص) كان يعهد في كل يوم لواء الحرب لقائد من القواد لمحاربة الحصن الأول وهو حصن (ناعم) فيرجع القائد ويرجع الجيش دون طائل، وقد عزّ على النبي (ص) أن يستشهد في هذه المعارك قائد كمحمود بن مسلمة أخي محمد بن مسلمة حتى لقد أعطى اللواء لأبي بكر وعمر بن الخطاب (ض). ويكفي دليلاً على أهمية هذه الحصون وخطورتها أن نستعرض النبي وهو يستعيذ بالله من شر هذه المعركة، فقد جاء في البخاري عن أنس: أن النبي (ص) لما أشرف على خيبر قال لأصحابه: قفوا. ثم قال:

«اللهم رب السموات وما اظللن، ورب الأرضين وما اقللن، ورب الشياطين وما اضللن ورب الرياح وما ذرين، نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشر أهلها، وشر ما فيها.. أقدموا باسم الله» [٢].

حتى إذا تأزم الوضع وتعقدت الحرب دون الحصول على نتيجـة

---

(١) محمد رسول الله – محمد رضا ص ٣٨٢ ط ٢ مط عيسى البابي الحلبي بمصر.
(٢) المصدر المتقدم ص ٣٨١.

طلب النبي (ص) الإمام علي بن أبي طالب (ع) ودفع إليه اللواء فكان أن تم الفتح على يديه .

ويقول ابن الأثير عن علي (ع) : فنهض – أي الإمام علي – بالراية وعليه حلّة حمراء فأتى خيبر فأشرف عليه رجل من يهود فقال :

– من أنت ؟

قال – أنا علي بن أبي طالب .

فقال اليهودي – : غلبتم يا معشر يهود [1] .

وقد رويت عن فتح الإمام علي (ع) لقلاع خيبر روايات كثيرة اتفقت كلها في المضمون ففي صحيح مسلم . والبيهقي عن ابي هريرة قال : قال رسول الله (ص) :

« لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله . ويحبّه الله ورسوله يفتح عليه . قال عمر (رض) : فما أحببت الإمارة إلا يومئذ . فدعا عليّاً (ع) فبعثه ثم قال : اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك . ولا تلتفت الخ .... [2] » .

وقال الإمام أحمد : إن رسول الله (ص) أخذ الراية فهزّها ثم قال : من يأخذها بحقها ؟ فجاء فلان فقال : أنا . قال : إمض . ثم جاء رجل آخر فقال : إمض . ثم قال النبي (ص) والذي كرّم وجه محمد لأعطينّها رجلاً لا يفرّ . فقال : هاك يا علي . فانطلق حتى فتح الله عليه (خيبر) و (فدك) وجاء بعجوتها وقديدها [3] .

أما إحدى روايات الطبري فتتلخص في أن رسول الله (ص) لما نزل

---

١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٠ ط صادر ودار بيروت .
٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٨٥ .
٣) المصدر المتقدم .

بحصن أهل خيبر أعطى االواء لعمر بن الخطابْ (ض) ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهـل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله (ص) وهم يجبّنونه – اي يجبّنون عمر – وهو يجبّنهم، فقال رسول الله – وكان قد مرّ على محاصرة القلعة عدة أيام دون طائل، قال: لأعطين اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فلما كان من الغد تطاول لها أبو بكر وعمر (ض) فدعا علياً عليه السلام وهو أرمد وأعطاه الاواء ونهض معه من الناس من نهض. فإذا (بمرحب) وهو أشهر أبطال اليهود يرتجز ويقول:

قد علمتْ خيبر أني مرحبُ شاكي السلاحِ بطلٌ مجرّبُ

فارتجز علي (ع) قائلاً:

أنا الذي سمّتني أمّي حيدرَهْ أكيلكُمْ بالسيف كيلَ السندرهْ

ليثٌ بغابات شديدٌ قسورهْ

ويروح الطبري واصفاً هذه المقاتلة وما كان يدّرع به (مرحب) إذ يقول عنه: وخرج مرحب من الحصن وهو صاحبه وعليه مغفر معصفر يمان، وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه، وتقاتلا قتالاً عنيفاً انتهى بقتل مرحب وأخذ المدينة[1] وكانت مدة النزال شهراً عـلى ما ذكرت التواريخ.

وجاء في كتاب (محمد رسول الله): وكان أول حصن فتحه المسلمون هو حصن (الناعم) من حصون (النطاة) على يد عليّ رضي الله عنه[2].

ولأهمية هذا الفتح قال النبي (ص): – وكان جعفر بن أبي طالب

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ج ٢ ص ٣٠١ مط الاستقامة بالقاهرة.
(٢) محمد رسول الله لمحمد رضا ٢ ص ٣٨٣ مط عيسى البابي الحلبي بمصر.

قد قدم من الحبشة يوم فتح خيبر — : ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .

وإلى جانب هذه النعمة الوافرة التي كان ينعم بها أهل خيبر ، والحصن المنيع الذي يضمن لهم الأمن والاطمئنان ، والعيش الرغيد كان هنالك شيء ينغّص حياة سكان خيبر وينكّد عيشهم ، وذلك هو الحمّى التي عرفت بها قرى خيبر ، والراجح أنها كانت (الملاريا) وذلك لكثرة المياه ولمراودة هذه الحمى السكان بين آن وآخر على ما تصف الأخبار وقد عرفت هذه الحمى بالحمى الخيبرية ووصفت بالشعر ، ومنه قول أحد الشعراء :

كأن به إذ جئته — خيبرية ً يعود عليه وِردُها ومُلالها

وقدم أعرابي خيبر بعياله فقال :

قلتُ لحمّى خيبر : استعدي هاكِ عيالي فاجهدي وجدي
وباكري بصالبٍ وَوِرْدِ أعانكِ اللهُ على ذا الجندِ

ويقول ياقوت : فحُمّ ومات هو وبقي عياله !

وقال الأخنس بن شهاب :

فلأبنة حطّان بن قيس منازلٌ كما نمّق العنوانَ في الرقّ كاتبُ
ظللتُ بها أعرى وأُشعر سُخنةً كما اعتاد محموماً بخيبر صالبُ

قرية فدك

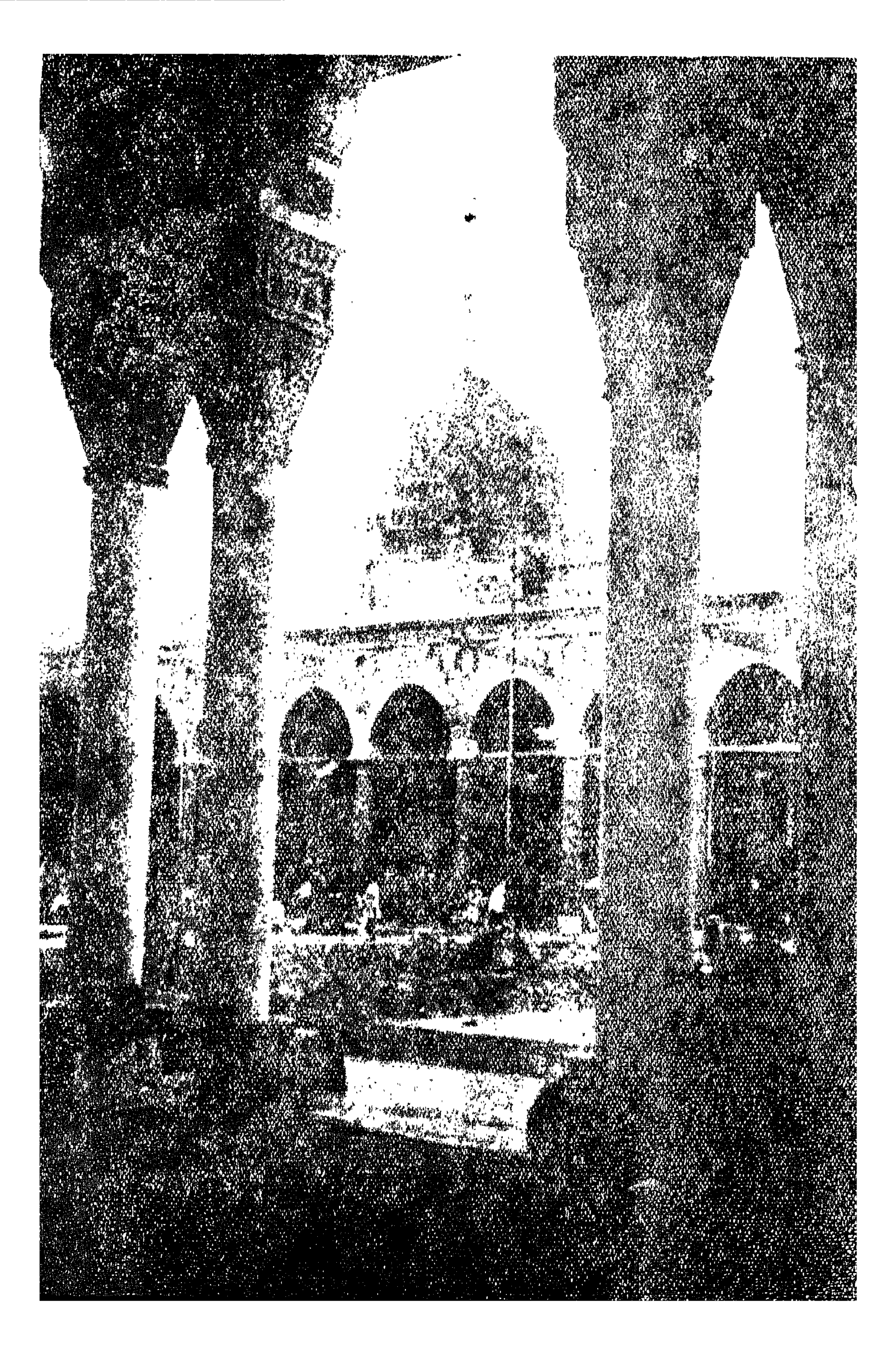
وفدك قرية من قرى خيبر تقع على مسافة يومين أو ثلاثة أيام من المدينة المنورة ، وسكانها يهود كسكان المواقع الأخرى والقرى اليهودية من خيبر ، وهي ذات شجر ونخيل وخصب بفضل مياهها الفوارة ، وأرضها الصالحة ، وليس من شك أنها كانت قد احتاطت لنفسها توقياً من الغزو والحروب بالقلاع الحصينة كما فعلت سائر قرى خيبر دفاعاً

عن النعمة الوافرة التي كانت تنعم بها خيبر . ويبدو من سير التاريخ أن قرية فدك إذا لم تكن أخصب قرية من قرى المدينة وأوسعها ثروة في حاصلاتها الزراعية فهي على الأقل كانت من أخصب البقاع في عصور المدينة القديمة التي لم يعرف شيء عن مبدأ تاريخها قبل أن يسكنها اليهود غير ورود اسمها في الكتابات البابلية القديمة . وقد أكسبتها قضية امتلاكها في مختلف الأدوار شهرة كبيرة خصوصاً في القرن الأول والقرن الثاني من الهجرة ، فقد تردد اسمها على الأفواه في أيام الخليفة أبي بكر (ض) وما بعده . ولولا ذلك لما ذكر خبرها بأكثر مما كان يذكر من أخبار قرى خيبر الأخرى وأخبار حصونها .

ويتلخص خبر (فدك) في أن رسول الله (ص) حين استولى على قلاع خيبر وأموالها لم يبق إلا حصنان هما (الوطيح) و (السُلالم) وقد اشتد حصاره لهما حتى أيقن سكان الحصنين من اليهود بالهلاك سألوا النبي (ص) أن يسيّرهم ويحقن لهم دماءهم ففعل . وكان النبي قد حاز أموال حصن (الشق) وحصن (النطاة) و (الكتيبة) و (القموص) وحصن (الناعم) وما احتوت عليه تلك القرى إلا ما كان من ذينك الحصنين اللذين انتهى أمرهما بأخذ الأمان وحقن الدماء . والمصالحة على المناصفة في استثمار الأرض حين رأى سكان فدك أن لا مناص لهم من المصالحة بعد أن رأوا ما انتهى اليه أمر سكان (الوطح) و (السلالم) فبعثوا إلى الرسول (ص) يسألونه أن يسيّرهم ويحقن دماءهم عـلى أن يخلّوا له الأموال . ففعل . وصالحهم كما صالح (الوطيح) و (السلالم) على أن يكون للمسلمين الحق في إخراجهم من القرية إذا شاؤوا . فكانت خيبر فيئاً للمسلمين . أما (فدك) فكانت خالصة لرسول الله (ص) لأنها لم

←

باحة المسجد النبوي الكريم وضريح الرسول الاعظم في المدينة



يوجف عليها بخيلٍ أو ركاب .

وبعد وفاة النبي (ص) ضمّها أبو بكر (ض) إلى أملاك المسلمين فنازعته فيها فاطمة الزهراء (ع) ابنة النبي (ص) وقالت له : إن رسول الله قد نحّلنيها ، وقد جعلها لي فأعطنيها . وشهد لها الامام علي بن ابي طالب (ع) فسألها أبو بكر شاهداً آخر فشهدت لها أمّ أيمن مولاة النبي (ص) فقال أبو بكر : « قد علمت يا بنت رسول الله أنه لا يجوز إلا شهادة رجلين ، أو رجل وامرأتين » فانصرفت[٢] .

فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره بردّ (فدك) إلى ولد فاطمة (ع) فكانت في أيديهم في أيام عمر بن عبد العزيز ، فلما ولي يزيد بن عبد الملك قبضها ، فلم تزل في أيدي بني أمية حتى ولي أبو العباس السفاح الخلافة فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب ، فلما ولي المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم ، فلما ولي المهدي بن المنصور الخلافة أعادها عليهم ، ثم قبضها موسى الهادي ومن بعده إلى أيام المأمون ، فجاءه رسول بني علي بن أبي طالب (ع) فطالب بها ، فأمر أن يُسجّل لهم بها ، فكُتب السجل وقُرىء على المأمون فقام دُعبل وأنشد :

أصبحَ وجهُ الزمان قد ضحكا بردّ مأمون هاشم فَدَكا

ويقول ياقوت الحموي : « فلما كانت سنة ٢١٠ أمر المأمون بدفعها إلى ولد فاطمة ، وكتب إلى قُثَم بن جعفر عامله على المدينة : أنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى ابنته فاطمة رضي الله عنها (فدك) وتصدق عليها بها وأن ذلك كان أمراً معروفاً عند آله عليه الصلاة والسلام ، ثم لم تزل فاطمة تدعي منه بما هي أولى من صدق عليه ، وأنه قد رأى

(١) تاريخ الأمم والملوك – الطبري ج ٢ ص ٣٠٣ مط الاستقامة بمصر .
(٢) معجم البلدان مادة (فدك) مط صادر ودار بيروت .

ردّها إلى ورثتها وتسليمها إلى محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ليقوما بها لأهلهما

ويقول ياقوت نقلاً عن الزجاجي : أنها سميت بفدك بن حام وكان أول من نزلها !! وهذا من الأخبار المفتقرة للتمحيص .

وادي القرى

هو واد بين الشام والمدينة — كما مر — وبين تيماء وخيبر — فيه قرى كثيرة وبها سمي وادي القرى ، ونقل ياقوت عن أبي المنذر أنه إنما سمي بوادي القرى لأن هذا الوادي من أوله إلى آخره قرى منظومة ، ويقول : وكانت من أعمال البلاد وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة إلا أنها في وقتنا هذا كلها خراب ، ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد[٢] .

ووادي القرى هذا من منازل قضاعة ، ثم جهينة ، وعذرة ، وبلي ، وكان قديماً منازل ثمود وعاد ، وآثارها إلى الآن باقية على ما يذكر ياقوت ، وقد نزل هذه القرى بعدهم اليهود ، واستخرجوا كظائمها ، وأساحوا عيونها ، وغرسوا نخلها فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً ، وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ومنعوها لهم على العرب ، ودفعوا عنها قبائل قضاعة

ويقول ياقوت : وكان النعمان بن الحارث الغساني ملك الشام أراد غزو وادي القرى مرة فحذّره نابغة بني ذبيان من ذلك بقوله :

تَجنّبْ بني حُنٍّ فإنّ لقاءهم كريهٌ وإن لم تلقَ إلا بصابر
هُمُ قتلوا الطائي بالحجر عنوةً أبا جابر واستنكحوا أم جابر

---

(١) المصدر المتقدم .

(٢) معجم البلدان مادة (القرى) مط صادر ودار بيروت .

وهم ضربوا أنفَ الفزاريّ بعدَما أتاهم بمعقود من الأمرِ قاهرِ
أتطمع في وادي القرى وجنابِه وقد منعوا منه جميعَ المعاشر

ويفسر ياقوت الأسماء فيقول عن (حُنّ) انه ابن ربيعة وينتهي به إلى قضاعة ، أما أبو جابر فيقول عنه أنه الجُلاّس وينتهي به إلى طي . وكان هذا ممن اجتمعت عليه جديلة طي .

وفي سنة سبع وعندما فرغ النبي (ص) من غزوه لخيبر توجه إلى وادي القرى فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا عليه وقاتلوه ففتحها عنوة وغنم أموالها ، وأصاب المسلمون منهم أثاثاً ومتاعاً فخمّس رسول الله ذلك وترك النخل والأرض في أيدي اليهود ، وعاملها على نحو ما عامل عليه أهل خيبر .

وفي وادي القرى يقول القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي الحصين المعزي :

إذا غبتَ عن ناظري لم يَكدْ يمرّ به — وأبيك — الكرى
فيؤلمني أنني لا أراك إذا ما طلبتُك فيمن أرى
لقد كذب النومُ فيما استقلْ بشخصك في مقلتي وافترى
وكيف وداري بأرض الشآم ودارُك أرضٌ بوادي القرى
وبعدُ فلي أملٌ في اللقاء لأني وإياك فوق الثرى

وقد نسب إلى وادي القرى جماعة منهم : يحيى بن أبي عبيدة الوادي المتوفى سنة ٢٤٠ هـ [١] .

---

(١) معجم البلدان مادة (قرى) و (وادي القرى) مط صادر ودار بيروت .

قرية الفُرْع

ومن أشهر القرى القديمة التابعة للمدينة قرية الفُرْع . وقد اشتهرت بكثرة مياهها ونخيلها ، وهي على مسافة ثمانية برد من المدينة المنورة في طريق مكة ، وقد وصفت بالازدهار وجمال الطبيعة ، فقيل عنها انها قرية غناء . وهي قرية قديمة وغابة في القدم حتى لقد زعموا أنها كانت أول قرية مارَتْ اسماعيل وأُمَّه التمرَ بمكّة . وقال ابن الفقيه عنها :

فأما أعراض المدينة فأضخمها (الفُرع) ، ومن عيونها المشهورة عينان يقال لهما الربض ، والنجف ، وقيل انهما تسقيان عشرين ألف نخلة ! !

قرية قُبا

ومن القرى المشهورة القديمة التابعة للمدينة المنورة قرية (قُبا) ، والمعروف أن قبا اسم بئر عرفت به القرية ، وهي واقعة على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة كما يعينها ياقوت ، وقد أكسبتها صلاة النبي فيها شهرة واسعة ، وعن أبي سعيد الخدري رووا أنه لما صرفت القبلة الى الكعبة أتى رسول الله (ص) مسجد قباء ، فقدم جدار المسجد الى موضعه اليوم وأسسه ونقل رسول الله وأصحابه الحجارة لبنائه ، وكان الرسول يأتيه كل سبت ماشياً[1] .

ويقول أحمد بن يحيى بن جابر في رواية البشارى التي أوردها ياقوت : كان المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن نزلوا عليه من الأنصار بنوا بقباء مسجداً يصلون فيه الصلاة سنةً إلى البيت المقدس ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ ص ٩ مط لجنة الثقافة الإسلامية — القاهرة .

(قباء) صلى بهم فيه ، وان أهل قباء يقولون : إنه المسجد الذي أسّس على التقوى من أول يوم ، وقيل انه مسجد رسول الله .

وقد وُسّع مسجد قباء وكُبِّر بعد ، وقد أقام النبي لما هاجر بقباء يوم الاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، وركب يوم الجمعة يريد المدينة فجمّع في مسجد بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج فكانت أول جمعة جُمّعت في الإسلام[1] .

ويقول ياقوت : وبقبا أثر بنيان كثير — يريد في القرن السادس — وهناك مسجد التقوى عامر ، قدامه رصيف وفضاء حسن ، وآبار ومياه عذبة .

ومسجد قبا كما جاء في كتاب الاستبصار في القرن السادس أيضاً : أنه مسجد مربع طوله ٧٠ ذراعاً وعرضه كذلك ، ومقدمه ٣ بلاطات ومؤخره مع مجنبته سقيفة واحدة على أعمدة من خرز ملبسة بالجيار عددها ٤٣ عموداً وله ٣ أبواب بلا مصاريع ، وعلى ركن مؤخر المسجد مكتوب عن يسار من استقبل المحراب : « أن النبي صلعم دخل على أمّ أيمن وهي حزينة ، فقالت له ليس عندي ما أحجّ به ، فقال لها : صومي أيام العشر ثم ائتِ مسجد قُبا يوم عرفة فصلّي فيه ركعتين بثواب حجة » .

ومكتوب أيضاً : أن سعد بن أبي وقاص قال :

« لئن آتِ مسجد قُبا فأصلي فيه ركعتين أحبّ إليّ من أن أزور بيت المقدس مرتين ، ولو علم الناس ما في مسجد قبا لضربوا اليه آباط الأبل » .

وبيت سعد بن خيثمة الأنصاري الذي كان يقيم فيه النبي صلعم بين المسلمين وهو قريب من ركن المسجد الغربي ومن مقدم المسجد والشجرة

---

(١) معجم البلدان مادة (قبا) مط صادر ودار بيروت .

التي كانت تحتهـــا البيعة سقف ، و ذلك السقف هو جزع وهو مغطـــى بالألواح [١] .

ويقول ابن جبير : أن (قبا) كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة ، والطريق إليها كما يصفه في رحلته بين حدائق النخيل المتصلة ، والنخيل محدق بالمدينة من جهاتها ، وأعظمها جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة المغرب ، وفي مسجدها موضع مبرك ناقة النبي ، وفي قبلة المسجد دار لبني النجار وهي دار أبي أيوب الأنصاري .

وفي قرية قبا التي سماها ابن جبير بالمدينة : تلّ مشرف يعرف بعرفات يدخل على دار الصفّة حيث كان عمّار ، وسلمان ، وأصحابهما المعروفون بأهل الصفّة ، وأن آثار هذه القرية ومشاهدها كثيرة لا تحصى [٢] .

دومة الجندل

هي بضم الدال وبعضهم يلفظها بفتح الدال، قرية اعتبرها المؤرخون من أعمال المدينة وتوابعها ، وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين المدينة ، وفي تاريخها القديم أخبار لا يمكن الركون اليها لعدم وجود ما يستند اليه غير القصص والأخبار المتناقلة ، فقد روى ياقوت في معجمه أنها سميت باسم (دوم) بن اسماعيل . وقيل انه كان لاسماعيل ولد اسمه (دُماً) !! أما الشيء الثابت فهو ورود اسمها في الكتابات الأشورية وهو الدليل على قدمها .

ويقول ابن الكلبي في رواية ياقوت أيضاً : ان ابن اسماعيل هو دوماء

---

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الامصار لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ص ٤٢ — ٤٣ مط جامعة الاسكندرية بمصر .

(٢) رحلة ابن جبير ص ١٥٤ مط عبد الحميد أحمد حنفي بمصر (الغورية) .

وقال : ولما كثر ولد اسماعيل بتهامة خرج دوماء بن اسماعيل حتى نزل موضع (دومة) وبنى به حصناً فقيل دوماء ونسب الحصن له ! !

وفي حديث الواقدي : دوماء الجندل ، وهي قرية ذات نخيل ومزارع وفيها عين فوارة تسقي البساتين ، وإنما سميت بدومة الجندل لأن حصنها مبنيّ بالجندل — أي الصخور العظيمة .

وقال أبو عبيد السكوني : ان دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طي كانت به بنو كنانة من كلب . وعلى (دومة) سور يتحصن به . وفي داخل السور حصن منيع يقال له : (مارد) وهو حصن (أكيدر) الملك بن عبد الملك بن عبد الحي بن أعيا بن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن عفير وهو كندة السكون الكندي ! [١] .

والراجح هو أن دومة الجندل هذه قرية أو مدينة قديمة ومن أقدم قرى الجاهلية ، وأن الحصن الذي عرفت به حديث يرجع إلى عهد (اكيدر) الملك المسيحي الذي أسلم على عهد رسول الله (ص) ثم تمرّد ، وقيل انه كان متمرداً ثم أسلم . وقد احتل جيش الإسلام هذا الحصن ، ويقول لبيد وهو يصف بنات الدهر :

وأعصفنّ بالدوميّ من رأس حصنه وأنزلن بالأسباب ربّ المشقّر

يريد به (أكيدر) صاحب دومة الجندل [٢] فقد روي أن منزل (اكيدر) هذا كان بدومة الحيرة في العراق . وكان قومه يزورون أخوالهم من (كلب) وذات مرة كان (اكيدر) معهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا حيطانها وهي مبنية بالجندل فأعادوا

---

(١) معجم البلدان مادة (دومة) مط صادر ودار بيروت .
(٢) تاج العروس مادة (دوم) .

بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها (دومة الجندل) تفرقة بينها وبين (دومة الحيرة) وكان (اكيدر) يتردد بينها وبين دومة الحيرة، وقد ذهب البعض إلى أن التحكيم بين الإمام علي (ع) وبين معاوية كان بدومة الجندل [١].

قرية ينبع

على سبع مراحل من المدينة المنورة بين مكة والمدينة، كما جاء في مختلف الرحلات وعلى يمين (رضوى) لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر، وهي قرية كانت لبني الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) وهي كسائر القرى التابعة للمدينة والتي لم يعرف عن تاريخها الجاهلي شيء مضبوط، وتشمل قرية ينبع حصنا به نخيل وماء وزرع، وبها وقوف وقفها الإمام علي (ع) كان يتولاها ولده وقد عدّها بعض المؤرخين من أرض تهامة ولم يلحقها بالمدينة، وقيل إنما سميت بينبع لكثرة ينابيعها، وقال الشريف بن سلمة بن عياش الينبعي: عددت بها مائة وسبعين عيناً على ما ذكر ياقوت، وفي بعض الأخبار: أن النبي (ص) أقطع عمر ابن الخطاب (ض) ينبع وملكه إياها وهذا يناقض كونها من موقوفات الإمام علي (ع).

قرى أخرى

ومن أشهر قرى المدينة القديمة (زبالة الزج) وقرية (المال) وهي من أقدم قرى المدينة، وقد قال السمهودي عن (زبالة الزج): وكان بالمدينة في الجاهلية سوق بزبالة من الناحية التي تدعى يثرب وخيف العيون، وهي بالقرب من المدينة وفيها آثار بنايات متداعية قديمة على ما ذكر عبد القدوس الأنصاري، وغير هذه قرى أخرى طمست آثارها ومحيت أسماؤها كقرى (عُرينه) ومنازل (مزينة) وغيرها.

---

(١) المصدر المتقدم.

اشهر مواقـــع المدينة
واماكنها القديمة

حرة واقم

وهي الحرّة الواقعة شرقي المدينة . وتتقسم باعتبار المنازل القديمة إلى خمس مناطق متجاورة مرّ وصفها . منطقتين منها كانتا لليهود . وثلاث مناطق كانت للاوس من الأنصار .

حرّة الوبرة

وهي بضاحية المدينة الغربية وأقرب إلى المدينة بالنسبة لحرّة (واقم) وتمتاز حرّة (الوبرة) عن حرّة (واقم) بكثرة الهضاب والقلاع والمرتفعات والمنخفضات ، وبهذه الحرّة تقع إحدى ثنيات الوداع . وبطرفها الشمالي الشرقي منازل بني سلمة .

البقيع

أشهر موقع من مواقع المدينة . بل من أشهر مواقع الحجاز قاطبة ، وبقيع الغرقد هذا هو الذي ورد ذكره في مرثية عمرو بن النعمان البياضي لقومه وكانوا قد دخلوا في بعض حروبهم حديقة من حدائقهم وأغلقوا بابها عليهم – على ما يروون – ثم اقتتلوا فلم يفتح الباب الا بعد ان قتل بعضهم بعضاً !! فقال في ذلك :

خلَتِ الديارُ فَسُدتِ غيرَ مسوَّدِ ومن العناءِ تفرّدي بالسؤددِ
أين الذين عهدتُهم في غبطةٍ بين (العقيق) إلى بقيع الغرقدِ
كانت لهم أنهابُ كل قبيلةٍ وسلاحُ كل مُدرَّبٍ مستنجدِ
نفسي الفداءُ لفتيةٍ من عامرٍ شربوا المنيّة في مقام انكدِ
قومٌ هُمُ سفكوا دماءَ سُراتهم بعض ببعضٍ فعلَ من لم يرشدِ
يا للرجال لفتيةٍ من دهرهم تُرِكتْ منازلُهم كأن لم تعهدِ[1]

واتخذ البقيع مقبرة وسميت ببقيع الغرقد لأنها كانت مغطاة بالنباتات الشوكية المعروفة بالغرقد. أما كلمة البقيع فمعناها المكان المزروع بعدد من أنواع الشجر ولذلك سماها الرحالة السويسري (برخارت) (جنة البقيع).

وشهرة البقيع قد رافقته منذ آن أصبح مدفناً لعدد من عظماء المسلمين وأئمتهم وأعلام الأنصار والمهاجرين، وكان النبي (ص) يقصد البقيع يؤمّه كلما مات أحد من الصحابة ليصلي عليه ويحضر دفنه، وقد يزور البقيع في أوقات أخرى ليناجي الأموات من أصحابه ويطلب لهم الرحمة.

وقد روى مسلم في الصحيح عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كانت ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول:

«سلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

وحدث محمد بن عيسى عن خالد عن عوسجة قال: كنت أدعو ليلةً إلى زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي تلي باب الدار فمرّ بي جعفر ابن محمد (ع) فقال لي:

---

(١) مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٢٥ مط دار الكتب المصرية بالقاهرة.

– أعن أثر وقفت ها هنا ؟

قلت – : لا ...

قال – : هذا موقف نبي الله (ص) بالليل إذا جاء يستغفر لأهل البقيع [1] .

لذلك كبر شأن البقيع ، وكثر رواده بقصد الدعاء والاستغفار أو التسلية إذ أصبح ملتقى الجماعات وأشبه ما يكون با لمنتدى والمجلس العام لاجتماع الناس في أوقات فراغهم ، فقد روي أن عمر بن الخطاب (ض) أمر الذين يريدون أن يتحدثوا في أمور دنياهم في المسجد أن يخرجوا إلى البقيع ليتحدثوا هناك بشؤونهم الخاصة .

واتسعت رقعة البقيع وعظم شأنها حتى قيل أن عدد الذين دفنوا فيها من الصحابة كان عشرة آلاف صحابي [2] !!

والظاهر أن هذه المقبرة ظلت عامرة باضرحتها وأبنيتها الضخمة ، والقبب القائمة على مدافن المشاهير والأعلام حتى قيام الوهابية التي كان من مذهبها تسوية القبور بالأرض فسويت تلك الأضرحة والمدافن كضريح العباس بن عبد المطلب ، والسيدة فاطمة الزهراء (ع) وابراهيم بن النبي (ص) والخليفة عثمان بن عفان (ض) والإمام الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) وعدد كبير من التابعين أمثال نافع شيخ الإمام مالك ، ومن تابعي التابعين أمثال مالك إمام المدينة .

وعمر ابن جبير الرحالة في القرن السادس الهجري بالبقيع فيصف المقبرة وصفاً خلاصته : أن بقيع الغرقد واقع شرقي المدينة تخرج اليه على

---

(١) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار ص ٤٠٢ مط عيسى البابي الحلبي بمصر .

(٢) آثار المدينة المنورة ص ١٢٢ – عبد القدوس الأنصاري – وفي مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٢٥ مط دار الكتب بمصر ، وفي : في منزل الوحي ص ٥٢٣ .

باب يعرف بباب البقيع ، وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبي (ص) وهي أم الزبير بن العوام ، وأمام هذه التربة قبر مالك بن انس الإمام المدني (ض) وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء . وأمامه قبر السلالة الطاهرة : ابراهيم بن النبي (ص) وعليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب (ض) اسمه عبد الرحمن الأوسط وهو المعروف بأبي شحمة . وهو الذي جلده أبوه الحد فمرض ومات . وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب (ض) وعبد الله ابن جعفر الطيار (ض) وبازائهم روضة فيها أزواج النبي (ص) وبازائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي (ص) وتليها روضة العباس ابن عبد المطلب (ض) والحسن بن علي (ع) وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور وعن يمين الخارج منه . ورأس الحسن (ع) إلى رجلي العباس (ض) وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق ، مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل منظر ، وعلى هذا الشكل قبر ابراهيم مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق ، مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة ابن النبي (ص) ويلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت رسول الله (ص) ويعرف (ببيت الحزن [1]) يقال انه البيت الذي آوت اليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى (ص) ، وفي آخر البقيع قبر الخليفة عثمان (ض) وعليه قبة صغيرة مختصرة ، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب (ع) .

ثم يقول ابن جبير : ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار ، وعلى قبر فاطمة المذكورة — بنت أسد — مكتوب : « ما ضم قبر أحد كفاطمة

---

(١) ويسميه البعض ببيت الأحزان .

بنت أسد رضي الله عنها وعن بنيها [1] ».

ويمر ابن بطوطة بعد ابن جبير بما يقرب من ١٥٠ سنة بالبقيع فيصف البقيع وصفاً مطابقاً لوصف ابن جبير في تحديد هذه المشاهـــد والقبور والقبب والأضرحة [2] .

وعلى مرور الزمن نال البقيع بسبب الإهمال وعوادي الدهر ما ذهب بروعة هذه البقعة من الشجر والكثير من الأبنية والغالب أن هذه الإهمال قد لحق البقيع بعد القرن السابع الهجري . والغريب في الأمر أن يـــزور صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الامصار [3] في القرن السادس والبقيع على ما تنقل الروايات في ذلك العصر كان في ازهى أدواره فيقول عنه :

« بقيع المدينة من ناحية الشرق ، فأول ما تلقى إذا خرجت إلى البقيع :

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٥٣ وما بعدها مط عبد الحميد أحمد حنفي بمصر .

(٢) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٧٦ ط ١ مط الأزهرية بمصر .

(٣) كتاب حققه وعلق عليـــه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد مدرس التاريـــخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، وهو من منشورات هذه الكلية ومطبوعات جامعة الاسكندرية ، وقال محققه الدكتور سعد عن مؤلف الكتاب المجهول : إنه كاتب مراكشي من كتاب القـــرن السادس الهجري ، والذي يقرأ وصف البقيع إلى ما يقرب القرن الثامن الهجري عند الرحالة والمؤرخين يجد تبايناً كبيراً بين وصف البقيع عندهم ووصفه عند مؤلف هذا الكتاب من حيث خراب القبور واندراسها وتلاشي معالمها وتبعثر الجماجم والعظام بحيث يحار القارىء في كيفية التوفيق بين آراء أولئك وفي طليعتهم ابن النجار (القرن السابع) ورأي هذا الكاتب المراكشي صحيح أن ابن النجار ينفي وجود المعالم للقبور العامة في القرن السابع ولكنه لا يذكر شيئاً ولا بعض شيء مما ورد في كتاب الاستبصار المذكور إضافة إلى أنه يصف الروضات وصفاً تاماً ويعين مثلا روضة الإمام الحسن بن عـــلي (ع) والمدفونين في قبتـــه ، ويسهب في تعيين مواقع هذه الاضرحة ، فإذا صح ما روى الكاتب المراكشي في كتاب الاستبصار فيجب أن تكون هنالك حوادث وقتية حدثت فآلت إلى مثل ذلك الخراب الشامل والحرث الـــذي أخرج الجماجم والعظام وبعثرها ثم عاد البقيع بعد ذلك إلى ما كان عليه مما فاتنا نحن الوقوف على أخباره .

الخليلي

قبر مالك (ض) وهو قبر مهمل مبني بالحجر والطين ، مرتفع من الأرض نحو ٤ أشبار ، وعند رأسه حجر أدكن منقوش تاريخه من يوم مات ، ثم تسير منه قليلاً وقد بصقت القبور موتاها !! ورفضت الأرض جميع ما دفن فيها من صغير وكبير !! ولم يبق في بطنها منهم شيء إلا رفضته على وجهها . فلم يبق عضو من أعضائها ، ولا عظم من عظامها ولو كان مقدار خردلة إلا وخرج على الأرض من ناس أهل المدينة خاصة ! ! وترى البقيع شبه المقتلة من دفن قديم وحديث ، وجماجم الموتى باليـة قديمة ، وأخرى حديثة ، فهذا عبرة لمن اعتبر !! ثم تسير قليلاً فتلقى روضة العباس بن عبد المطلب (ض) ثم روضة ابراهيم ولد النبي عم ، ثم روضة عثمان بن عفان ، وروضات كثيرة [1] » .

وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي زار الحاج عبد الله بورخارت البقيع وقيل بل كان اسمه الحاج بوخارت ابراهيم فقال عنه ما ملخصه :

« في اليوم الذي يلي أداء الحاج واجباته للمسجد والحجرة ، تجري العا ة بذهابه الى مقبرة المدينة تكريماً لذكرى القديسين الكثيرين المدفونين بها ، وهي تجاور أسوار البلد على مقربة من باب الجمعة وتسمى (البقيع) صورتها مربع مكوّن من بضع مئات من الأذرع يحيط به جدار يتصل من الجنوب بضاحية المدينة ، وتحيط به من سائر نواحيه مزارع النخيل ، وهذا المكان حقير جداً بالنظر الى قداسة الأشخاص الذين يحتوي رفاتهم ، ولعله أشد المقابر قذارة وحقارة بالقياس الى مثله في أية مدينة شرقية في حجم (المدينة) فليس به ممر واحد حسن البناء ، كلا بل ليست به أحجار كبيرة عليها كتابة اتخذت غطاء للقبور ، إنما هي أكوام من تراب أحيطت بأحجار غير ثابتة [2] » .

---

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ص ٤٢ مط جامعة الاسكندرية .

(٢) راجع الأصل الانكليزي لجولات (برخارت) في بلاد العرب ج ٢ ص٢٢٢ وما بعدها — أخرجه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (في منزل الوحي) ص ٥١٦ مط دار الكتب المصرية .

وزيارة (برخارت) الحجاز كان بعد غزوة الوهابيين الذين سوّوا هذه القبور مع الأرض وحين عاد الأمر للعثمانيين بعد إجلاء الجيوش المصرية للوهابيين أعادوا بنـاء كثير من القباب وشادوها على صورة من الفن تتفق مع ذوق العصر ، وقد ذكر صاحب (مرآة الحرمين) هذه الأضرحة والقبب وصورها في كتابه ، وحين عاد الوهابيون الى الحجاز بعد أكثر من مائة سنة على حملتهم الأولى عادوا إلى هـدم تلك القبب والأضرحة وساووها بالأرض .

ويزور الدكتور محمد حسين هيكل البقيع بعد (برخارت) بما يقرب من **١٢٥** سنة فيقول انه لم يجد في البقيع بقية لبناء أو قبة على الأجداث مما حمل برخارت على أن يسمي هذا المكان (جنة البقيع) كذلك يقول إنه لم يجد بها أكواماً من التراب ولا حفراً ولا حثالة ، وإنما وجد قبوراً مسوّاة بالأرض يحيط بكل قبر منها أحجار صغيرة تُعلمُه ، فلولا أنك تعرف أن هذا المكان هو البقيع ، وأن به رفاتاً خلّف أصحابها على التاريخ أعظم الذكر ، ولولا هذه الأحجار المحيطة بكل قبر لخلتهـا – يقول هيكل – فضاء مسوّراً لا شيء فيه البتة [1] .

زغابه

وزغابة موضع قرب المدينة وفي آخر العقيق ، يصب فيه سيل العقيق ووادي قناة وبطحان ، وهي مجمع سيول المدينة ؛ وفيها وقعت المعركة بين النبي وقريش ، فصارت لها شهرة أكبر ، وفي الحديث على ما روى الراوون : أن أعرابياً أهدى للنبي ناقة فكافأه النبي بستّ نياق فاستقلها الأعرابي ولم يقبل بها !! فقال النبي : ألا تعجبون لهذا الأعرابي وقد أهدى لي ناقتي التي أعرفها والتي ذهبت مني يوم (زغابة) فكافأته بستّ وسخط ولم يرض !؟

---

(١) المصدر المتقدم ص ٥١٧ .



الرحالة بوخارت يزور العتبات وهو في زي التنكر

النقا وحاجر

النقا وحاجر موضعان متجاوران متلاصقان قديماً طالما تغنى بهما الشعراء وكلاهما في ناحية المدينة على أن هناك من يعين كل واحد منهما في جهة أخرى بعيدة والراجح أن الأسماء مشتركة وقد جاء في رسالة الطيف للاربلي ذكر لحاجر في الشعر لعل المقصود به حاجر المدينة :

أهلاً وسهلاً بك من مؤنسٍ ينظر عن طرف الطلا النافرِ
أهلاً وسهلاً بكَ من زائرٍ يُخجل نورَ القمرِ الزاهرِ

إلى أن يقول :

وعيشة دلّتْ على حاجرٍ جاد الحيا السكب ربا حاجر [1]

وجاء ذكر (النقا) عند أبي عبادة البحتري من قصيدة يمدح بها أباالصقر.

ولما التقينا والنقا موعدٌ لنا تعجب رائي الدّرِ منا ولاقطهْ
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديثِ تُساقطُهْ

هذا إذا كان المقصود بالنقا نقا المدينة

المنحنى

والمنحنى كما أورد السمهودي: اسم لما يقع شرقي وادي بطحان إلى مسجد المصلّى وقد ذكر السمهودي للاستدلال على موقع المنحنى ببيتين للشيخ شمس الدين الذهبي هما :

تولّى شبابي كأنْ لم يكنْ وأقبلَ شيبٌ علينا تولّي
ومن عاين المُنحنى والنقا فما بعد هذين إلا المُصلّى [2]

---

(١) رسالة الطف للاربلي تحقيق عبد الله الجبوري ص ١٠٣ مط دار الجمهورية ببغداد.
(٢) آثار المدينة المنورة ص ١١٨ ط ٢ مط دار الكتاب العربي بمصر.

حُطم الضحيان

ومن أشهر حصون المدينة ومواقعها في العصر الجاهلي هو حصن (الضحيان) وهو مشيّد بحجارة الحرّة السوداء يبلغ طوله نحو ٢٧ متراً وعرضه ١٢ متراً وارتفاعه نحو ثمانية أمتار على تحقيق الأنصاري ، ولم يبق منه إلا خرائب وأطلال ، يقع شمالي العصبة وهو أطم بناه أحيحة ابن الجُلاّح في أرضه التي يقال لها القُبابة [١] .

حصن كعب بن الأشرف النبهاني

وهو حصن قائم على هضبة من الحرّة الجنوبية الشرقية للمدينة على ما ذكر الأنصاري وتبلغ مساحته ٣٣ متراً في ٣٣ متراً ولم يبق من ارتفاع أسواره اليوم إلا ما يساوي ٤ أمتار ، وهو بناء حربي محصن وكونه الحصن الخاص بكعب بن الأشرف النبهاني هو من تحقيق الأنصاري .

سقيفة بني ساعدة

سقيفة بني ساعدة بناية اختلف المؤرخون في موقعها ، ويرى السمهودي أنها بالقرب من بئر بضاعة وهي شبه البهو الواسع الطويل السقف وكانت لبني ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري من أيام الجاهلية ، وقصة هذه السقيفة مشهورة في التاريخ الإسلامي فقد جلس فيها النبي (ص) على ما روي ثم اجتمع فيها الأنصار من الاوس والخزرج ليبايعوا سعد ابن عبادة رئيس الخزرج خليفة للنبي بعد وفاته [٢] ولكن الأمر تبدل لميل الأوس إلى جانب المهاجرين وتمت حينذاك بيعة أبي بكر بالخلافة في السقيفة المذكورة وقتل سعد بن أبي عبادة وزعموا أن الجن هم الذين قتلوه ! !

---

(١) معجم البلدان مادة (ضحيان) .

(٢) السقيفة ص ٦٨ مط الزهراء – النجف الأشرف .

وكسبت السقيفة منذ ذلك اليوم شهرة لمـا جرى من اختلاف بسبب هذا الاجتماع وبسبب الخلافة .

ثنيّة الوداع

ومن الأماكن المشهورة في المدينة قديماً : ثنيّة الوداع ، وهي موقعان على ما حققه الأنصاري ، موقع في شمال المدينة في اتجاه الشام ، وموقع في جنوب المدينة باتجاه مكة ، وكان يجري في كل موقع توديع المسافرين المتجهين إلى الشام والمتجهين إلى مكة فسمي الموقعان باسم واحد ، وفي سبب تسمية الموقع بثنيّة الوداع اختلاف كبير ، ويقول ياقوت : إن الصحيح هو أنه اسم جاهلي قديم أطلق على هذا الموقع بناء على ما كان يجري فيه من توديع المسافرين من المدينة .

ومن ثنية جنوب المدينة استقبل النبي (ص) لأول مرة بنشيد الصبايا المشهور على ما يروون وهو :

طلـعَ البـدرُ علينا مـن ثنيات الـوداع
وجبَ الشكرُ عَلينـا ما دعـا لله داع

سوق المدينة
وسوق بني قينقاع

وسوق المدينة ، وسوق بني قينقاع هما الآخران من أشهر مواقع المدينة قديماً ، وكان يجري في هذين السوقين البيـع والشراء وعرض المحصولات ، وفي الرواية : أن النبي (ص) لما أراد أن يجعل للمدينة سوقاً اتى سوق بني قينقاع ، ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله وقال : « هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج » .

أهم مصادر البحث

١ ـ القرآن الكريم
٢ ـ البيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي
٣ ـ تاريخ اليعقوبي
٤ ـ مروج الذهب للمسعودي
٥ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبري
٦ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير
٧ ـ آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني
٨ ـ الدرة الثمينة في تاريخ المدينة لابن النجار
٩ ـ أخبار مكة للأزرقي
١٠ ـ كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار
١١ ـ مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول
١٢ ـ تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان
١٣ ـ معجم البلدان للحموي
١٤ ـ دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي
١٥ ـ الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتانوني
١٦ ـ مرآة الحرمين
١٧ ـ في منزل الوحي للدكتور هيكل
١٨ ـ في بلاد الرافدين لليدي دراور

١٩ ــ رحلة ابن جبير
٢٠ ــ رحلة ابن بطوطة
٢١ ــ جولات برخارت السويسري
٢٢ ــ بلوغ الارب للالوسي
٢٣ ــ البداية والنهاية لعماد الدين أبي الفداء
٢٤ ــ المدخل لابن الحاج
٢٥ ــ خمسون ومائة صحابي مختلق للسيد العسكري
٢٦ ــ الطبقات الكبرى لابن سعد
٢٧ ــ آثار المدينة المنورة للأنصاري
٢٨ ــ محمد رسول الله لمحمد رضا
٢٩ ــ لسان العرب
٣٠ ــ تاج العروس
٣١ ــ أمالي القالي
٣٢ ــ التنبيه على أمالي القالي
٣٣ ــ القاموس للفيروز آبادي
٣٤ ــ رسالة الطيف للأربلي تحقيق عبد الله الجبوري
٣٥ ــ السقيفة للشيخ محمد رضا المظفر
٣٦ ــ التمور العراقية قديماً وحديثاً
٣٧ ــ شجرة العذراء
٣٨ ــ مجمع الأمثال للميداني
٣٩ ــ الدكتور جواد علي
٤٠ ــ جغرافية العالم الاقليمية (مؤسسة فرنكلين)

المدينة المنورة

في الشعر

جمعه ونسقه
حسب الحروف الهجائية

فؤاد عباس
من خريجي الجامعة الأميركية ببيروت
والمفتش الاختصاصي
في وزارة التربية العراقية



أبو بكر العيدي أو العيذي*

قال من قصيدة ابتدأ فيها بوصف مكة والبيت الحرام ومواقفها العظام و (يثرب) مدينة النبي عليه السلام ، ويتشوّق أهلها ويذكر كرمها وفضلها .

ومنها :

لي بالحجازِ غرامٌ لستُ أدفعُهُ ... ينقادُ قلبي له طوعاً ويتبعُهُ
يهزّني البرقُ (مكّياً) تبسّمُهُ ... إذا تراءى (حجازياً) تطلّعُه

ومنها :

وفي ربى (يثرب) غاياتُ كلّ هوىً ... يجلّ عن موقعِ الأشواق موقعُهُ
أفقُ الشريعةِ والإسلام طالعةً ... شموسُه مَسْتَجاشُ النصر مُتْبَعُهُ
حيث النبوّةُ مضروبٌ سُرادقُها ... والفضلُ شامخُ طودِ الفخر أفرُعُه
وحيث كان طريقُ الوحي متّضِحاً ... بين السماء وبين الأرض مَهْيَعُهُ
وخاتمُ الأنبياء المصطفى شرفاً ... محمدٌ باهر الأشواق مضجعُهُ
صلّى الالهُ عليه ما تكرّر بالصّ ... لاة فرضُ مُصَلٍّ أو تطوُّعُه
وللشفاعة أبوابٌ مفتّحةٌ ... مشفَّعٌ مَنْ بمغناها تَشَفُّعُه

(*) هذه المجموعة الشعرية التي جمعها الأستاذ فؤاد عباس من مختلف المصادر هي كالمجموعات الأخرى في أجزاء موسوعة العتبات المقدسة لم تجمع بناء على اختيار الجيد أو الاحاطة بكل ما قيل في المدينة وإنما هي نماذج موجزة مختلفة، لنواحي متعددة، في أزمنه متعددة بقصد الاطلاع وتكوين فكرة عن المدينة المنورة في الشعر ليس إلا
الخليلي

محلُّ قدسٍ وتشريف يُجَرُّ بِـه ... ذيلُ الجمال على ذي المال يدفعـه
يشبّ نيرانَ أشواقي غليلُ هـوىً ... اليه ليس سوى مرآه ُ يَنْقَعُـه
ويستمدّ حنيني كـلُّ منحنا ... منه وعامرُهُ الزاكي وبلقعُـه
(عقيقُه)و(قُباهُ)و(البقيعُ) وما ... يحدّ (أُحُدٌ) لمن في الله مصرعُـه
مُستَنْزَلُ الفوز والغفران مَهبطُـه ... وملتقى كل رضوانٍ ومجمعُـه
أحبّه وأحبُّ النـازلـينَ بـه ... وما تضـمُّ نواحيه وأربُعُـه
طبعاً جُبِلْتُ عليه في الغرام بـه ... وأين من طبع من يهوى تَطَبُّعُه[1] !

الأعشى (ميمون بن قيس بن جندل)

يروى أنّه مدح الرسول (ص) بهذه القصيدة وتصدّت له قريش في الطريق واقنعه رجالها بالرجوع الى أهله بعد أن جمعوا له مائة من الابل. ولما رجع رمى به بعيره في الطريق فقتله.

ألم تغتمضْ عيناكَ ليلةَ أرمـدا ... وبتَّ كما بات السليمُ مسهّـدا
إلا أيّهذا السائـلي أين يمّمتْ ... فان لها في أهل (يثربَ) موعـدا
وآليتُ لا أرثي لها من كلالـةٍ ... ولا من وجىً حتى تلاقي (محمّداً)
متى ما تُناخي عند باب (ابن هاشم) ... تُراحي وتَلْقَيْ من فواضله ندى[2]

امرؤ القيس[3]

تبصّر خليلي هل ترى من ضعـائنٍ ... سوالك نَقباً بين حَزمَيْ شَعَبْعَبِ[4]
عَلَوْنَ بانطاكيّـة فوق عِقْمةٍ ... كجِرْمةِ نخلٍ أو كجنّة (يثرب)[5]

---

(١) خريدة القصر (قسم شعراء الشام) ص: ٣/١٨٤ – ١٨٦ – دمشق ١٩٦٤.
(٢) الصبح المنير في شعر أبي بصير: ص ١١٢ – طبعة فينا ١٩٢٧.
(٣) ديوان امرىء القيس – ص ٤٣ – طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٨.
(٤) الضعائن: النساء في الهوادج.
الحزم: ما غلظ من الأرض. شعبعب: اسم ماء.
(٥) عقمة: نوع من الوشي. جرمة نخل: ما يقطع من عذوق البسر.

البرجمي[١]

فمن يك أمسى (بالمدينة) رحلُـهُ فإنّي وقيّارٌ[٢] بها لَغريبُ

بعض الأفاضل

نظم أسماء (المدينة المنوّرة) بقوله : ٣

خذ جملةً يا صاح من أسماءِ مدينةِ الهادي من الأسواءِ
(محمد) نبينا المشرّفِ الهاشمي المصطفى البرّ الوفي
فطيبةٌ، طيّبةٌ، وطابهْ وطائبٌ، تُعرفُ بالاطابهْ
حبيبةٌ، بيت الرسولِ، والحرمْ وحرمُ الرسولِ، فاحفظ ماانتظمْ
ودار الايمانِ، ودار السنّةِ ودار فتح، مع دار الهجرةِ
دار السلامةِ، ودار الأبرارْ ودار الأخيارِ، لنفي الأشرارْ
حسنةٌ، مختارةٌ، مرزوقةٌ مؤمنةٌ، مسكينةٌ، محفوظةٌ
مدخلُ صدقٍ، قبّةُ الاسلامِ شافيةٌ من جملة الآلامِ
أكّالةُ القرى، مع المقدّسهْ ونُورها بورك مَنْ قد قبسَهْ
من نورِ أسماء (مكان المصطفى) نظمٌ به أرجو مواردَ الصفا

جرير[٤]

لقد علم الحيُّ المصبّح أننا متى ما يُقَلْ يا لَلفوارس نركبِ
إذا رمت في حيّيْ خُزيمة عِزّنا سما كُلُّ صريفِ السنانين مُصْعَبِ
ألم تر قومي (بالمدينة) منهم ومن ينزل (البطحاء) عند (المحصّبِ)
فوارسنا من صُلب (قيس) كأنهم إذا بارزوا حرباً أسِنّةُ صُلّبِ

---

(١) نور القبس (مختصر) للمرزباني – ص : ١١٢ المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٦٤.
(٢) وقيار هذا اسم حمار البرجمي الذي هو الآخر لم يجد من يحنو عليه .
(٣) بلوغ الارب : الالوسي – الطبعة الثالثة – ١/١٨٨ – ١٨٩ .
(٤) ديوانه : ص : ٢٠ – ٢١ – شرح محمد اسماعيل الصاوي – مصر. سنة ١٣٥٣ هـ .

وقال يهجو التيم[1]

قـال الأمير لعبد تـيم بشمـا | أبليتَ عند مـواطن الأحساب
ولقد خرجت من (المدينة) آفـلاً | خَرِعَ القنـاة مدنَّس الأثواب
يا تَيْمُ إن بيوتكـم تيميّـةٌ | قُفُدُ العماد قصيرة الأطناب[2]
قومٌ إذا حضر الملوكَ وفودُهـم | نُتِفَتْ شواربهـم على الأبواب

جورج صيدح[3]

في مولد النبي محمد (ص)

لا يعجـزُ اللهُ الـذي | إن قالَ كنْ للشيءِ كـانْ
أمـرَ الرمـالَ فاطلعتْ | صحراءُ يـثربَ أقحـوان
للرسلِ آيـاتٌ ، وهذا | الطفـلُ آيتُـه البيـانْ
الروحُ يُملي مـا يـتر | جمـه ، ونعـم الترجمان
بالضـادِ آذنَ ربُّـه | فتخلـدتْ لغـةُ الأذان
يا صاحبيَّ : بـأي آلاء | الرسـولِ تكـذّبـان

حسان بن ثابت[4]

قال في قتل عمرو بن عبدودّ بسيف علي (ع) :

أمسى الفتى عمرو بن عبدٍ يبتغي | بجنوب (يثرب) غارةً لم تنظرِ
ولقد وجدتَ سيوفنـا مشهورةً | ولقد وجدتَ جيادَنا لم تقصـرِ
ولقد رأيتَ غداةَ بدرٍ عُصبةً | ضربوك ضرباً غيرَ ضرب الحُسَّرِ
أصبحتَ لا تُدعَى ليوم عظيمـةٍ | يا عمرو أو لجسيم أمـرٍ مُنكـرِ

---

(١) المصدر السابق : ص : ٥٥ .
(٢) القفد — القصيرة المسترخية .
(٣) الأدب العربي المعاصر في سوريا ص ٢٧٧ .
(٤) من محفوظ كاتب هذا الفصل ولا يتذكر مصدرها .

وقال حسان يرثي النبي (ص)[1]

ما بال عينك لا تنام كأنما   كحلت مآقيها بكحل الارمد
جزعاً على المهدي أصبح ثاوياً   يا خير من وطئ الثرى لا تبعد
وجهي يقيك الترب لهفاً ليتني   غيبت قبلك في (بقيع الغرقد)
بأبي وأمي من شهدت وفاته   في يوم الاثنين النبي المهتدي
فظللت بعد وفاته متبلداً   متلدداً يا ليتني لم أولد
أأقيم بعدك (بالمدينة) بينهم   يا ليتني صبحت سم الأسود

السيد حيدر الحلي[2]

قال من قصيدة مهنئاً بها الحاج محمد صالح كبه بقدوم ولديه محمد رضا والحاج مصطفى من الحج.

ثم لما أكملا الحج معا   ودعا (مكة) فيمن ودعا
وإلى (يثرب) منها ازمعا   قصد من ألبس فخراً (يثربا)
وحباها شرف الذكر وأما (كذا)   وبه فاق سناها الشهبا
فاشتهت تغدولها الشهب رغاما

ونحا كل ضريح المصطفى   ناشقاً طيب ثراه عرفا
وبه طاف ومنه عطفا   نحو مغنى (المرتضى) مرتغبا
لسواه عنه لا يلوي الزماما   فقضى من حقهما ما وجبا
وأتى (الكرخ) فحيا وأقاما

(١) مختارات من الشعر العربي - نولدكه - ص: ٧٣. طبع فيسبادن (ألمانيا) سنة ١٩٣٣.

(٢) ديوانه (العقد اليتيم والدر النظيم) طبعة حجرية - الهند - لم تذكر سنة الطبع. ص: ٣٥٧.

سعيد بن العاص[1]

كتب إلى عبد الأعلى بن عبد الله ومحمد بن صفوان الجمحي يذكّرهما طيب (العقيق) و (العرصتين) في أيام الربيع .

ألا قل لعبد الله إمّا لقيتَه ... وقل لابن صفوان على القرب والبعد
ألم تعلما أن (المصلّى) مكانه ... وأن (العقيق) ذو الاراك وذو المردِ
وأن رياض (العرصتين) تزيّنت ... بنوّارِها المصفّرِ والاشكل الفردِ
وأن بها لو تعلمان أصائلاً ... وليلاً رقيقاً مثل حاشية البردِ
فهل منكما مستأنس فمسلّم ... على وطنٍ أو زائرٌ لذوي الودِّ؟!

فأجابه عبد الأعلى :

أتاني كتابٌ من سعيدٍ فشاقني ... وزادَ غرامَ القلبِ جهداً على جهدِ
واذرى دموعَ العين حتى كأنها ... بها رمدٌ عنه المراودُ لا تجدي
فان رياض (العرصتين) تزيّنت ... وأن (المصلّى) و(البلاط) على العهدِ
وأن غديرَ (اللابتين) ونبته ... له أرجٌ كالمسك أو عنبر الهندِ [2]

شاعر[3]

عينُ جودي على عبيلٍ وهل يُرْ ... جِعُ ما فات فيضُها بالسجام
عمّروا (يثرباً) وليس بها شُفْرٌ ... ولا صارخٌ ولا ذو سنام
غرسوا لينَها بمجرى معَينٍ ... ثم حفّوا النخيلَ بالآجام [4]

---

(١) مرآة الحرمين – ١/٤٣٦ . مطبعة دار الكتب (القاهرة) سنة ١٩٢٥ .
(٢) ما بين الأقواس أسماء بعض معالم المدينة المنورة .
(٣) نور القبس (مختصر) للمرزباني – ص : ٢٦٢ .
المطبعة الكاثوليكية (بيروت) سنة ١٩٦٤
(٤) لينها : نخلها .

شاعر مدني

و(بالعرصة البيضاء) اذ زرتُ أهلَها ... مهاً مهملات ما عليهن سائس
خرجنَ لحبّ اللهو من غير ريبة ... عفائف باغي اللهو منهنّ آيسُ
يردن إذا ما الشمس لم يُخشَ حرُّها ... خلال بساتين خلاهنّ يابسُ
إذا الحَرُّ آذاهنّ لذنَ بحجرة ... كما لاذ بالظلّ الظباءُ الكوانسُ

الشريف الرضيّ

قال من قصيدة وهو في مدينة الرسول (ص) وذلك في المحرّم سنة ٣٩٤ هـ [٢]

وما كنت أدري الحب حين تعرّضت ... عيونُ ظباء (بالمدينة) عين
فوالله ما أدري الغداةَ رميننَا ... عن النبع، أم عن أعيُنٍ وجفون[٣] !
بكلّ حشاً منا رميّةُ نابلٍ ... قويٍّ على الاحشاء غير أمينِ
فررت بطرفي من سهام لحاظها ... وهل تُتَلَقّى أسهمٌ بعيونِ !!
فيا بانتيَّ بطن (العقيق) سُقيتما ... بماء الغوادي بعد ماء شؤونِ
أحبّكما والمستجَنَّ (بطيبة) ... محبة ذخرٍ باتَ عند ضنينِ

* * *

وقال أيضاً وهي من لواحق الحجازيّات[٤]

يا رفيقيَّ قفا نضويْكُما ... بين أعلام (النقا) و (المنحنى)
وانشدا قلبي فقد ضيّعته ... باختياري بين (جمعٍ) و (منى)

---

(١) مرآة الحرمين ص ٤٣٦/١ مطبعة دار الكتب (القاهرة سنة ١٩٢٥).
(٢) ديوانه : ٨٩٨/٢ . طبعة بيروت سنة ١٣٠٩ هـ.
(٣) النبع – شجر يستعمل للقسي وللرماح.
(٤) ديوانه : ٨٩٩/٢ .

عارضا السرب فان كان فتىً — بالعيون النُجل يقضي فأنا
إنّ من شاطَ على الحاظها — ضعفُ من شاط على طول القنا[١]
تجرح الأعينُ فيذا والطلى — قاتل اللهُ الطُلى والأعينا
ثمّ كانت (بقُباءٍ) وقفةٌ — ضَمنت للشوق قلباً ضَمِنا[٢]
وحديثٌ كان من لذته — (أُحُدٌ) يُصغي الينا أذنا[٣]

الشريف المرتضى

قال مفتخراً من قصيدة[٤]

هل لياليَّ بالمنقّى رجوع — مثلما كنّ لي ونحن جميعُ
إذ قناتي محتدّة وشفيعي — من شبابي إلى الحسان شفيعُ
ساحباً (بالبقيع) من نشواتي — فضلَ ثوبي إذ البقيعُ بقيعُ
وطنٌ طاب جوُّه وثراه — فكأن المصيفَ فيه ربيعُ

عبد السلام بن يوسف[٥]

قال يتشوق العقيق وساكنيه :

على ساكني بطن (العقيق) سلام — وإن أسهروني بالفراق وناموا
حظرتم عليّ النوم وهو محرّم — وحللتم التعذيب وهو حرامُ
إذا بنتم عن (حاجز) وحجرتم — على السمع أن يدنو إليه كلامُ
فلا ميّلتْ ريحُ الصبا فرعَ بانة — ولا سجعت فوق الغصون حمامُ
ولا قهقهتْ فيه الرعودُ ولا بكى — على حافتيه بالعشيّ غمامُ

---

(١) شاط – هلك .
(٢) الضمن – العاشق .
(٣) أحد – الجبل المشهور قرب المدينة المنورة .
(٤) ديوانه – ص ٢٠١/٢ – مصر سنة ١٩٥٨ .
(٥) مرآة الحرمين – ص ٤٣٨/١ – مطبعة دار الكتب (القاهرة) سنة ١٩٢٥ .

ألا ليت شعري هل إلى الرمل عودةٌ   وهل لي بتلك البانتين لِمَامُ ؟؟
وهل نهلةٌ من (بئر عروة) عذبةٌ   أداوي بها قلباً براه أوامُ *

عبد الله بن قيس (الرقيّات)[1]

إن الحوادث (بالمدينة) قد   أوجعنني وقرعن مَرْوَتِيَهْ
وجَبَبْنَنِي جبَّ السنام فلم   يتركن ريشاً في مناكِبِيَهْ
تبكيهمُ أسماءُ مُعْوِلَةً   وتقول ليلى : وارَزِيَّتِيَهْ

علي بن حجر[2]

هنيئاً لكم يا زائرين ضريحه   أمنتم به يوم المعاد من الرجسِ
وصلتم إلى قبر الحبيب (بطَيْبة)   فطوبى لمن يُضحي (بطيبةَ) أو يمسي

عمرو بن النعمان البياضي[3]

يرثي قومه :

خَلَتِ الديارُ فسدتُ غير مُسوَّد   ومن العناء تفرّدي بالسُّودَدِ
أين الذين عهدتُهم في غبطة   بين (العقيق) إلى (بقيع الغرقد)
كانت لهم أنهابُ كلّ قبيلة   وسلاحُ كلّ مدرَّب مستنجد
نفسي الفداءُ لفتيةٍ من عامرٍ   شربوا المنيّة في مقام انكدِ
قوم هُمُ سفكوا دماءَ سراتِهم   بعضٌ ببعضٍ فِعْلَ مَن لم يَرشُدِ

---

* العقيق وبئر عروة : من معالم المدينة .

(١) نور القبس – للمرزباني – ص : ٣٤ – تحقيق رودلف زلهايم . المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٦٤ .

(٢) رحلة ابن بطوطة . ص : ١٢٧ – طبعة بيروت سنة ١٩٦٤ .

(٣) معجم البلدان (بقيع الغرقد) ص : ٧٠٣/١ طبعة ليبسك سنة ١٨٦٦ .

الفرزدق [1]

حين مدح الفرزدق الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) بقصيدته: (هذا الذي تعرف البطحاء وطأته) حبسه هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي في (عسفان) وهو موضع بين مكة والمدينة فهجا الفرزدق هشاماً وكان هشاماً أحول العين بقوله:

أيحبسني بين المدينة والتي ... اليها قلوبُ الناس يهوى مُنيبُها
يقلّب رأساً لم يكن رأس سيّدٍ ... وعيناً له حولاء بادٍ عيوبها

الكميت بن زيد الأسدي

قال في إحدى هاشمياته في آل البيت النبوي (ع) [2]

أسرةُ الصادق الحديث أبي القا ... سم فرعُ القُدامس القُدّامِ
خير حيّ وميّت من بني آدم ... طرّاً مأمومهم والامامِ
أبطحيّ بمكة استثقبَ اللهُ ... ضياءَ العمى به والظلامِ
وإلى (يثرب) التحوّل عنها ... لمُقامٍ من غير دار مُقامِ
هجرةٌ حوّلت إلى الأوس والخزرج ... أهل الفسيل والآطامِ

وقال أيضاً [3]

وأنت أمين الله في الناس كلّهم ... علينا وفيها اختار شرقٌ ومغربُ
فبوركتَ مولوداً وبوركتَ ناشئاً ... وبوركتَ عند الشيب إذ أنت أشيبُ
وبوركَ قبرٌ أنت فيه وبوركتْ ... به وله أهلٌ لذلك (يثرب)
لقد غيّبوا براً وصدقاً ونائلاً ... عشيّة واراك الصفيح المنصّب

---

(١) الأغاني — ج ١٩ — أخبار الفرزدق: في طبعات مختلفة.
(٢) شرح الهاشميات: ص ٢١ — ٢٩ — مصر سنة ١٩١٢.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦ — ٥٥.

ومنها :

إذا ما قضت من أهل (يثرب) موعداً فمكّةُ من أوطانِهـا والمحصّبُ

وقال أيضاً [١] :

طربتَ وهل بك من مطربِ ولم تتَصابَ ولـم تلعبِ
وشجوٌ لنفسي لـم أنسَهُ بمعـتركِ الطف فـالمجتبي
كأن خدودَهم الواضحات بـين المجرّ إلى المَسحبِ
صفائح بيض جلتها القُيونُ ممّا تُخيـِّرْنَ في (يثربِ)

الشيخ محسن الخضري [٢]

قال راثياً العلامة الكبير السيد مهدي القزويني المتوفى في الطريق عند قفوله من الحجاز .

ما حجّ إذ حجّ نحو البيت عن سعةٍ أنّى وقد عالَ بالأنثى وبالرجلِ !
فرحّب البيت لمّا حلّ ساحتَهُ أو ضاقَ رحباً بذاك العارض الهملِ
حتى إذا ساقه الأدنى لـه رحمـاً وآذنت جمرات الشوق في شعلِ
جلى فآنس نور الله ملتمعـاً من أرض (طيبة) مثوى سيدِ الرسلِ
من (يثربٍ) جاءت البشرى بمقدمه لسهل (لينةَ) ممتـداً إلى الجبلِ
فيا لها فرحة ما كان اطولهـا لو لم تطأها وشيطاً فدحةُ الأجلِ

وقال من موشّح [٣]:

سل أهيلَ الود لمـا احتملوا في ظلام الليل عن وادي السلامْ
أترى هل أدركوا ما أمّلوا بحمى (طيبة) و(البيتِ الحرامْ)؟

---

(١) المصدر السابق — ص ٧٧ — ٨٠ .
(٢) ديوانه — ص : ٥٨ — ٦٠ — النجف سنة ١٩٤٧ .
(٣) ديوانه : جمع الشيخ عبد الغني الخضري : ص : ١٣٨ .

أم تراهم بلغوا ما أمّلــوا بالدعا بين المصلّى والمقامْ
شكر اللهُ مساعيهــم كما أخلصوا لله ذلَّ الموقفِ
شُخَّصاً أبصارهم نحو السما بخشوعٍ ودموع ذرّفِ

وقال [1] :

أمحــدثي عمــا رآه بمكّــة و (بطيبة) ومن الحجاز إلى الغريِ
وسواك لو يقضي جميعَ زمانه بين المشاعر خالته لم يشعرِ
حتى كأنّك قد رأيت ولـم يكنْ أحدٌ سواك بمسمــع وبمنظرِ

محمد ناجي القشطيني

من قصيدة (ما وراء الحجب)[2]

أيها النشء ادركوا أوطانكــم فهي حيرى بيــد المغتصبِ
فإذا بالسلم لم ترجعْ لكــم فأعيدوهــا بحدّ القضب
واغسلوا العار بسيلٍ من دمٍ فهو لم يُغْسَلْ بماء السحبِ
وأعيدوا هيبــةَ الله لهــا وجلالَ المصطفى من (يثرب)

* * *

وقال من قصيدة عنوانها (ابوالزهراء)[3]

الحق أبلجُ وضّاح إلى الأبــد كالصبح يسطع لا يخفى على أحد
وان تُرِدْ مثلاً أعلى لتضرب به للحق غير أبي الزهراء لم تجدِ
طوبى (ليثرب) في طــه وعترته ولتبقَ (يثرب) طول الدهر في رغد
ضمّتْ جلال رسول الله واتّحدتْ بآيــة منــه والبشرى لمتحــدِ

---

(١) ديوانه : ص ١٥٨ .
(٢) ديوانه (اللهفات) ص : ١٤ – مطبعة شفيق (بغداد) سنة ١٩٦٨ .
(٣) المصدر السابق . ص : ١٦ – ١٨ .

مهيار الديلمي[١]

سل في الغضا – وصبا الاصائل تنفحُ : هل ريح (طيبةَ) في الذي يُستَروَح ؟
وهـل النوى – وقضاؤها متمرّدٌ تركت برامـة بانـةً تـترنّح ؟
أهـل (القباب) ومن بهم لمصفّدٍ بالبعد أتلـع بالعراق وأبطحوا

* * *

وكتب إلى الصاحب ابن عبد الرحيم من قصيدة : [٢]

أصبَوا إلى (طيبةَ) من بـابلٍ ما أقرب الشوق وما أبعدا ! !
يا فارسَ (الغيداء) يبغي (مِنىً) بلّغْ – بَلَغْتَ – الرشأ الاغيـدا
يا حبذا الذكرى وان أسهرَتْ بعدك والدمـع وإن أرمـدا

وقال من قصيدة في رثاء الشريف الرضي ، معرّضاً بمن كان يحسد الشريف الرضي ويزيد في غيظهم [٣]

أقريش لا لفمٍ أراك ولا يـد فتواكلي غاضَ النّدَى وخلا النّدِي
خلا لكَ ذو الحسبين انقاضاً متى تُجذَبْ على حبلِ المذلّة تَنقَد

ومنها :

مَنْ راكبٌ يسع الهمومَ فـؤادُه وتُناط منـه بقارح متعـوّد
يطوي المياه على الظمـا وكأنـه عنها يضلّ ، وانّـه لَلْمُهتدي
يغشى الوهاد بمثلها مـن مهبط وربا الهضاب بمثلها من مَصْعَد
قرّبْ قَرُبْتَ من التلاع فإنهـا (أم المناسك) مثلها لم يُقصَـد
دأباً به حتى تُريحَ (بيثرب) فتُنيخَه نقْضاً بباب المسجدِ
واحثُ الترابَ على شحوبك حاسراً وانزل فَعَزِّ (محمداً) (بمحمد)

---

(١) ديوانه ص : ٢١٣/١ – مطبعة دار الكتب – القاهرة سنة ١٩٢٥ .
(٢) ديوانه ص : ٢٤٣/١ .
(٣) ديوانه : ص ٢٤٩ – ٢٥١ .

وقل : انطوى حتى كأنك لم تلدْ   منه الهدى وكأنه لـــم يولـــدَ

نائلة بنت الفرافصة [١]

قالت تخاطب أخاها ضبّة حين حُملت إلى عثمان بن عفان من الكوفة.

أحقاً تراه اليوم يا (ضبُّ) أنني   مصاحبةٌ نحو (المدينة) أركبـــا
لقد كان في فتيان حِصن بن ضمضمٍ   لك الويل ما يجزي الخباءَ المحجّبا
قضى الله حقاً أن تموتي غريبـــة   (بيثرب) لا تلقَين أمّاً ولا أبا

هاشم الكعبي [٢]

قال من قصيدة في رثاء الحسين (ع)

عُج بي إذا جئت غربيّ الحمى وبدتْ   منـــه لمقلتك الأعـــلام والقببُ
وحيّ عني الألى اقمارُهم طلعتْ   من (طيبةٍ) ولدى (كربِ البلا) غربوا
فاعجبْ لهم كيف حلّوا (كربلاءَ) وكم   كانت بهم تُفرّجُ الغمّاء والكربُ ! !
فأين تلك البدور التُـــمّ لاغربـــوا   وأين تلك البحور الغُمْم لانضبوا !

وقال من قصيدة :

منى القلب أن تدنو (منىً) و (المحصّب)   وللركب قصدٌ دون ذاك ومـــأرب
خليليّ عوجا بي على الربع عوجةً   عسى يشتفي فيها السقيم المعذّب
تقولان قصد العيس (جمعٌ) و (يثربٌ)   صدقتم وهذا الربع جمعٌ ويثربُ
ولا تعجبـــا مما يحاولُ مـــدنفٌ   فأمركمـــا في اللوم أدهى وأعجبُ

---

(١) معجم البلدان (يثرب) طبعة ليبزك سنة ١٨٦٩ .
(٢) ديوان الكعبي – تحقيق السيد محمد حسن آل الطالقاني . النجف سنة ١٩٦٤ .
(٣) المصدر السابق – ص : ٣ .

هجرة الرسول
الى المدينة المنورة

كتبـــه

الدكتور حسين امين

استاذ التاريخ الاسلامي المساعد
بجامعة بغداد

والحائز على درجة دكتوراه الشرف الاولى
من جامعة الاسكندرية



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هجرة الرسول الى المدينة

يعتبر موضوع الهجرة النبوية من أهم المواضيع التاريخية الإسلامية ، ذلك لأن الإسلام بعد الهجرة انطلق انطلاقاً واسعاً وأضحى المسلمون أمام مسؤوليات جديدة ، وراحوا يقيمون دعائم البناء الإسلامي بروح عالية مفعمة بالإيمان الصادق ومشبعة بالتعاون الكبير .

ولا بد للباحث حين يتقصى تلك الحادثة الخطيرة من تاريخ المسلمين أن يتعرف على بواعثها ومقدماتها ويقف على ما جابهه المسلمون من مخاطر وآلام .

ومن المعروف أن المشركين في مكة أنزلوا اضطهاداً وعذاباً بالمسلمين ، وصمد المسلمون أمام ذلك الاضطهاد الكبير فقتل من قتل ولحق التعذيب بالكثيرين منهم ، فرأى الرسول (ص) أن ينقذ المسلمين من ذلك الأذى والاضطهاد ، فأذن (ص) لأصحابه الكرام أن يهاجروا إلى الحبشة[1] .

وهنا يعترضنا سؤال ، لماذا اختار الرسول (ص) الحبشة مكاناً لهجرة أصحابه المسلمين ؟ والذي نرجحه هو أن الرسول (ص) اختار هذا المكان لأسباب سياسية أو دينية ، فالرسول (ص) لم يؤيد الرأي القائل بالهجرة إلى اليمن مثلاً ، ذلك لأن اليمن كانت تحت النفوذ الفارسي ، فالاستقرار السياسي لم يتوفر فيها كما أن هناك تأثيرات وثنية ومجوسية نتيجة النفوذ الفارسي هناك ، كذلك يمكن تطبيق هذا القول على العراق ،

أما الشام فبالإضافة إلى القلق السياسي ، فإن قريش لها علاقات تجارية مع بلاد الشام وبإمكانها إقلاق المسلمين وتأليب الحكام والمتنفذين عليهم هناك. فاختيار الحبشة كان أمراً منطقياً وسليماً ، فالبلاد هناك مستقرة سياسياً ونجاشي الحبشة من الذين عرفوا بالحكمة والرزانة يومذاك والحبشة وإن فصلها عن الحجاز بحر ، فإنها قريبة إذا ما أراد المسلمون الانتقال إليها أو العودة منها ، ثم إن ما يحمل المسلمون من مبادىء إنسانية سامية واحترام للدين المسيحي ما يطمئن الرسول (ص) على أصحابه في بلاد الحبشة.

وهناك أسباب وعوامل حملت الرسول بالإذن لأصحابه الكرام في الهجرة إلى الحبشة ، ومن تلك العوامل أن يتخلص المسلمون من الأذى الشديد المستمر الذي يلاقونه من الفئة المشركة ، وأن يجد المسلمون رزقاً لهم في بلاد الحبشة بعد أن سدت أمامهم أبواب الكسب الحلال في مكة ، وقد يكون الرسول (ص) رأى من الضروري إبعاد الجماعة الإسلامية من الجو المشحون بالحقد والعنف والاضطهاد الحاصل في مكة ، بقصد تقوية الروح المعنوية لتلك الجماعة وحتى لا تشعر بالضعف والخور من توالي شدة الضربات ، أو أنه أراد أن تكون هذه الجماعة المهاجرة إلى الحبشة رصيداً يعتمد عليه في المستقبل[٢].

وهاجر إلى الحبشة أحد عشر رجلاً وأربع نساءوهم :

عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ومعه أمرأته رُقية بنت رسول الله (ص) ، وأبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ابن عمرو ، والزبيري العوام بن خويلد بن أسد ، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سَلمَة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ومعه امرأته أم سَلمَة بنت أبي أمية بن المغيرة. وعثمان بن مظعون ، وعامر ابن ربيعة ، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة ، وأبو سبرة بن أبي رُهْم بن عبد العزى ،

وسهيل بن بيضاء وجعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عُميس

ومكثوا هناك ثلاثة أشهر وتناقلت إليهم بعض الأخبار التي تشير إلى أن المشركين عدلوا عن إيذاء المسلمين ، فعاد معظم هؤلاء المهاجرين إلى مكة ، فلما بلغوها وجدوا قريشاً ما زالت مستمرة في صب أذاها على المسلمين بشكل أشد ، فعاد المسلمون بهجرة ثانية إلى الحبشة في ثمانين رجلاً غير نسائهم وأطفالهم ، وظلوا هناك حتى استتب الأمر للمسلمين في المدينة (يثرب) وفي السنة السابعة للهجرة عاد جميعهم على ظهر سفينتين [٣].

والذين هاجروا إلى الحبشة في هجرتهم الثانية من المسلمين هم :

جعفر بن أبي طالب ومعه زوجته أسماء بنت عُميس ، وعثمان بن عفان ومعه امرأته رقية ابنة رسول الله (ص) ، وعمرو بن سعيد بن العاص ابن أمية ومعه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية ، وخالد بن سعد بن العاص بن أمية ومعه امرأته أمينة بنت خلف بن أسعد بن عامر ، وعبد الله بن جحش وأخوه عبيد الله بن جحش ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية ، وقيس بن عبد الله ومعه امرأته بَرَكة بنت يسار ، ومعيقب بن أبي فاطمة . وأبو خديعة ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وأبو موسى الأشعري واسمه عبد الله ابن قيس . وعتبة بن غزوان ابن جابر ، والزبير بن العوام ، والأسود ابن نوفل بن خويلد بن أسد ، ويزيد بن زمعه بن الأسود بن المطلب ، وعمرو بن أمية بن الحارث ، وطليب بن عمير ، ومصعب بن عمير بن هاشم ، وسويبط بن سعد بن حرملة ، وجهم بن قيس بن عبد شرحبيل ، ومعه امرأته أم حرملة ، وعمرو بن جهم بن قيس وخزيمة بن جهم بن قيس ، وأبو الروم بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعامر ابن أبي وقاص ، وأبو وقاص مالك بن أهيب ، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف ، ومعه امرأته رملة بنت أبي عوف . وعبد الله بن مسعود بن الحارث ، وأخوه

عتبة بن مسعود ، والمقداد بن عمرو بن ثعلبة ، والحارث بن خالد بن صخر بن عامر ومعه امرأته رَبْطة بنت الحارث ، وعمرو بن عثمان بن كعب ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية ، وشماس بن عثمان بن الشريد ، وهبّار بن سفيان وهشام بن أبي حذيفة ، وسلمة بن هشام بن المغيرة ، وعيّاش بن أبي ربيعة ، ومُعتّب بن عوف ، وعثمان بن مظعون وابنه السائب بن عثمان وأخواه قدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون ، وحاطب بن الحارث ، ومعه امرأته فاطمة بنت المجلّل ابن عبد الله ، وابناه محمد بن حاطب والحارث بن حاطب ، وأخوه حطّاب بن الحارث ، ومعه امرأته فُكيهة بنت يسار ، وسفيان بن معمر ابن حبيب ، ومعه ابناه جابر بن سفيان وجُنادة بن سفيان ، ومعه امرأته حَسنة وهي أمهما ، وأخوهما من أمهما شُرَحْبيل بن حَسنة . وعثمان ابن ربيعة ، وخُنيس بن حذافة بن قيس وعبد الله بن الحارث بن قيس ، وهشام بن العاص ، وقيس بن حذافة بن قيس ، وأبو قيس بن الحارث ابن قيس ، وعبد الله بن حذافة بن قيس ، والحارث بن الحارث بن قيس ، ومعمر بن الحارث بن قيس ، وبشر بن الحارث بن قيس وأخ له من أمه من بني تميم يقال له سعيد بن عمرو ، وسعيد بن الحارث ابن قيس ، والسائب بن الحارس ، وعمير بن رئاب بن حذيفة ، ومحمية بن الجزاء . ومعمر بن عبد الله بن نضلة بن عبد العزى ، وعروة بن عبد العزى ، وعدي بن نضلة بن عبد العزى وابنه النعمان بن عدي ، وعامر بن ربيعة ومعه امرأته ، ليلى بنت أبي حثمة بن غانم . وأبو سبرة بن أبي رُهم ومعه امرأته أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو ، وعبد الله بن مخرمة ، وعبد الله ابن سهيل بن عمرو ، وسليط ابن عمرو بن عبد شمس ، وأخوه السكران ابن عمرو ومعه امرأته سودة بنت زمعه ، ومالك بن زمعة ومعه امرأته عمرة بنت السعدي بن وقدان ، وحاطب بن عمرو ، وسعد بن خولة ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وسهيل بن بيضاء ، وعمرو بن أبي سرح بن

ربيعة ، وعياض بن زهير بن أبي شداد ، وعمرو بن الحارث بن زهير بن أبي شداد ، وعثمان بن عبد غَنْم بن زهير ، وسعد بن عبد قيس بن لقيط ، والحارث ابن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أمية .

وحاولت قريش أن توغر صدر النجاشي ضد المسلمين المهاجرين : فأرسلت برجلين من زعمائها ومعهما هدايا ثمينة ، هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وقالا للملك الحبشي : (أيها الملك أنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من أبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه[4]) . وقدما للملك ولرجاله الهدايا ، ولكن الملك الحبشي أبى أن يعيد المسلمين إلاّ بعد أن يسمع كلامهم ، فاستدعاهم ؛ فجاؤوا لمقابلة الملك ، فسألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فأجاب الملك رجلٌ من المسلمين الأولين وبطل من أبطالهم المشهورين ، وكان لجوابه أثر كبير في نفس النجاشي وأتباعه ، وكانت كلمته صورة واضحة لحالة العرب قبل ظهور محمد (ص) ، لقد وقف جعفر ابن أبي طالب وقال : —

« أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ، ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفحشاء وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ،

فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك[٥] » .

كانت لتلك الكلمات الحقة الرائعة أثرها الكبير في يقظة الضمير وانقداح الفكر ، وتأكد لملك الحبشة ورجاله صدق هؤلاء المؤمنين المسلمين وأن ما يحملون من مبادىء وأفكار لا تختلف عن مبادىء وأفكار السيد المسيح ، فامتنع النجاشي من تلبية طلب القرشيين ورجع رسولا قريش يجرّون أذيال الخيبة والفشل ، وانتصر الإسلام والمسلمون في هذه الجولة ، واطمأن المؤمنون في الحبشة ينعمون بالأمن والحرية حتى عادوا إلى أوطانهم بمحض إرادتهم وبرغبتهم كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

واستمر المشركون في أذى المسلمين ، ولاقى الرسول (ص) ما لاقى من صنوف العذاب والاضطهاد ، وقد ضرب الرسول العظيم وصحبه الكرام أمثلة عالية في الثبات على المبدأ ، ولما وجد المشركون هذا الصمود العظيم والثبات الكبير ، ساورهم شعور بخطورة الأمر وأن محمداً (ص) سوف يقوى جانبه يوماً بعد يوم ، فاتصلوا بعمه أبي طالب ، وطلبوا منه التوسط لدى ابن أخيه ، ليكف عن الدعوة إلى الإسلام ، وعرض المشركون عليه عروضاً مغرية ، ولكن الرسول (ص) وقف بصلابة المؤمن ، قائلاً : — « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركتُ هذا الأمر حتى يظهره الله . أو أهلك دونه[٦] » .

ولما يئست قريش من إغراء محمد (ص) بالمال والسلطان ، اتبعت أسلوباً جديداً ، أعلنت فيه مقاطعة بني هاشم مقاطعة كاملة ، فلا يؤاكلونهم ولا يشاربونهم ولا يبايعونهم ، ولا يناكحونهم ، ولا يكلمونهم حتى

ينبذوا محمداً والمسلمين ، ولكي يؤكدوا على أنفسهم قداسة هذا العهد الذي اتخذوه على أنفسهم ، وضعوا – الصحيفة – التي كتبوا فيها بنود القطيعة في جوف الكعبة[٧] ، وقاسى المسلمون في هذه الفترة أذىً شديداً ، وضرب أبو طالب عم النبي الكريم (ص) اسمى مثل للوفاء كما كان موقف السيدة خديجة زوج النبي (ص) عظيماً وجليلاً ، وفي هذه الفترة توفي أبو طالب والسيدة خديجة[٨] ، وبذلك يكون الرسول (ص) قد فقد أعظم نصيرين له ، وكان لهذه الحادثة أثرها الكبير في نفس الرسول (ص) فقد فقد عمه الحنون ومن بذل له الحماية والعون وفقد زوجته الرؤوف وشريكة حياته الوفية ، مَنْ بذلت له الإخلاص والحب والوفاء صافياً نقياً ، وكانت والحق أحب نسائه واولهن اسلاما واشدهن ايمانا .

وهكذا استمر الاضطهاد الكبير وانصب العذاب الشديد على المسلمين الأولين الذين ثبتوا على معتقدهم ثبات المؤمنين الصامدين ، عندئذ فكّر الرسول لدعوته في مناخ آخر غير مناخ مكة وفي أناس آخرين غير أهل مكة من المشركين ، فتوجه إلى الطائف[٩] يلتمس من قبيلة ثقيف النصرة ويرجو إسلامهم ، ولكنهم جابهوه بعنف لم يكن يتوقعه ، وبأذى شديد لم يكن يحسبه ، فعاد إلى مكة ، ومن هنا بدأ الرسول (ص) يفكر في عرض فكرته على القبائل ، خاصة تلك التي تفد على مكة في موسم الحج ، فاتصل (ص) برهط من بني كلب وبرهط من بني حنيفة وبرهط من بني عامر[١٠] ، ولكنهم لم يتجاوبوا مع دعوة الرسول (ص) ولكن الرسول (ص) لم ييأس واستمر في عرض نفسه على الوافدين إلى مكة من القبائل المختلفة .

اللقاءات الأولى مع أهل المدينة

وبدأت تباشير النجاح في حدود سنة ٦٢١ م ، فقد قدم مكة ، أبو الحَيْسر أنس بن رافع ومعه فتيةٌ من بني الأشهل فيهم إياس بن معاذ ،

يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج [١١]، فسمع بهم رسول الله (ص) فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: – هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: – وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب. وذكر لهم (ص) الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم، هذا والله خيرٌ مما جئتم له. بينما أخذ أبو الحيسر، أنس بن رافع، حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه اياس بن معاذ، وقال: دَعْنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا. فصمت اياس ابن معاذ، وقام الرسول (ص) عنهم وانصرفوا إلى المدينة [١٢]. ويبدو أن الإسلام قد دخل قلب اياس بن معاذ، وذكر ابن هشام في سيرته عن محمود بن لبَيد قال: أخبرني من حضره من قومه عند موته: أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبِّره ويحمِّده ويسبِّحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه قد مات مسلماً، وأنه قد كان استشعر الاسلام في ذلك اللقاء مع الرسول الكريم (ص) [١٣].

والتقى الرسول (ص) بنفر من الخزرج، قال ابن اسحاق، حدثني عاصم ابن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه. قالوا: لما لقيهم رسول الله (ص) قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فلما كلَّم الرسول (ص) أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تَعَلَّموا والله إنه لَلنَّبي الذي توعَّدكم به يهود فلا تسبِقُنَّكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمَعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فنَدْعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين،

فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا[١٤] .

كان هذا من الانتصارات الرائعة في نشر الفكرة ، وكان ذلك اللقاء فاتحة خير في نجاح الدعوة وبث مبادئها السامية بين العرب من أهل يثرب والحق ليعتبر ذلك اللقاء مفتاح الهجرة العظيمة وباكورة اللقاءات الطيبة ذات النتائج المفيدة للإسلام وللجماعة الإسلامية ، فقد أصبح للمسلمين أعوان يؤمنون بالمبادىء الإسلامية في يثرب ينشرون الفكرة بصدق وإخلاص ويعملون على ترسيخ المبادىء النبيلة في نفوس أهليهم وأبناء عشيرتهم ، ويعرّفون الناس بالدعوة الجديدة ، منهم النواة الأولى والوحدات الأساسية في تلك المدينة التي ستشهد عما قريب أعظم حدث في التاريخ الإسلامي ، حادثة الهجرة النبوية وتأسيس الدولة الإسلامية فيها .

بيعة العقبة الأولى

بعد ذلك اللقاء المهم وبعد أن حلّ العام الجديد وجاء موعد الحج أتى الموسم اثنا عشر رجلاً من أهل يثرب ، فالتقوا بالرسول محمد (ص) بالعقبة ، وهؤلاء الرجال هم : — أسعد بن زرارة بن عُدَس بن عُبيد ابن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار وعوف ومعاذ ، ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النجار ، ورافع بن مالك ابن العجلان وذكوان بن عبد قيس وعبادة بن الصامت ابن قيس بن أصرم ، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خزْمة بن أصرم ، والعباس ابن عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان ، وعقبة بن عامر بن نابي بن زيد ابن حَرام ، وقُطْبة بن عامر بن حديدة بن عمرو بن غنم بن سواد . وأبو الهيثم بن التَّيِّهان ، وعويم بن ساعدة[١٥] .

وبايع أولئك الرجال الرسول (ص) على أن لا يشرك أحدهم بالله شيئاً ولا يسرق ولا يزني ولا يقتل أولاده ولا يأتي ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ولا يعصيه في معروف ، فإن وفي ذلك فله الجنة ، وان غشي من

ذلك شيئاً فأمره إلى الله ، إن شاء عذّب وإن شاء غفر ، [١٦] ... ولما انصرف القوم بعث رسول الله (ص) معهم الصحابي الجليل مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار بن قصي ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة : مُصعَبْ وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عُدَس[١٧] .

وأخذت المبادىء الإسلامية في الانتشار بيثرب واعتنق الكثير من الاوس والخزرج الدين الإسلامي ، وقد أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وكان لإسلامهما أثر كبير في نشر الدعوة الجديدة ، وقصة إسلامهما من طرائف تاريخ الدعوة الإسلامية . قال ابن اسحاق : وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم : أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عُمير ، يريد دار بني عبد الأشهل ، ودار بني ظفر ، وكان سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن خالة أسعد بن زرارة ، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر[١٨] .

قال ابن هشام : واسم ظفر ، كعب بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الاوس قالا : على بئر يقال لها : بئر مرق ، فجلسا في الحائط ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم ، وسعد بن معاذ وأسيد بن حُضير ، يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، فلما سمعا به ، قال سعدُ بن معاذ لأسيد بن حُضير : لا أبا لك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَيْنا ، ليسفها ضُعفاءنا ، فازجرهما وانهَهُما عن أن يأتيا دارَيْنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت ، كفيتك ذلك ، هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مقدّماً ، قال : ــ فأخذ أسيد بن حضير حَرْبته ، ثم أقبل اليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب بن عمير : هذا سيّد قومه قد جاءك ، فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه . قال : فوقف عليهما وقال : ما جاء بكما

إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أوَ تجلس فتسمعَ ، فإن رضيت أمراً قبلتَه ، وإن كرهتَه كُفّ عنك ما تكره؟ قال : أنصفتَ ، ثم ركَز حربته وجلس إليهما ، فكلّمه مُصعَبُ بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتُسهّله ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأجملَه ، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له : تغتسل فتَتَطَّهر وتُطّهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي . فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهّد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن ، سعد بن معاذ ، ثم أخـذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً ، قال : أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي ، قال له سعد : ما فعلت؟ قال : كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتُهما ، فقالا : نفعل ما احببتَ ، وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد ابن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك* . فقام سعد بن معاذ مغضباً مبادراً ، تخوّفاً للذي ذُكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة من يده ، ثم قال والله ما أراك اغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعدٌ مطمئنين ، عرف سعدٌ أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما ، ثم قال لأسيد بن زُرارة : — يا أبا أُمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ، ما رُمْتَ هذا مني ، أتغشانا في دارينا بما نكره؟ وقال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير : أي مصعب ، جاءك والله سيّد مَنْ وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ،

(*) ليخفروك : والاخفار نقض العهد والغدر . وفي سائر الاصول ليحقروك .

فقال له مصعب : أوَ تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قَبِلتَه ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره . قال سعد : أنصفتَ . ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلامَ ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهّله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ، قالا : تغتسل فتَتطهّر وتطهّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، قال : فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حُضير[19] .

ولما رآه قومه مقبلاً ، قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام ، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله[20] . فدخل جميع من في دار بني عبد الأشهل من رجال ونساء في الإسلام ، ورجع أسعد ومصعب بن عمير إلى دار أسعد بن زرارة ، وأقام عنده يدعو إلى الدين الجديد وأنتشر الإسلام بشكل كبير واعتنقته معظم الاوس والخزرج .

بيعة العقبة الثانية

كانت بيعة العقبة الأولى في حدود سنة ٦٢١ م[21]،وفي الموسم الأخير ، خرج من الأنصار ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، والتقوا بالرسول (ص) بالعقبة ، وبايع أولئك القادمون من يثرب الرسول (ص) بيعة عرفت في التاريخ الإسلامي ببيعة العقبة الثانية[22] ، وقد أبانت بنود البيعة ما تحلى أولئك الرجال من صدق في العزيمة ورغبة في تقبل المبادىء الجديدة واندفاع في حماية الأهداف النبيلة والذود عن الرسول الكريم (ص) ، ويتجلى ذلك بوضوح في كلمة الصحابي الجليل البراء بن معرور الذي

كان في مقدمة أهل يثرب في بيعتهم الرسول عند العقبة ، قال البراء يخاطب الرسول محمداً في ايمان كبير وصدق عظيم : والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعنا يا رسولَ الله ، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقه ورثناها كابراً عن كابر[٢٣] .

ومدّ القوم أيديهم ، وبسط الرسول (ص) يده فبايعوه على أن يحموه كما يحمون أهلهم وعلى أن يحاربوا الأسود والأحمر في سبيله ، فلما فرغوا من البيعة قال لهم النبي (ص) أخرجوا لي منكم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء . فاختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فقال الرسول (ص) لهؤلاء النقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي[٢٤] .

أثر العلاقات بين المسلمين وأهل يثرب في مكة

وانتشر خبر هذه البيعة الكبيرة في مكة بشكل سريع وحسبت مكة لها حساباً كبيراً وراعها أمر تلك العلاقة المتطورة بين الرسول (ص) وأهل يثرب وتحققت من خطورة الأمر والعاقبة الفادحة . فأخذت في تدبير المؤامرات للتخلص من شخص محمد (ص) وعملت على تشديد الرقابة والعذاب بالمسلمين ، وأخذ بعض المسلمين في الهجرة إلى يثرب خلاصاً بدينه وابتعاداً عن ذلك الأذى والاضطهاد ، وضرب المسلمون أسمى درجات التضحية ، فتركوا أهليهم وأراضيهم ومواطن ذكرياتهم إلى بلد آخر في سبيل الدعوة الإسلامية وثباتاً على العقيدة السامية .

وتفاقم الأمر حدة وصارت قريش تضيق الخناق وتكيل للمسلمين الأذى . واجتمع زعماؤها في دار الندوة يتشاورون على ضرورة التخلص من محمد بن عبد الله (ص) بأي ثمن وبأية وسيلة ، وأخيراً قرروا أن يختاروا من كل قبيلة شاباً جلداً ويحملون سيوفهم ويضربون محمداً ضربة رجل واحد في ليلة معينة وفي وقت محدد ، ولكن الله عز وجل . نصر

نبيه العظيم وأعز الإسلام بفشل المشركين ونجاة النبي الأمين[٢٥] في تلك الليلة طلب النبي (ص) من ابن عمه الامام علي (ع) أن ينام في فراشه ليوهم قريشاً أنه محمد، وطلب من صديقه أبي بكر (رض) أن يصحبه في الخروج إلى يثرب، فخرج الرسول (ص) وأبو بكر (رض) ونام علي بن أبي طالب (ع) في فراش النبي وكانت تضحية عالية وكان فداء كبيراً[٢٦].

يوم الهجرة

مضى رسول الله (ص) ولما يزل المتآمرون ينتظرون في بابه، وقال قائلٌ لهم ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً. قال خبتم وخسرتم، قد والله مرّ بكم وذرّ على رؤوسكم التراب، قالوا والله ما أبصرناه وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم وهم أبو جهل، والحكم بن أبي العاص، وعُقبة بن أُبي مُعَيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وابن الغيطلة، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونُبيه ومنبه ابنا الحجاج، فلما أصبحوا قام علي عن الفراش فسألوه عن رسول الله (ص) فقال: لا علم لي به، وصار رسول الله (ص) إلى منزل أبي بكر، فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه. وكان الرسول وأبو بكر قد استأجرا عبد الله بن أريقط من بني الديل بن بكر وكان مشركاً يدلهما على الطريق، ولم يعلم بخروج رسول الله (ص) غير أبي بكر وعلي وآل أبي بكر وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمّع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلاً وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يأتيهما بها ليلاً وكانت أسمـــاء بنت أبي بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما في الغار ثلاثاً[٢٧].

وغار ثور، غار في جبل ثور بأسفل مكة، وكان عبد الله بن أبي بكر إذا غدا من عندهما اتبـــع أثره بالغنم حتى يعفي أثره، فلما مضت

الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما ببعيريهما فأخذ رسول الله أحدهما بالثمن وركبه ، وقيل هي ناقته اشتراها أبو بكر من نعم بني قشير بثمانمائة درهم واشتراها منه رسول الله (ص) لتكون هجرته من مال نفسه ، وبقيت الناقة إلى زمن أبي بكر ، فماتت وهي مرسلة ترعى في البقيع . وركب الرسول ، وركب أبو بكر ، وسارا وأردف أبو بكر مولاه عامر ابن فهيرة يخدمهما في الطريق فساروا ليلتهم ومن الغد إلى الظهر ، ورأوا في الطريق صخرة طويلة فسوى أبو بكر عندها مكاناً ليقيل فيه الرسول (ص) وليستظل بظلها ، فنام رسول الله (ص) وحرسه أبو بكر حتى رحلوا بعد ما زالت الشمس[٢٨] .

إن قريش قام قائمها في مكة وأرسلت العيون إلى كل مكان يتتبعون الآثار ويتقصون الأخبار ، وجعلت قريش لمن يأتي بالنبي (ص) مائة ناقة[٢٩] ، فدفع الطمع من المشركين فتتبع أثر الرسول ، ذلك المشرك هو سراقة بن مالك بن جُعشُم المدلجي ، فلحقهم وهم في أرض صلبة فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أدركنا الطلب فقال (ص) : (لا تحزن إن الله معنا) وكبا جواد سراقة بن مالك بن جُعشُم كبوة عنيفة ، وكان قد كبا قبلها كبوتين ، فوقع من ظهر جواده يتدحرج في سلاحه ، وتطيّر سراقة وأُلقي في روعه أن الآلهة مانعة منه ضالته ، وأنه معرض نفسه لخطر داهم إذا هو همّ مرة رابعة لإنفاذ محاولته . هنالك وقف ونادى القوم : أنا سراقة ابن جُعشُم . أنظروني أكلمكم ، فوالله لا أُريبكم ولا يأتيكم منّي شيء تكرهونه . فلما وقفا ينظرانه طلب إلى محمد (ص) أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه . وكتب أبو بكر بأمر النبي كتاباً على عظم أو خزف القاه إلى سراقة ، أخذه وعاد أدراجه ، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجر العظيم بعد أن كان هو يطارده[٣٠] .

طريق الهجرة

يبدو أن الفصل الذي كانت فيه هجرة الرسول (ص) كان فصل الصيف، وأن الرسول وصاحبه قطعا بطون تهامة في قيظ محرق تتلظى له رمال الصحراء، فقد خرج بهما دليلهما عبد الله بن أريقط وسلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، وعُسفان على بعد ستة وثلاثين ميلاً من مكة وهي حَدّ تهامة. ثم سلك بهما على أسفل أمبح وهي بلد من أعراض المدينة، قال الشاعر[٣١]:

ولستُ أنسى مسيرنا ظُهراً حين حللنا بالسفح من أمبحِ

ثم استجاز بهما، حتى عارض بهما الطريق، بعد أن أجاز قُديداً وقديد هي من أعمال مكة، قال عبيد الله بن قيس الرقيات[٣٢]: —

قل لقند تشيّـع الأضعانا وبما سّرّ عيشنــا وكفانا
صادرات عشيةً عن قُديد واردات مع الضحى عُسفانا

ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخَرّار، والخرار موضع بالحجاز قرب الجحفة وقيل: أول واد من أودية المدينة. ثم سلك بهما ثنيّة المرة، وهو موضع ماء، ثم سلك بهما لِفتا، وهي ثنيّة بين مكة والمدينة، قال معقل بن خويلد الهُذلي[٣٣]:

نزيعاً مُحْلِباً من آل لَفْت لحيّ بين أثْلـة والنَّحام

ثم أجاز بهما مَدْلجة لِقْف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح ذكــر الزبير بن بكار في مجاح؛ —[٣٤] من قول محمد بن عُروة بن الزبير:

لعن الله بطن لَقْف مَسيـلا ومَجاحاً وما أحب مجاحا
لقت ناقتي بــه وبلقف بلداً مجدباً وأرضاً شحاحا

ثم تبطن بهما مَرْجح من ذي العَضَوَين ، قال قيس بن مكشوح لعمرو ابن معد يكرب[٣٥] :

وأعمامي فوارس يوم لَحْـج   ومَرْجح ان شكوت ويوم شام

ثم أجاز بهما إلى ذى كشر ، وهو موقع بين مكة والمدينة ، ثم أخذ بهما على الجَداجد ثم على الأجرد ثم سلك بهما ذا سلم ، وسلم واد مشهور في الحجاز ، ثم على العبابيد ، ثم أجاز بهما القاحّة ، والقاحة مدينة على بعد ثلاث مراحل من المدينة ، ثم هبط بهما العَرْج وهي عقبة بين مكة والمدينة ، ثم خرج بهما من العرج فسلك بهما ثنيّة العائر ، وهو جبل بالمدينة ، ثم هبط بهما بطن رئم ، وهو واد لمزينة قرب المدينة ، قال كثير[٣٦] :

عرفت الدار قد أقوت برئم   إلى لأي فمدفع ذي يدوم

ثم قدم بهما قباء ، على بني عمرو بن عوف ، وهي قرية قرب المدينة على بعد ميلين منها على يسار القاصد إلى مكة ، وفيها مسجد التقوى .

وكان أهل المدينة ينتظرون بفارغ الصبر قدوم النبي (ص) ، قال عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة ، حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : لما سمعنا بمخرج رسول الله (ص) من مكة توكفنا قدومه (أي استشعرناه وانتظرناه) ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح ، إلى ظاهر حرّتنا ننتظر رسول الله (ص) ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلاً دخلنا ، وذلك في أيام حارة . حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله (ص) ، جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظلّ دخلنا بيوتنا ، وقدم رسول الله (ص) حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجلٌ من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع ، وأنّا ننتظر قدوم رسول الله (ص) ، فصرخ بأعلى صوته : يا بني قَيْلة (بنو قيلة هم الأنصار) ، هذا جَدُّكم قد جاء .

قال : فخرجنا إلى رسول الله (ص) وهو في ظل نخلة ، ومعه أبو بكر (رضي) في مثل سنّه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله (ص) قبل ذلك ، وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله (ص) ، فقام أبو بكر ، فأظلّه بردائه ، فعرفنا عند ذلك[٣٧] .

الرسول في قباء

أقام الرسول بقباء مدة خمسة أيام فقد وصلها يوم الاثنين لأثني عشر من شهر ربيع الأول ، ونزل رسول الله (ص) بقباء على كلثوم ابن هِدْم ، أخي بني عمرو بن عوف ، وكان شيخاً كبيراً ، وهو أول من مات من الأنصار بعد قدوم الرسول (ص) ثم مات بعده أسعد بن زرارة بأيام وكان كلثوم يكنى أبا قيس[٣٨] . وقيل أن الرسول نزل على سعد بن خيثمة ، ويبدو أن الرسول (ص) كان إذا خرج من بيت كلثوم بن هدم جلس للناس في بيت سعد بن خيثمة ، وذلك أنه كان عزباً لا أهل له ، وكان يقال لبيت سعد بن خيثمة أنه بيت الأعزاب . ونزل أبو بكر (رضي) على خارجة بن زيد بن أبي زهير بن مالك الأنصاري ، وقد شهد خارجة ، العقبة وبدراً وقتل يوم أحد شهيداً ودفن هو وسعد بن الربيع في قبر واحد وكان ابن عمه ، وكان خارجة ابن زيد من كبار الصحابة ، صهراً لأبي بكر (رضي) كانت ابنته تحت أبي بكر ، وكان الرسول (ص) قد آخى بين أبي بكر (رضي) وبين خارجة بن زيد حين آخى بين المهاجرين والأنصار[٣٩] .

ومن الجدير بالذكر أن الامام علي بن أبي طالب (ع) بقي في مكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن الرسول (ص) الودائع التي كانت عنده للناس ، وحين فرغ منها ، لحق برسول الله (ص) فنزل معه على كلثوم بن هِدْم ، وبقي الإمام علي (ع) بقباء ليلة أو ليلتين ، ومن الطريف أنه كانت بقباء امرأة لا زوج لها ، مسلمة . قال الإمام علي (ع)

فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل ، فيضرب عليها بابها فتخرج إليه ، فيعطيها شيئاً معه فتأخذه . قال : فاستربت بشأنه ، فقلت لها : يا أمة الله ، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلّ ليلة ، فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو ، وأنْت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟ قالت : هذا سَهْل بن حُنَيف بن واهب ، قد عرف أني امرأة لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ، ثم جاءني بها ، فقال : احتطبي بهذا ، فكان الإمام علي (ع) يأثر (يحدّث به) ذلك من أمر سهيل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق[٤٠] .

بناء مسجد قباء

وبدأ النبي (ص) مع الصحابة الكرام في تشييد مسجد قباء والمعروف بمسجد التقوى[٤١] ، قال ياقوت الحموي : لما قدم (ص) نزل بقُباء على بني عمرو بن عوف فأقام فيهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة ، وذكر ابن خيثمة أن رسول الله (ص) حين أسسه كان هو أول من وضع حجراً بيده في قبلته ثم أخذ الناس في البنيان وهذا المسجد هو أول مسجد بُني في الإسلام وفيه وفي أهله نزلت (فيه رجال يحبّون أن يتطهروا)[٤٢] ، وهو عن هذا المسجد الذي أسس على التقوى .

توجه الرسول إلى يثرب

خرج الرسول (ص) من قباء متوجهاً إلى يثرب[٤٣] وأدركت رسول الله (ص) الجمعة في بني سالم بن عوف ، فصلاها في المسجد الذي ببطن الوادي ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[٤٤] ، قال ابن عباس : ولد النبي يوم الاثنين واستنبىء يوم الاثنين ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين وهاجر يوم الاثنين وقبض يوم الاثنين[٤٥] !!

كان دخول الرسول يثرب من الأيام المشهودة في التاريخ وأصبح ذلك اليوم من أعز أيام المسلمين تمجيداً ، ومن شدة اعتزازهم بذلك اليوم الأغر أن جعلوا تاريخهم يبـــدأ من يوم هجرة نبيهم (ص) : ووقف الناس رجالاً ونساء ينتظرون قدوم الرسول . بل خرجوا إلى مسافات بعيدة من ظاهر المدينة ينشدون النغم الجميل معلنين فرحتهم ومظهرين استبشارهم . وسارع كل فرد من أهل يثرب إلى استضافة الرسول (ص) وكلهم يود لو ظفر بهذا الشرف . وقد أتاه عِتبان بن مالك . وعباس ابن عبادة بن نضلة . في رجال من بني سالم بن عوف . فقالوا : يا رسول الله . أقم عندنا في العَدَد والعُدّة والمَنعَة ، قال : خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، (يقصد ناقته) فخلّوْا سبيلها . فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني بياضة ، تلقّاه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو ، في رجال من بني بياضة ، فقالوا : يا رسول الله : هلمّ إلينا ، إلى العدد والعدة والمَنعَة ، قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فخلّوْا سبيلها . فانطلقت ، حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة ، اعترضه سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، في رجال من بني ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة ، قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلّوْا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج ، اعترضه سعد ابن الربيع ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رَواحة في رجال من بـــني الحارث ابن الخزرج ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا ، إلى العـــدد والعدة والمنعة ، قال : خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلّوْا سبيلها ، فانطلقت ، حتى إذا مرت بدار بني عديّ بن النجار وهم أخوالـــه ، اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط ، أُسيرة بن أبي خارجة في رجال من بني عدي ابن النجّار ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلى أخوالك ، إلى العدد والعدة والمنعة ، قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فخلّوا سبيلها ، فانطلقت[٤٦] .

وبركت الناقة على موضع لغلامين يتيمين من بني النجار ، وهما في حِجْر معاذ بن عفراء . سهل وسُهيل ابني عمرو . فلما بركت ، ورسول الله (ص) عليها لم ينزل . وثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله (ص) واضع لها زِمامها لا يثنيها به . ثم التفتت إلى خلفها ، فرجعتْ إلى مَبركها أول مرة ، فبركت فيه . ثم تحلْحلتْ وزَمّتْ ووضعت جرانها — الجران ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها — ، فنزل عنها رسول الله (ص) . فاحتمل أبو أيوب خالد ابن زيد رحله ، فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله (ص) وسأل عن الموضع لمن هو ؟ فقال له مُعاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان لي ، وسأرضيهما منه ، فاتخذْه مسجداً[47] .

بناء المسجد النبوي

رأى الرسول أن يقيم مسجده على ذلك الموضع ، ونزل (ص) على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله (ص) ليرّغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين[48] :

لئن قعدنا والنبي يعملُ لذاك منّا العمل المضلّلُ

وارتجز المسلمون وهم يبنون المسجد يقولون[49] : —

لا عيش إلاّ عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

وارتجز الإمام علي بن أبي طالب (ع) وهو يساهم في ذلك العمل الخالد[50] :

لا يستوي من يعمُرُ المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا
ومن يرى عن الغبار حائدا

قال ابن هشام : سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر ، عن هذا

الرجز ، فقالوا بلغنا آن علي بن أبي طالب ارتجز به ، فلا يُدرى أهو قائله أم غيره[٥١] .

وكان من الذين يعملون بجد ونشاط وأظهر همة عالية في تلك الأيام ، عمار بن ياسر ، فقد ذكر أن عمّار بن ياسر دخل بناء المسجد وقد أثقلوه باللّبِن ، فقال : يا رسول الله ، قتلوني ، يحملون عليّ ما لا يحملون . قالت أم سلمة زوج النبي (ص) فرأيت رسول الله (ص) ينفض وَفْرته بيده ، وكان رجلاً جَعْداً ، وهو يقول : ويحَ ابن سُميّــة ، ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية[٥٢] .

وبعد أن كمل بناء المسجد وكملت ابنية مساكن الرسول (ص) انتقل (ص) من بيت أبي أيوب إلى مساكنه ، وبناء المسجد النبوي في المدينة يعتبر أول عمل باشره الرسول في تلك المدينة الخالدة ، ومن الجدير بالذكر أن مسجد النبي كان بسيط البناء وأقيم في نفس المربد الذي بركت فيه ناقته ، ثم بنى لعائشة بيتاً ، يليه شارع المسجد ، وجعل باباً في المسجد تجاه باب عائشة يخرج منه إلى الصلاة ، وأقام من حول المسجد منازل لأزواجه وكانت كلها في الشق الأيسر إذا قمت إلى الصلاة إلى وجــه الإمام في وجه المنبر[٥٣] ، (وعن الإمام مالك (رضي) إن حجر أزواج النبي (ص)[٥٤] ليست من المسجد ولكن أبوابهــا شارعة في المسجد) وكانت هذه المنازل تسعة بيوت باللبن ولها حجر من جريد مطرور بالطين[٥٥] .

ومن الطريف أن الغلامين أصحاب المربد ، قالا للرسول (ص) : نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله (ص) حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير وقال معمر عن الزهرى ، وأمر أبا بكر أن يعطيهما ذلك . وكان جداراً مجدّراً ليس عليه سقف وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان أسعد بن زرارة بناه فكان يصلي بأصحابه فيه ، ويجتمع بهم في الجمعة قبل مقدم رسول الله . فأمر رسول الله (ص) بالنخل الذي في الحديقة ، وبالغرقد الذي فيه ، أن يقطع ، وأمر باللبن فضرب . وكان بالمربد قبور جاهلية ،

فأمر رسول الله فنبشت ، وأمر بالعظام أن تغيب ، وكان بالمربد مـاء مستنجل فسيره حتى ذهب[٥٦] .

وأسسوا المسجد ، وجعلوا الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، ثم بنوه باللبن ، وجعلت قبلته إلى بيت المقدس وجعل لـه ثلاثة أبواب ، باب في مؤخره ، وباب يقال له باب الرحمة ، وهو الباب الذي يدعى باب عاتكة ، والباب الثالث الذي يدخل فيه رسول الله ، وهو الباب الذي يلي آل عثمان ، وجعل طول الجدار بسطة وسقفـه جريدا [٥٧] .

وأغلب الظن أن المسجد وقتذاك كان يقتصر على رحبة واسعة تحيط بها جدران من جهاتها الأربعة ، وأنه لم يكن له سقف أول الأمر ، (لأن الناس شكوا إلى الرسول شدة الحر) [٥٨] فأقام لهم ظلة وجعل في المسجد (سواري من جذوع النخل ، ثم طرحت عليها العوارض والخصف والادخر [٥٩] ويضيف العقيلي : (جعلت قبلته — أي جدار القبلة — من حجارة منضورة بعضها على بعض ، وحيطان باللبن ، وجعلت عمده من جذوع النخل) [٦٠] .

وكانت طريقة البناء في أول الأمر ، أن الجدران بنيت بالسميط ، لبنة على لبنة ، أي الواحدة بجوار الواحدة ، والواحدة فوق الأخرى ، ثم بالسعيدة ، لبنة ونصف أخرى ، أي اللبنة الواحدة متعارضة مع كل لبنتين ثم كثروا ، فقالوا يا رسول الله لو زيد فيه ، ففعل ، فبنى بالذكر والأنثى ، وهي لبنتان مختلفتان [٦١] .

ونلاحظ أن هناك اختلافات في مقدار مساحة المسجد ، فذكـر البعض إنه كان مائة في مائة ذراع ، وأنه كان مربعاً ، وقال البعض الآخر أنه كان أقل من ذلك ، ونرجح أن مساحة المسجد كانت ثلاثة وستين ذراعاً عرضاً وسبعين ذراعاً طولاً ، وقيل كانت بظلته ثلاثة اروقة ،

أي ثلاثة اساكيب [٦٢] . وكانت به ست أساطين ثلاثاً إلى يمين المنبر وثلاثاً إلى يساره [٦٣]) .

وظلت القبلة متجهة نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حولت نحو الكعبة ، وأقيمت ظلة ثانية عليها ، وظلت الظلة الأولى مكاناً لأهل الصفة ، وكان ما بين الظلتين رحبة واسعة [٦٤] . وكان سقف المسجد واطئاً ، وارتفاع جدرانه سبعة أذرع ، أي ثلاثة أمتار ونصف ، وقيل في ذلك (بنى الرسول في مسجده عريشاً كعريش موسى ، سبعة أذرع ، ثمامات وخشبات وظلة) [٦٥] .

وبعد فترة ليست بالطويلة ضاق المسجد بالناس ، فجدد سقفه ، وزيد فيه ، وقد اشترى الرسول (ص) بقعة من أنصاري زيدت في المسجد [٦٦] ، وكانت هذه الزيادة في شرقيه بمقدار عشرة أذرع ، أو أسطوانة ، وفي غربيه بمقدار عشرين ذراعاً وفي شماليه بمقدار ثلاثين ذراعاً ، فأصبح ذرع المسجد قريباً من مربع ، طول جدار القبلة فيه تسعون ذراعاً ومنه إلى جدار المؤخر مائة ذراع [٦٧] . وقد أضيفت إلى المسجد النبوي زيادات وإضافات مختلفة في عصور تاريخية متعددة سوف لا نتطرق إليها لأننا اقتصرنا في موضوعنا هذا على عهد الوسول (ص) فقط .

أعمال الرسول في يثرب

ومنذ أن وصل الرسول (ص) مدينة يثرب ، وهو دائب على العمل فيلمس الناس جميعاً تغييرات وتطورات مختلفة ، فقد أمر (ص) بإبدال اسم يثرب إلى اسم طيبة ، وقد كره الرسول أن تسمى باسمها وسماها طيبة ، ويثرب من التثريب ومعناه الإفساد أو اللؤم ، وهنالك رأي أن يثرب كلمة مشتقة من كلمة اثريبس المصرية وسماها بطليموس وستيفان البيزنطي (يثربا) ، كما ظهر اسمها في بعض النقوش القديمة (إثرب) ،

ويقال أن يثرب كانت ناحية من المدينة ثم أطلق على المدينة كلها من باب إطلاق البعض على الكل * .

المؤاخاة

وليزيد النبي من الترابط الاجتماعي بين المسلمين في المدينة من أنصار ومهاجرين فقد عمل (ص) بمبدأ المؤاخاة بين الجماعة الإسلامية ، وجعل كل مهاجر أخاً لأنصاري ، فجعل عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين ، وأبا ذر الغفاري والمنذر بن عمرو أخوين ، وساعدة بن كعب بن الخزرج أخوين ، ومصعب بن عمير وأبا أيوب خالد بن زيد أخوين وأبو بكر بن أبي قحافة وخارجة بن زهير أخوين، وعمر بن الخطاب وعتبان ابن مالك أخوين ، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين .

وكان الرسول (ص) وعلي بن أبي طالب (ع) أخوين ، وكان حمزة ابن عبد المطلب أسد الله وأسدُ رسول الله (ص) وزيد بن حارثة أخوين ، وكان جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين [٦٨] .

ذكر ابن سعد في طبقاته : أن الرسول آخى بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على الحق والمؤاساة يتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام ، وكانوا تسعين رجلاً ، خمسة وأربعين من المهاجرين ، وخمسة وأربعين من الأنصار ، ويقال كانوا مائة ، خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار ، وكان ذلك قبل معركة بدر ، فلما كانت وقعة بدر وأنزل الله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أوْلَى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم) [٦٩] فنسخت هذه الآية ما كان قبلها ، وانقطعت المؤاخاة في الميراث ، ورجع كل إنسان الى نسبه وَوَرِثَه ذوو رحمه . وذكر أن

(*) مر بالتفصيل ذكر أسماء المدينة (يثرب) وما قيل في الأخبار عنها في صدر هذا الجزء من بحث المدينة المنورة قديماً الخليلي

الرسول (ص) حالف بين المهاجرين والأنصار في دار أنس[٧٠]

وكتب الرسول (ص) دستور الجماعة الإسلامية ، فقد عمل الرسول (ص) منذ أن وطئت قدمه المدينة على تكوين قوة سياسية تساعده وتساعد جماعته على الوقوف في وجه أي معارضة سياسية وأدرك الرسول (ص) أن الفكرة الدينية التي يعمل جاهداً على تحقيق مبادئها هي بحاجة ماسة إلى تنظيم سياسي يخدم الأهداف والعقائد الدينية الإسلامية ، وبما أوتي من الذكاء الحاد والقابليات المنطقية ، وبلباقة السياسي المجرب نجح (ص) في تحويل قوتـــه السياسية التي أوجدها في المدينة إلى اتجاه ديني بل إلى سلطة دينية ، والوثيقة التي بين أيدينا والتي نشرها (ص) بين المسلمين في المدينة تعتبر الدستور المؤقت الذي رسمه الرسول (ص) للجماعة الإسلامية والطوائف الأخرى التي تسكن المدينة ، حتى يتم التشريع شيئاً فشيئاً ، وهي لا تخرج عن إطار الأهداف والمبادىء الإسلامية .

الوثيقـــة

ولأهمية الوثيقة بموضوع هجرة النبي لا بد لنا من الوقوف عندها بعض الشيء وتثبيت نصها التاريخي الفريد التالي : —

بسم الله الرحمن الرحيم .

« هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفْدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشم على رِبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبِّيت على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على رِبْعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط

بين المؤمنين ، وان المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً — المفرح المثقل بالدين — بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل .

وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولدَ أحدهم ، ولا يَقْتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يُجبر عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ؛ وأنه من تبعنا من يهود ، فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ؛ وأن سلْم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلاّ على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً ، وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هَدْي وأقومه ؛ وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ؛ وأنه مَنْ اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيّنة ، فإنه قودٌ به إلاّ أن يرضى وليُّ المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلاّ قيامٌ عليه .

وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر مُحْدِثاً ولا يؤويه ؛ وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مردّه إلى الله عز وجلّ ، وإلى محمد (ص) .

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بني عوف مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلاّ من ظلم وأثِم ، فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه ، وأهل بيته . وأن ليهود بني النجّار مثل ما ليهود بني عوف ، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف — وذكر يهود بني ساعدة ويهود بني جُشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة — أن لهم ما ليهود بني عوف ، إلاّ من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه

وأهل بيته . وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وأن لبني الشُّطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وأن البرّ دون الإثم ، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلاّ بإذن محمد (ص) ، وأنه لا ينحجز على ثار جرْح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلاّ من ظلم ، وأن الله على أبرّ هذا ، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبرّ دون الإثم ؛ وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلاّ بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدَث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد (ص) ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه ، وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين ، إلاّ من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبلَهم ، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم ، على ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البر دون الاثم ، لا يكسب كاسبٌ إلاّ على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم . وأن من خرج آمنٌ ومن قعد آمنٌ بالمدينة إلاّ من ظلم وأثم ، وأن الله جارٌ لمن برّ وأتقى »[٧١] .

* * *

وبعد أن عرضنا نص الوثيقة أو الصحيفة ، بإمكاننا تفحص بعض نصوصها والتعليق عليها ، فقد أوضحت الوثيقة في سطورها الأولى عن تكوين الأمة الإسلامية بقوله (ص) : انهم أمة واحدة من دون الناس ، ولم يقصر الرسول

(ص) هذه الأمة على النفر الذي كان سباقاً إلى الإسلام ، بل جعلها عامة من أسلم وآمن ولو بعد حين ، شريطة أن يكون مجاهداً ينفر في سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام والدفاع عن مبادئه ؛ ونلاحظ أن التنظيم الإسلامي يختلف عن التنظيم القبلي من حيث أنه قائم على أساس العقيدة لا على أساس الدم ، فهو لذلك يستند على مبادىء روحية أخلاقية ، وتمتزج فيه السياسة بالأخلاق ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الجماعة غير ثابتة أو محدودة بل هي قابلة للتوسع أو التقلص حسب من ينضم إليها من الناس ، على أن كافة من فيها متساوون في الحقوق والواجبات .

واعترف الرسول (ص) بالوحدات القبلية القائمة حينذاك ، وأقر لها التماسك وحق الجوار والدية المشتركة وبعض الواجبات المالية .

واعتبر (ص) المهاجرين وحدة قائمة بذاتها وكذلك الأوس والنبّيت ، والقبائل التي هي من مجموعة الخزرج ، بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وبنو جشم وبنو النجار وبنو عمرو بن عوف ، ويبدو أن قبائل الخزرج أكثر تأييداً للإسلام من الأوس في الأيام الأولى من دخول الرسول (ص) إلى مدينة يثرب .

وأشارت الوثيقة إلى وحدة الأمة ، فإن للسلم سلم الأمة الواحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال ، فهنا إشارة إلى الوحدة في كل شيء في السلم والحرب ، وأن مسألة السلم والحرب مركزية يشترك فيها الجميع ، ولا يمكن أن يحارب بعض المتعاهدين ويمتنع الآخرون وتكون الخدمة العسكرية إلزامية ويشترك فيها الجميع ، تغزو جنود وتستريح أخرى تعاقباً ولا تستقل به طائفة دون أخرى ، « وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً » ، ويجب على المسلمين أن يكون بعضهم أولياء بعض يتعاونون في الحروب ويتشاطرون السراء والضراء ، وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . وكل فرد صغيراً كان أم كبيراً أن يجير ويؤدي كما كان عليه من قبل ويسعى بذمتهم ادناهم ويحترم وعده وتتقيد به الأمة كلها ، إن ذمة الله

واحدة يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

وتتجلى في هذا النص روح الأخوة والمساواة التي تسود الكتلة الإسلامية الجديدة ، فلا فرق بين كبير وصغير ، أو غني وفقير ، بل الجميع أخوة ينظمهم دين واحد ، ولكل فرد أن يجير ويحمي ، ولا ريب أن هذا تقليد كانت تطبقه القبائل العربية من قبل ، ويتجلى فيه مدى احترام الفردية ، وإقرار المجتمع لما تقرره ، ومن شأن هذا النص أن يشجع الكثير من الناس على الانضمام للإسلام ، فيتاح للمسلم أن يحمي أنصاره ومؤيديه الذين قد يطلبون ذلك وهذا قد يجلبهم إليه . على أن هذه الإجارة لا تشمل كفار قريش « لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن » . ولا تقتصر هذه الاحكام على المسلمين وأتباعهم ، بل تمتد إلى اليهود أيضاً فقد نص أنهم يشتركون في صد الهجمات الموجهة إلى المدينة « وأن بينهم النصر على من دهم يثرب » وبذلك حتم عليهم الإشتراك في الحروب الدفاعية تجاه المدينة ، وهناك مادة أخرى تنص أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم ، ويبدو من النص أن الوثيقة تلزم اليهود بواجب الدفاع عن المدينة ولا تدعوهم إلى المشاركة مع المسلمين في حروبهم الهجومية ، وهذا ما أيدته الحوادث التاريخية فلم يخرج اليهود للحرب ولم يُلزموا بمعاونة المسلمين في بدر ، أو أُحد ، أو الخندق ، ولكنهم كانوا مطالبين بواجب الدفاع عن المدينة – يثرب – ضد أي هجوم يقع عليها .

وجاء في الوثيقة أن الرسول (ص) منع اليهود الخروج من المدينة بغير إذنه ونرجح أن هذا كان من مستلزمات توفير الأمن والإحاطة بكل النشاطات اليهودية ، ويبدو أن الرسول (ص) كان يتوجس منهم خيفة ويتوقع غدراً كما أنه كان يتشكك في إخلاصهم ، فحرَّم عليهم الخروج من المدينة بغير إذنه كي يراقب حركاتهم ويقف على أسرارهم ، وكان (ص) لا يمانع في خروج أي يهودي لغرض التجارة أو أي عمل آخر شريطة أن يوضح للنبي (ص)

وجهته وغرضه وكم يكفيه من الوقت أي متى يتوقع عودته إلى يثرب ومن يصطحب ، وبعد أن يعود ذلك الشخص عليه إخبار الرسول (ص) بذلك كما كان الرسول (ص) لا ينفك يتطلع إلى أخبار اليهود والوقوف على أسرارهم وأهدافهم عن طريق عيون رقيبة كانت تعمل بإخلاص وحذر خدمة للإسلام وحفاظاً على المبادىء النبيلة .

وقد نظمت الوثيقة الإلتزامات المالية الناجمة من الحروب التي قد يشترك فيها الفريقان . « ان اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين » فإذا ضم الجيش معسكرين . معسكر للمسلمين وآخر لليهود ، كان على كل معسكر أن يتكفل بنفقاته . فيبتاع الأسلحة ويطعم الجند من ماله الخاص . « وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم » وبذلك لا يظن اليهود بأن نفقتهم واجبة على المسلمين إذا ما اضطروا لقتال عدوهم ، أو يظن المسلمون بأن نفقتهم واجبة على اليهود بما خرجوا معهم لقتال عدوهم . وفي ذلك يقول أبو عبيد : فهذه النفقة في الحرب خاصة . شرط عليهم المعاونة له على عدوه . وإنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرط عليهم من النفقة . ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم . وإنما كان هذا الكتاب قبل أن يظهر الإسلام ويقوى ، وقبل أن يؤمر بأخذ الجزية من أهل الكتاب[٧٢] .

وقد أعتبرت مدينة يثرب حرماً لأهل هذه الصحيفة . « وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة » ومعنى هذا التقرير بالسلم داخل يثرب ومنع الحرب في داخلها . وهذا النص يعطينا فكرة عن أحد أسباب نشوء الحرم ، على أن مثل هذا الحرم قائم لأسباب سياسية ، ولم تحدد حدود الحرم بالضبط وهو محدود التنفيذ على أهل الصحيفة . وهم أهل المدينة فحسب . فلا يشمل غيرهم من الناس . والواقع أن المسلمين كانوا حتى آنذاك محدودين بهذه المنطقة . فمنطقتهم أصبحت حرماً . لا يجوز لهم الإعتداء على أحد فيها ، وهكذا أبطلت الحروب الداخلية رسمياً ، ولكن لم يبين ما حكم أهل

الصحيفة ؟ وما هو حكمهم إذا لم يعترفوا بهذا الحرم ، وأنهم إذا أرادوا غزو المدينة فلهؤلاء أن يدافعوا عن أنفسهم ، ولم تعين النصوص حدود هـذا الحرم ولا نطاقه .

ونلاحظ في الوثيقة بنوداً متعددة تخص العدالة ، وتنظيم القضاء ، وإدارته ، حتى يمكن اعتبار تنظيم العدالة إحدى الغايتين الرئيسيتين اللتين استهدفتهما الوثيقة ، وقد ركزت السلطة القضائية بيد النبي ؛ سواء في الخلافات بين المسلمين ، أو اليهود ، « وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله » . ففي هذه المادة أوجد السلطة القضائية مركزية تكون مرجع الجميع . وهي نقطة مهمة كانت تفتقر إليها المدينة ، وكان من المتوقع أن يكون لها تأثير في استتباب الأمن والنظام . هذا ونلاحظ أن الوثيقة لم تنص أن لهذه السلطة القضائية قوة تنفيذية تلزم الناس على طاعة قراراتها . ولكن مما لا شك فيه أن المسلمين كانوا جميعاً يخضعون لقرارات النبي وينفذونها تلقائياً . وأن مخالفة الرسول تعني مخالفة النصوص القرآنية . قال تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

ومما لا شك فيه أن الرسول محمداً (ص) أعطى لليهود حق ممارسة قوانينهم الشخصية ؛ أما في أمور الحرب والسلم فقد كان القضاء بيد الرسول (ص) وهو يحكم به . وأعطى لليهود حرية دينية تشملهم وتشمل مواليهم . وحصر مسؤولية الاجرام فيمن قام بالجرم وفي أهل بيته ولا تمتد إلى عشيرته . « وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم إلاّ من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته » وكرر ذلك ليهود بني النجار وليهود بني الحارث وليهود بني ساعدة وليهود بني جشم وليهود بني الأوس وليهود بني ثعلبة ، بأن لهم ما ليهود بني عوف ، إلاّ من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلاّ نفسه وأهل بيته . ويقصد الرسول (ص) بالظلم ، ما قد يقوم به اليهود من محاولات لايجاد الفتن وصد الناس عن الدخول في الإسلام ، وغير ذلك من الأمور التي تسبب صدعاً لصفوف المسلمين وضرراً

في تقدم الدعوة الإسلامية ، وقوله (ص) للظالم منهم إن ظلمه لن يكون إلاّ ظلماً لنفسه ، إنما هو تهديد لهم ، وإظهار لقوة المسلمين وشدة بأسهم ، وتحذير لهم مما قد تسوّله لهم أنفسهم أو تزينه لهم شياطينهم ، ومن الجدير بالذكر أن الرسول (ص) كرر هذا المعنى في الوثيقة أكثر من مرة ، وكأنه كان يحس أنه لن يتم بين اليهود والمسلمين وفاق ، وأن اليهود سينزعون إلى العداوة والشقاق والدس والكيد والنفاق ، وأنهم سينقضون العهد والميثاق ، فأراد أن يلتمس العذر أمام الله والناس والضمير إن هو نكل بهم بعد ظلمهم وخروجهم على العهد الذي بينه وبينهم فقد أنذرهم كثيراً وقد أعذر من أنذر ، ولا شك أن هذا الإنذار والتهديد إنما أراد به الرسول (ص) أن تستقر الحال في المدينة فلا يكون هناك نزاع داخلي بين المسلمين واليهود ، وهو الأمر الذي تستغله قريش ويؤدي إلى عرقلة جهود النبي (ص) في نشر الفكرة الإسلامية خارج مدينة يثرب ، ولم يلبث الرسول . أن أعقب الترهيب ترغيباً والشدة ليناً ، فأمر أن لا يقوم المسلمون ضد اليهود إلاّ إذا عادوا الإسلام .

لقد أقرت الوثيقة مبدأ المساواة بين المسلمين أمام العدالة فالأحكام تسري عليهم جميعاً ، لا تمييز بين أحد ، وهم يد واحدة على كل من بغى أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المسلمين المؤمنين ، ويجتهدون في عقابه ، ولا يجوز لأحد أن يوالي المجرم ، أو يدافع عنه أو يسعى في تخليصه ، ولو كان المجرم ولده ، ومن ارتكب جريمة قتل عمد ، فعليه القصاص والقتل ، ولكن يجوز لولي المقتول أن لا يصرّ على القصاص ويطلب الفصل أي قبول الدية (التعويض) ، وعلى المؤمنين أن يؤيدوه ضد القاتل « من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فانه قودٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل ، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه » ، على أنه لا يجوز قتل المؤمن في كافر « ولا يقتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر » .

ويتبين لنا من هذه النصوص التأكيد الزائد على الروح الإجتماعية وعلى وجوب اشتراك المسلمين جميعاً ومساهمتهم في صيانة الأمن ومعاقبة المعتدي

وعدم حمايته ، وهكذا تنبع السلطة التنفيذية من مجتمع المؤمنين وحدهم ولا يساهم بها غيرهم ، فهم كتلة واحدة والسلطة التنفيذية منهم وليست مفروضة عليهم ، ويلاحظ أن هذه النصوص الجنائية أقرب إلى روح المفاهيم البدوية التي كانت سائدة وهي محدودة جداً ، وليست هناك نصوص تتعلق بالقوانين المدنية والتجارية ، ولعل هذا يرجع إلى أن النص اهتم في الوثيقة بالأمور التي تخص الصالح العام وبها ترتبط الأمور الجنائية ، أما الأحوال الشخصية فكانت أقل أهمية في ذلك الدور .

وقد أكدت الوثيقة أن المسلمين كتلة واحدة تتعاون في تنفيذ البنود المتعلقة بالجنايات وهم يد واحدة على من بغى ، وليس لأحدهم ان ينصر محدثاً حتى ولو كان ولد أحدهم ، وعلى كل واحد منهم نصر المؤمنين ودعمهم ، فالمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس ، ينبغي عليهم مساعدة الضعيف منهم والفقير وعدم تركه « وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً أن يعطوه بالمعروف والقسط بين المؤمنين » فهم بذلك متكاتفون بعضم موالي بعض دون الناس ، والمفرح هو المثقل بالدين الكثير والعيال ، فإن كان من أهل الأسير ، أعانه المؤمنون حتى يشارك في الفداء ، وإذا كان من عاقلة المرء الذي جنى خطأ ، عقلوا عنه حتى لا يزداد دينه بعجزه عن أداء حصته من الدية أو الفداء وحتى لا يعجز عن نفقات عياله إذا شارك فيها بما كان يدخر للانفاق عليهم ، والمسلمون إذ يعطون المفرح في فداء أو عقل ، أو في غير الفداء والعقل ، إنما يحققون مبدأ التعاون الإجتماعي الذي تعتز به الإنسانية . ويحاربون الرق والموت في آن واحد ، فقد كان العربي في الجاهلية إذا عجز عن وفاء دينه في الموعد المحدد زاد دينه ونما وأصبح كالعبد الخادم للدائن لا يكلفه أمراً إلاّ فعله ، وكان صاحب العيال يقتل أولاده مخافة الفقر والفاقة ، فيقبر فلذات أكباده في غير اكتراث أو مبالاة ، وقد حارب الإسلام ذلك كله ، فبدأ بمقدماته . فهدمها وبأسبابه فقطعها ، عندما أمر الرسول (ص) أصحابه المؤمنين بأن يعطوا المفرح ويعينوه .

وأكد الرسول (ص) في الوثيقة مراعاة حق الجار « وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم » . ونلاحظ أن النص جاء بكلمة الجار دون تحديد ، ومن المرجح أن الرسول (ص) أراد أن تشمل كلمة الجار إلى جانب المؤمن : اليهودي ، والنصراني ، ولا شك أن جار المرء هو أقرب الناس إليه بعد عائلته وأهله ، وأن دعوة الإسلام إلى رعاية الجار والإهتمام به وحمايته أثرٌ كبير في بناء الكيان الإجتماعي ومظهر من مظاهر التعاون الذي رسم أبعاده الرسول محمد (ص) .

ونصت الوثيقة : « أنه لا تجارُ قريشٌ ولا من نصرها » ومن الجدير بالذكر أن عادة الجوار من العادات الأصيلة عند العرب قبل الإسلام وكان يتغنى بها أشراف القوم ويتمجدون ويفخرون ، والرسول محمد (ص) وهو على جانب كبير من الفطنة والذكاء ، وهو الخبير العبقري رأى أنه إن أبقى هذه العادة قائمة ، لتؤدي إلى نتائج سيئة بالنسبة لمسيرة المسلمين والدعوة الإسلامية ، فلو أن قرشياً اشتد في إيذائه واضطهاده وقتله المسلمين ، ثم استجار برجل من أهل المدينة لما استطاع المسلمون أن يتخلصوا منه ولا من عدوانه لهم ، فلا عجب إذن إذا أمرهم أن لا يجيروا قرشياً أو نصيراً لقريش ، ونلاحظ أن الرسول (ص) لم يحدد هنا المجير ، حتى تشمل الكلمة المؤمن واليهودي والمشرك ، فقد كان يخشى (ص) أن يلجأ القرشيون إلى أقاربهم ومعارفهم من المهاجرين فيتذكر هؤلاء جوار الجاهلية وتكون النتيجة غير التي يريدها الرسول .

هذا وقد احترم المسلمون المؤمنون الوثيقة التي نشرها الرسول (ص) وكانت لها نتائج كبيرة في حياة المدينة – يثرب – ولكن اليهود لم يكونوا أوفياء لها ، وقد انقلبوا وكان انقلابهم وبالاً عليهم ، أدى إلى إجلائهم من المدينة التي أصبحت تستقل بالمؤمنين المجاهدين .

وعلى هذا فإن بانتقال الرسول (ص) إلى يثرب بدأت حالة جديدة في تلك المدينة ، إذ أصبحت مركز الدعوة الإسلامية ونقطة الإنطلاق الإسلامي ،

وتغير اسمها وأصبحت تسمى مدينة الرسول وتسمى اليوم المدينة ، وذكر ياقوت الحموي تسعة وعشرين اسماً لها ، منها المدينة ، وطيبة ، والمحببة ، والمحبوبة ، ويثرب ، والناجية ، والمباركة ، والعاصمة ، والشافية . وان الرسول (ص) بقي بها الى ان انتقل الى الرفيق الاعلى واتخذ المسلمون السنة التي هاجر فيها الرسول من مكة إلى المدينة مبدأ للتاريخ عندهم ، نسبة إلى هذا الحادث العظيم ، وأصبح في المدينة ثلاثة أصناف من السكان :

ا ـ المهاجرون ، وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، قبل وبعد هجرة الرسول (ص) .

ب ـ الأنصار ، وهم سكان المدينة ـ يثرب ـ الذين اعتنقوا الدين الإسلامي وهم من قبيلتي الأوس والخزرج ، وزعيم الأوس هو أسيد بن حضير وزعيم الخزرج سعد بن عبادة .

ج ـ اليهود وأشهر قبائلهم بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة .

وأصبح الرسول (ص) هو رأس الجماعة الإسلامية في المدينة وقائدها ومرشدها ؛ولما فرغ الرسول من بناء المسجد ،فكر في أن يدعو للصلاة ببوق كالبوق الذي يدعو به اليهود لصلاتهم ، لكنه كره البوق فأمر بالناقوس ، فصُنع ليضرب به للصلاة كما تفعل النصارى ، على أنه بعد مدة عدل عن الناقوس أيضاً إلى الأذان الذي يؤذن به المسلمون من مآذنهم في أوقات صلواتهم . واتحد المسلمون وقويت كلمتهم ، وانفسح المجال أمام محمد (ص) لنشر تعاليم الاسلام وبناء الكيان الإجتماعي القائم على الأخاء الإنساني ، وتهذيب النفوس وتربيتها تربية طيبة تخلق المواطنين الصالحين الذين سيقفون كالطود الشامخ أمام كل التحديات وسيعملون جاهدين من أجل إعلاء كلمة الله وإعلاء كلمة الإسلام إذا ما قاموا حقاً بالتعاليم الإسلامية وطبقوا مبادئها عليهم وعلى الآخرين من المسلمين وغير المسلمين تنفيذاً لهذه الوثيقة .

المراجع المشار اليها بالارقام

١ – ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٣٢١ .

٢ – ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٥٢ .

٣ – ابن هشام : السيرة جـ ٢ ص ٣٥٩ .

٤ – المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٣٣ .

٥ – ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٥٢ .

٦ – ابن هشام : جـ ١ ص ٢٦٥ .

٧ – ابن سعد : الطبقات جـ ١ ص ١٩٢ .

٨ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤١٦ .

٩ – ابن الأثير : جـ ٢ ص ٦٣ .

١٠ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٢٢ – ٤٢٤ .

١١ – المرجع السابق جـ ١ ص ٤٢٨ .

١٢ – ابن الأثير : جـ ٢ ص ٦٦ .

١٣ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٢٨ .

١٤ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٣١ .

١٥ – المرجع السابق ص ٤٣١ .

١٦ – = = ص ٤٣١ .

١٧ – ابن سعد : جـ ١ ص ٢٠٤ .

١٨ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٣٥ .

١٩ – المرجع السابق جـ ١ ص ٤٣٧ .

٢٠ – = = جـ ١ ص ٤٣٧ .

٢١ – كانت الهجرة النبوية سنة ٦٢٢ م والعقبة الاولى قبل ذلك بنحو السنة .

٢٢ – ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٠ .

٢٣ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٤٢ .

٢٤ – ابن سعد : جـ ١ ص ٢٠٧ .

٢٥ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٨٠ .
ابن سعد : جـ ١ ص ٢١٢ .
٢٦ – ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٢ .
٢٧ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٨٦ .
ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٣ .
٢٨ – ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٤ .
٢٩ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٨٦ .
٣٠ – هيكل : حياة محمد : ص ٢١٠ .
٣١ – ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٥٧ .
٣٢ – ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٢ .
٣٣ – المرجع السابق جـ ٤ ص ٣٦١ .
٣٤ – المرجع السابق جـ ٤ ص ٤١٦ .
٣٥ – = = جـ ٤ ص ٤٩٠ .
٣٦ – = = جـ ٤ ص ٨٨٩ .
٣٧ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٢ .
٣٨ – ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة جـ ٣ ص ٢٨٨ .
ابن عبد البر : الاستيعاب في أسماء الأصحاب جـ ٣ ص ٢٩٦ هامش الإصابة .
٣٩ – ابن هشام : جـ ١ ص ٥٠٤ .
٤٠ – ابن حجر : الاصابة جـ ٢ ص ٨٦ .
ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٤ .
٤١ – ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٧ .
ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٤ .
٤٢ – آية ١٠٨ سورة التوبة .
٤٣ – ابن سعد/الطبقات جـ ١ ص ٢٣٣ .
٤٤ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٤ .
٤٥ – ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٦ .
٤٦ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٥ .
ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٦ .
٤٧ – ابن سعد : جـ ٢ ص ٤ .
ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٦ .
٤٧ – ابن سعد : جـ ٢ ص ٤ .
ابن الأثير : جـ ٢ ص ٧٧ .

٤٨ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٦ .
٤٩ – ابن سعد : جـ ٢ ص ٤ .
ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٦ .
٥٠ – ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٧ .
٥١ – المرجع السابق جـ ١ ص ٤٩٧ .
٥٢ – ابن سعد : جـ ٢ ص ٦ .
ابن هشام : جـ ١ ص ٤٩٧ .
٥٣ – ابن سعد : جـ ٢ ص ٥/١٩ .
٥٤ – ابن النجار : الدرة الثمينة/مخطوط ورقة ٢٣ .
٥٥ – السمهودي : وفاء الوفى/جـ ١ ص ٣٦٦ .
٥٦ – ابن سعد : جـ ٢ ص ٤ .
٥٧ – ابن سعد : جـ ٢ ص ٥ .
٥٨ – السمهودي : جـ ١ ص ٢٣٩ .
٥٩ – المرجع السابق : ط ١ ص ٢٣٩ .
٦٠ – العمرى/مسالك الامصار جـ ١ ص ١٢٥ .
٦١ – السمهودي/جـ ١ ص ٢٣٩ .
٦٢ – ابراهيم رفعت/مرآة الحرمين جـ ١ ص ٤٦١ .
٦٣ – السمهودي/جـ ١ ص ٢٤٨ .
٦٤ – ابن النجار : الدرة الثمينة/ورقة ٢١ .
٦٥ – السمهودي /جـ ١ ص ٢٤١ .
٦٦ – ابن النجار : الدرة الثمينة/ورقة ٢١ .
٦٧ – السمهودي/جـ ١ ص ٢٤٢ .
٦٨ – ابن هشام : جـ ١ ص ٥٠٥ .
٦٩ – آية ٧٥ سورة الانفال .
٧٠ – ابن سعد/جـ ٢ ص ٣ .
٧١ – ابن هشام : جـ ١ ص ٥٠١ – ٥٠٤ .
٧٢ – ابو عبيد/الأموال ص ٢٠٦ .

المدينة المنورة في المراجع الغربية

كتبه وترجمه

من مختلف المصادر الغربية

جعفر الخياط

الحائز على درجة استاذ علوم M. S. C. من جامعة كليفورنيا
ومدير التعليم الثانوي والمفتش الاختصاصي في وزارة التربية العراقية
ومدير التعليم المهني العام سابقاً



مدينــــة الرسول

في المراجع الغربية *

تعد مدينة الرسول ، أو المدينة المنورة ، ثاني البلاد المقدسة في الاسلام أو ثاني الحرمين الشريفين اللذين تتجه إليهما أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وتقصدهما الآلاف المؤلفة منهم في كل عام لحج البيت في أولهما والتبرك بقبر الرسول الأعظم القائم في ثانيهما . ولا غرو فإن تاريخ هذه المدينة المقدسة لتتجسد فيه آمال المسلمين وأمانيهم ، وترتبط بصفحاته ذكرياتهم في مختلف العصور والأدوار . كيف لا ، وقد نشأ الإسلام فيها وترعرع وعاش في ربوعها رجاله وأعلامه وقُبرت أجداث الكثيرين منهم في تربتها الزكية .

ومن أجل هذا عُني بها علماء الغرب ومستشرقوه بقدر ما عُني بهـا المسلمون ، وانجذب اليها سياحه ومغامروه ، في مختلف العصور ، ليقفوا على سر العظمة التي اتصف بها الإسلام ، ويهتدوا إلى المجهول الذي يحتل عقولهم فيضربوا أخماساً بأسداس عنه ويلفقوا أنواع التلفيقات في كثير من الأحيان .

(*) قد يجيء بعض المنقول من أقوال الغربيين واستنتاجهم مخالفاً للواقع ولكننا فضلنا ثبته كما هو عملا باحترام الاراء وقد التزمنا بالتعليق على بعض تلك الأخبار ولو بكلمة واحدة إذا اقتضت الضرورة دون ان نغير أو نبدل شيئاً في أقاويل الكتاب والسواح الغربيين مهما اختلفت والواقع الذي نعرفه وهو مبدأ التزمنا به في جميع أجزاء هذه الموسوعة — الخليلي

ولذلك كتبت كتب كثيرة ، وألفت مؤلفات عدة ، عن المدينة وحدها أو عنها مقرونة بمكة المكرمة .

الاسم والموقع

ومن أحسن ما كُتب عن المدينة في الانكليزية البحث الذي عقده الأستاذ إيف بوهل في دائرة المعارف الإسلامية المختصرة [١] والموسعة . فهو يقول ان المدينة المنورة بلدة من بلدان الجزيرة العربية ، أقام فيها النبي محمد (ص) بعد الهجرة ، وأصبحت عاصمة الأمبراطورية العربية في أيام الخلفاء الأوائل . وكان اسم هذه البلدة الحقيقي « يثرب » أو « ياثريبا » على ما يذكره بطليموس وستيفان بيزانتينوس ، أو « أيثريب » كما ورد في ما اكتُشف من الكتابات لمعينية التي يشير إليها م . هارتمان الألماني [٢] .

لكن كلمة المدينة من جهة أخرى كلمة وصفة مشتقة من الأرامية التي تعني فيها كلمة « مدينتا » حرفياً « المنطقة القضائية » . وقد وردت في الآيات المكية من القرآن الكريم اسماً بصفة الجمع « المدائن » ، بينما وردت المدينة في السوَر المدنية إسم علم يطلق على البلدة التي أقام فيها النبي الكريم . أما الإسم القديم يثرب فلا يرد ذكره في القرآن إلاّ مرةً واحدة فقط ويبدو من هذه النقاط أن التفسير الإعتيادي لإسم المدينة — مدينة الرسول — هو اسم أُطلق عليها بصورة متأخرة . ومن المعتقد أن الإسم المستعار من الآرامية قد أصبح اسماً إعتيادياً جديداً للبلدة بسبب وجود عنصر يهودي قوي في يثرب . وما أشبه هذا بكلمة « هجر » العربية الجنوبية التي كانت تطلق على عاصمة البحرين يومذاك . على أننا نجد من جهة أخرى أن قيس بن الحطيم أحد شعراء المدينة يستعمل كلمة يثرب بالكلية ، بينما يستعمل الشاعران حسان بن ثابت وكعب بن مالك الاسمين معاً كما هو الحالُ فيما ورد في بعض أقوال لنبي محمد .

(١) Buhl, F. in Shorter Encyclopedia of Islam, Edited by H. R. Gibb & J. H. Kramers, London & Leiden 1961.

(٢) Hartmann, M — Die Arabische Frage, p. 253.

وفي حاشية مستفيضة للرحالة البريطاني المعروف السر ريتشارد بورتون [١] ، وردت في إحدى صفحات رحلته إلى المدينة ومكة ، أقوال كثيرة أخرى عن اسم المدينة . فهو يذكر أن هناك حديثاً نبوياً يفهم منه أن المدينة لها عشرة أسماء ، غير أن الكتب المتيسرة تعد حوالي مئة اسم ، وسوف نكتفي بإيراد البعض منها هنا . فمن أسمائها طبة ، وطيبة ومتطيبة ، وهذه تشير إلى طيب موقع المدينة ومناخها ، وإلى عبير القبر المطهر والورد الأحمر الذي كان حسكاً قبل أن يُسقى بعرق جبين النبي عليه السلام ، وإلى خلوها من المدنسات مثل وجود الكفار أو عبدة الأصنام . وقد أعلن محمد (ص) أن الله سبحانه وتعالى أمره بتغيير اسمها من يثرب أو أثرب إلى طبة . وكان اسمها – يثرب – إسماً لإبن من أبناء نوح ، على قول بعض المراجع ، لكن مراجع أخرى تطلق هذا الإسم في الأصل على مكان يقع في غرب جبل أُحُد وليس على المدينة نفسها وتجمع بـ « أثاريب » أي البقاع التي يكثر فيها الماء والنخيل ، وهذا دليل على أنها لم تكن تعود إلى شخص واحد بالكلية . وكيفما كان الأمر فإن الدلالة المشؤومة التي تدل عليها « يثرب » المشتقة من « ثراب » في الأصل (ومعناها الخراب) واستعمال العرب الوثنيين لها قد اجتمعا معاً على جعل الإسم « الغلبة » مهملاً وصار المسلم المتدين حذراً في التأكد من تسميتها « المدينة » . أما الاسم « برة » و « بارة » فيشير إلى خضوعها وطهارتها ، كما يشير الإسم « حسونة » إلى جمالها ، و « خيّرة » إلى طيبها وجودتها ، ومحبة وحبيبة ومحبوبة إلى حظوتها عند النبي . بينما يدل إسم جابرة ، وجبارة ، وجبرة ، على تأثيرها الحسن في مصائر المؤمنين وتأثيراتهم السيئة على الكفار . وتسمى الشافية لتأثيرات الأرض الشافية الموجودة في جوارها ، وناصرة ، وعاصمة ، لأن محمداً وأصحابه كانوا بها في مأمن من غضب أعدائهم ، وفاضحة ، لأنها فضحت

---

(١) Burton, Captain Sir Richard — Personal Narrative of A. Pilgrimage to Al Madinah & Meccah, vol I p. 377, London 1893, Memorial Edition.

الكفار والمنافقين . وتسمى كذلك المسلمة والمؤمنة والمباركة والمحبورة والمحروسة والمحفوظة إشارةً إلى ما يزعم من أن مَلَكاً من الملائكة يجلس في كل شارع من شوارعها الرئيسة العشرة ليحرسها ويمنع « الدجّال » من الدخول إليها فالمعروف في الأساطير أن الدجال سيظهر في الشرق ذات يوم فيسيح في الأرض ، لكنه سوف يتعذر عليه الدخول إلى مكة ، وحينما يصل إلى المدينة ينحرف عنها ويتجه إلى مهلكه في دمشق . وتسمى المدينة في التوراة « المقدسة » أو « المرحومة » تلميحاً إلى رسالة محمد (ص) . وقد تسمى كذلك المرزوقة دلالةً على خيراتها ، والمسكينة لأنها مستقلة عن خزائن الذهب و الفضة ، والمقر ، والمكينة ، والحرم ، وأخيراً البلد ، والمدينة .

أما ألقابها فمنها أرض الله ، وأرض الهجرة ، وأكّالة البلدان ، وأكالة القرى ، نظراً لتفوقها عليها برغم الاسم الذي يطلق على مكة ، وهو « أم القرى » ، وبيت رسول الله ، وجزيرة العرب ، وحرم رسول الله . وتلقب في الكتب والمراسلات أحياناً بـ « المشرفة » ، ويكثر تلقيبها بالمنورة بنور الإيمان وعمود النور الذي يعتقد بأنه يخرج من الضريح المقدس .

وتقع المدينة على ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية في سهل من سهول الحجاز ينحدر إلى الشمال انحداراً خفيفاً جداً ، فيحده من الشمال والشمال الغربي جبلا أُحُد ، وعير ، على بعد يقارب أربعة أميال من المدينة ، وأنفان جبليان يخرجان من السلسلة التي تكوّن الحدود ما بين مرتفعات الجزيرة العربية والسواحل الواطئة التي تسمى تهامة . ويحد السهل من الجهتين الشرقية والغربية الحرّات التي هي عبارة عن بقع كبيرة قاحلة مغطاة بحجر البازلت الأسود ، لكن الحرّات الشرقية تقع على مسافة أبعد من البلدة فتترك بينها وبين المدينة مجالاً لامتداد بقع خصبة من الأرض بحيث تكوّن حدود السهل الشرقية في الحقيقة سلسلة من الجبال السوداء الواطئة . ويمتد السهل من الجنوب إلى أبعد مما يدركه البصر . وتتميز هذه الجهة بوفرة المياه وفرةً غير معتادة في الجزيرة العربية . فأن

جميع المياه تأتي من الجنوب ، أو من منطقة الحرّات ، فتتجه في جريانها إلى الشمال حيث تتجمع في زغابة فتنحرف وتجري نحو الساحل في وادي العِظَم . ولا تمتلىء هذه المجاري بالماء في العادة إلا بعد أن تهطل الأمطار في تلك المنطقة ، لكنها تغذي طبقة المياه الجوفية بحيث يكثر عدد الينابيع والعيون فيها . وتتكون بعد هطول الأمطار الغزيرة بحيرة واسعة الأرجاء في فضاء المناخة المجاور للبلدة ، وقد تكتسح سيول الماء بعض جهات البلدة فتغرقها وتهدد بعض الأبنية الكائنة في القسم الجنوبي منها . ومما يذكر في التاريخ أن طوفاناً من هذا القبيل حصل في أيام الخليفة عثمان فهدد البلدة بحيث أمر الخليفة بأنشاء سدة خاصة لحمايتها (البلاذري) . وحدث أشد من هذا الطغيان كذلك في سنتي ٦٦٠ و ٧٣٤ للهجرة حينما تصدع الحاجز البركاني الكبير بضغط الماء عليه .

ويكون الماء في بعض الجهات كثير الملوحة بحيث لا يستساغ ، ولذلك حاول عدد من الحكام المتعاقبين على المدينة مد قنوات خاصة لجرّ مياه صالحة للشرب من آبار عذبة المياه تقع في مكان أبعد من جهة الجنوب ؛ ولمجاري المياه ووديانها هذه أسماء مختلفة ، فهناك في الجهة الغربية العقيق ووادي بطحان ورنونا ، وفي الجهة الشرقية وادي القناة ومهزور والمذانيب. أما التربة فهي رملية مالحة ، وطينية مزيجية ذات طبيعة كلسية ، وتكون خصبة جداً في كل مكان ولا سيما من جهة الجنوب . ولذلك تجود فيها زراعة النخيل إلى آخر حد ، كما تجود زراعة البرتقال والليمون والرمان والموز والخوخ والمشمش والتين والأعناب . هذا ويكون شتاء المدينة بارداً مرطباً ، كما يكون صيفها حاراً لكنه نادراً ما يكون حاراً مرطباً . ويقول الرحالة الحديثون ان الهواء في المدينة عليل لطيف ، لكنه غير صحي تماماً ، وكثيراً ما تنتابها الحميات بشكل وبائي فيقع فريسةً لها القادمون الجدد على الأخص كما حصل للمهاجرين من أتباع النبي محمد

(ص) . ويقول الأستاذ بوهل ان الأمويين كانوا يسمونها « القذرة » مقابلة « للأسم المشرف الذي أطلقه عليها الرسول الأعظم وهو « الطيبة ».

ويقارن وضع المدينة الذي حبته أياها الطبيعة مقارنةً واضحة بوضع مكة المكرمة وموقعها الكائن في وادٍ صخري « غير ذي زرع » . فلم تكن المدينة منذ البداية بلدة كاملة بالمعنى الصحيح ، بل كانت مجموعة من البيوت والأكواخ محاطة بالبساتين والحقول المزروعة ، حيث كان ينصرف سكانها إلى الزراعة . ولذلك كان البدو يسمونهم « النبط » على سبيل الاحتقار ، على أن هذه المنازل المتناثرة أخذت تتصل بالتدريج وترتبط حتى تكون منها شيء يشبه البلدة ، على أن هذا كان يقع في شمال المدينة التي تكونت فيما بعد لأن اسم يثرب على ما يقول السمهودي كان يُقرن على الأخص بمكانٍ يقع في غرب قبر الحمزة ، حيث نزل بنو الحارثة في أول الأمر . ولم تكن البلدة التي نشأت بهذه الطريقة محوطة بسور لكن خطوط دفاعها كانت بساتين النخيل المكتظة والجنائن المحيطة بالبيوت . ولما كانت هذه البساتين أقل اكتظاظاً وكثافةً من الجهتين الشمالية والغربية فقد كانت هاتان الجهتان أشد تعرضاً للهجمات المعادية . كما كانت القلاع الصغيرة (أُطُم جمعها آطام) التي تبنى بأعدادٍ غير يسيرة تقوم مقام السور ، فقد كان بوسع السكان أن يتراجعوا إليها في أوقات الضيق والشدة .

التاريخ القديم

وجاء في البحث الذي تعقده دائرة المعارف الإسلامية أيضاً أنه لم يكن يوجد في العهود المتأخرة أخبار يُعتمد عليها عن أصل المدينة المنورة وتاريخها القديم . وقد حاول المؤرخون سد هذه الثغرة من عندهم فجعلوا ، كما فعلوا بالنسبة لأماكن أخرى ، جرهم والعمالقة يلعبون دوراً فيها . ولذلك لا نستطيع الاطمئنان إلى ما يروى من هذا التاريخ إلا ما يختص

منه بالفترة البادئة بقدوم اليهود إلى المدينة ، لكن المؤرخين لا يعرفون شيئاً عن الزمن الذي جاءوا فيه اليها بالضبط بحيث يجعلون لذلك علاقة بموسى في بعض الأحيان ، أو بسبي نبوخذ نصر لليهود في أحيان أخرى ، أو باستيلاء اليونان والرومان على فلسطين في بعض الأحايين . فقد كان اليهود ، على ما يشير اليه التلمود في عدة مناسبات ، موجودين في جزيرة العرب خلال القرون الميلادية الأولى ، ويقصد بذلك شمالي[1] الجزيرة العربية بالتأكيد . ويتضح وجودهم بكثرة فيها من وجود الجاليات اليهودية في تيماء وحجر ووادي القرى وفدك ومقنا التي كانت جالية المدينة اليهودية على اتصال بها . وقد كانوا في كل واحدة من هذه الواحات ينصرفون إلى فلاحة الأرض ويتفرغون لها ، ومن المحتمل أن تكون واحة من هذه الواحات قد تطورت إلى بلدة بواسطتهم . ويستدل على ذلك من اسم المدينة الآرامي نفسه ، وهو يثرب . كما يستدل من بعض الأبيات التي نظمها الشاعر حسان بن ثابت على أنهم أنشأوا عدداً من الحصون الصغيرة في هذه البلدة . لكننا يمكن أن نستلخص من كونهم لم يكونوا أول من فعل ذلك أن سكان المدينة الأقدمين لم يكونوا بدواً خلصاً . (ويذكر لامانس فيما كتبه عن الطائف أن هذه الحصون كانت تبنى على غرار حصون اليمن) .

وقد لعبت قبيلة بني قينقاع اليهودية دوراً بارزاً في الهجرة ، وسمي في دور متأخر أحد الأسواق المهمة في القسم الغربي من المدينة باسمها . لكن قبيلتي بني قريظة وبني النضير أصبحتا بعد ذلك أهم القبائل اليهودية في المدينة بالتدريج . وكان بنوقريظة يسكنون مع بهدل على وادي مهزور ، كما كان بنو النضير ينزلون على وادي بطحان . ويقول كاتب البحث انه بينما تذكر الأغاني في الجزء التاسع عشر أن بني قريظة وبني النضير

---

(١) Hirschfeld — Beitrage Zur Erhlarung des Koran, p. 49.

يعدون من اليهود الخُلّص . يقول اليعقوبي انهم لم يكونوا يهوداً أقحاحاً وانما كانوا قبيلتين عربيتين متهودتين تنتميان إلى بني جذام . ويؤكد على ذلك المؤرخ الألماني نولدكه فيشهد بصحة الرواية . ثم يعلق كاتب البحث على هذا بقوله انه في الوقت الذي قد يثبت فيه تأريخياً أن عدداً غير يسير من العرب قد تهودوا يومذاك . فان هناك مع ذلك أسباباً قوية للاعتقاد بأن العنصر اليهودي في المدينة لم ينشأ على هذه الشاكلة . فمن الأهمية بمكان أن بني قريظة وبني النضير كثيراً ما كان يطلق عليهم « الكاهنانية » . الأمر الذي يدل على أن اليهود كانوا على علمٍ بسلسلة نسبهم وأنهم كانوا يؤكدون على أصلهم . ويلاحظ الشيء نفسه من أن السيدة صفية التي تزوجها النبي . وهي من بني النضير . كانت تعرف بكونها من سلالة هارون . لكن القول الفصل في هذا الشأن لمـا جاء في سور القرآن المدينة التي يخاطب بها يهود المدينة أنفسهم . فأنها تسميهم « بني إسرائيل » . وتذكرهم بأن الله قد فضلهم على الناس . وتحشرهم مع بني أسرائيل القدماء كما لو كانوا قد أسهموا في الهجرة من مصر[١] . وقد أنزل الله الكتاب على موسى ليهديهم إلى السبيل السوي[٢]، لكنهم خرجوا على القواعد التي وضعها ليسيروا على منوالها في ميثاقه معهم . وتدل هذه الإشارات بأوضح ما يمكن على أن النبي (ص) كان يعتبرهم متحررين من أصلاب بني إسرائيل القدماء . وعلى هذا فلا بد من أنـه كان هناك ، علاوةً على العرب المتهودين ، أناس من اليهود الأقحاح ، ومن الواضح في الحقيقة أنه لو لم يوجد من هولاء لما كان من الممكن أن يتهود أحد من العرب . وقد أشار فيلهاوزن بالإضافة إلى ذلك أشارةً بارعة إلى أن اليهود الذين وجدوا بين العرب بلغتهم ، ومعرفتهم بالتوراة ،

---

(١) الآية الكريمة : وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده .
(٢) الآية الكريمة : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل .

وبطراز حياتهم ، وولعهم بالسخرية الماكرة ، والفنون السرية والسحر والتعذيب ، وبتخوفهم من الموت ، يعطون انطباعاً لا يمكن أن يفسر بكونهم كانوا عرباً متهودين . لكننا يجب أن لا ننسى من جهة أخرى أن اليهود في جزيرة العرب كانوا قد تأثروا كثيراً بمحيطهم ، فكوّنوا شخصيةً خاصة بهم . فإننا نجد مثلاً أنهم كانوا منقسمين إلى قبائل وأسر ومتخلقين بالأخلاق الناجمة عن مثل هذا الوضع الذي يعد من الخصائص العربية . ولا نستطيع أن نرجع بأسماء هذه القبائل إلى أصوّل يهودية قديمة ، وإنما هي أسماء عربية خالصة في مظهرها ، كما هي الحال كذلك في اسماء الافراد التي نادراً ما توجد بينها اسماء يهودية مثل سموأل وسارة . ويلاحظ استعراب اليهود على الأخص في قصائد الشعر المنسوبة إلى اليهود ، وأكثرها كان من الممكن أن يكون من نظم البدو العرب [١] .

الاوس والخزرج

وبينما كان اليهود هم العنصر البارز في أماكن مثل خيبر وفدك وما أشبه ، فقد تغير وضعهم في المدينة بهجرة القبائل اليها التي يغزوها العرب إلى تصدع سد مأرب ، وما أدى اليه من هجرة القبائل العربية التي كانت تقطن القسم الجنوبي من الجزيرة العربية . فبهذه الطريقة جاءت قبائل قيلة ، على ما كانت تسمى يومذاك ، أو قبائل الأوس والخزرج إلى المدينة . وليست هناك تفصيلات مدونة عن كيفية مجيء هذه القبائل ، لكنه يفهم من بعض ما يكتبه ابن خرداذبه وياقوت أنهم ظلوا مدة طويلة من الزمن خاضعين لليهود وتابعين لهم ،وأن هذا القسم من جزيرة العرب الشمالية كان في ذلك الوقت خاضعاً للحكم الفارسي . على أن عرب قيلة تمكنوا بعد ذلك من خلع النير اليهودي عنهم وإخضاع اليهود إلى

---

(١) يعتمد الكاتب في هذا الجزء من البحث على المستشرق الألماني نولدكه في كتابه :
Beitrage Zur Kenntniss der Poesie der alten Araber, p. 52.

حكمهم . وتقول الروايات أن هذا تم حينما حاول ملكٌ قوي من ملوك اليهود يدعى فيتون أن يمارس حقه الأقطاعي المزعوم في اغتصاب إحدى البنات البواكر ، فقتله رجلٌ من الخزرج يسمى مالك بن العجلان ، انقاذاً لشرف أخته . أما ما أعقب ذلك فهناك روايتان مختلفتان ، تنص إحداهما على أن ابن العجلان التجأ بعد صنيعه هذا إلى ملك من ملوك الغساسنة يدعى أبا جبيلة طالباً معونته ، بينما تنص الثانية على أنه التجأ في ذلك إلى تبع من تبابعة الجزيرة الجنوبية يدعى أسعد أباكرب .

وقد استولى أسياد يثرب الجدد على الحصون التي كان يشغلها اليهود ، وشيدوا عدداً آخر منها . وتعلموا كذلك فنون النبط منهم فأخـذوا يغرسون النخيل ويتخذون الفلاحة مهنةً لهم . ولما كان الخزارجة ، الذين كان بنو النجار (أوتيم اللات) أبرز أسرة فيهم ، أقوى القبائل يومذاك ، فقد اضطلعوا بالقيادة ونزلوا في القسم الأوسط من البلدة حيث توجد المدينة الحديثة في يومنا هذا . وسكنت إلى الغرب والجنوب منهم قبائل الخزرج الأخرى ، بينما كانت تمتد منطقة بني الحارث من جهة الشرق . أما الأوس ، الذين كانوا يتألفون من عدة أسر أيضاً ، فقد استقروا في جنوب أخوانهم وشرقيهم . كما نزل النبيت في الجهة الشمالية الشرقية بحيث كان يفصلهم عن أقاربهم بنو الحارث . على أن القبيلتين الرئيستين من قبائل اليهود ، وهما بنو قريظة وبنو النضير ، حافظتا على مقدار معين من الاستقلال واحتفظ أفرادها بأراضيهم في ظل الأوس ، بينما احتفظ بنو قينقاع بأراضيهم في الجهة الجنوبية الغربية مع أن صنعتهم الرئيسة كانت صياغة الذهب . وكان في المدينة عدا قبائل قيلة المهاجرة واليهود عدد من القبائل الأخرى التي كان قسمٌ منها موجوداً في يثرب حينمـا جاءت قيلة اليها . وكانت هذه القبائل على اتصال وثيق باليهود ، حتى تهود قسم منهم . وقد أدى استقرار الأمور على هذه الحالة إلى تمتع يثرب بفترة طويلة من السلم الذي أخذ يتعكر صفوه بالتدريج بتزايد الخصومة

التي نشبت ما بين قبيلتي قيلة الكبيرتين ، أي بين الأوس والخزرج . فقد تخاصمت الأسر على انفراد في بادىء الأمر وتقاتل أفرادها فيما بينهم . لكن الخصومة اشتد أوارها بالتدريج وامتد لهيبها بحيث صار يهدد وجود البلدة بأسرها . غير أن الاختلاف أمكن حله بالتحكيم ، لكن الهدوء ما استقام طويلاً حتى تجدد الاحتكاك بين الطرفين فأدى إلى استئناف النزاع والقتال الذي كان سبب القسم الأشد منه انتقام خاطب في هذه المرة . ويشير إلى هذا قيس بن الخطيم في أشعاره ، وهو من أسرة أوسية تنتمي إلى بني النبيت . على أن القتال تطور في جميع الأحوال في غير صالح الأوسيين ، وطرد بنو النبيت في الأخير من ممتلكاتهم . فطلب الأوس وهم في محنتهم هذه مساعدة القبيلتين اليهوديتين الرئيستين ، فرفض اليهود التدخل بادىء ذي بدء غير أن الخزرج عمدوا إلى ذبح البعض من رهائن اليهود فأدى ذلك إلى إقدام اليهود على التحالف مع الأوس وأعلنوا استعدادهم للمساعدة . فأعقب هذا وقوع معارك طاحنة اشتركت فيها القبيلتان العظيمتان بكل قواهما ، وسائر سكان يثرب ، وحتى البدو المحيطون بالمدينة . غير أن موقعة بُعاث التي استعد لها الفريقان خلال مدة طويلة من الزمن كانت هي الحاسمة في النهاية . وقد بدا بادىء ذي بدء كما لو كان الأوس سيُغلبون أيضاً ، لكن الآية انقلبت في الأخير فأصيب الخزرج بانتكاسة شديدة . ومما يجدر ذكره هنا أن عبد الله بن أبيّ الخزرجي أبدى في هذه المناسبة نفس التردد الذي أبداه بعد ذلك عندما أقدم على معارضة محمد (ص) . فقد نزل إلى ميدان الحرب مع الآخرين لكنه لم يشترك فيها ، وهرب فعلاً يوم العرارة . هذا وقد استعادت موقعة بعاث التوازن بين القبيلتين الرئيستين ، لكن القتال المستمر كان قد استنزف قوى البلدة بأجمعها وجعلت الروح العدائية التي كانت تفصح عن نفسها بين حين وآخر حياة الناس شيئاً لا يطاق يوماً بعد يوم . وعند ذاك حدث انقلاب خطير بين سكان المدينة ، الذين كانت بهم

حاجة إلى زعيم كبير يمسك زمام الأمور بيد من حديد ، حينما قُيض لهم أن يتصلوا بالنبي محمد الذي لم يكن قد أصاب يومذاك إلا نجاحاً يسيراً في اجتذاب المكيين إلى اعتناق تعاليمه الدينية .

ديانة أهل المدينة قبل الإسلام

وكانت قبائل قيلة حينما هاجرت إلى يثرب تدين بعبادة الأوثان ، شأنها في ذلك شأن الأكثرية الساحقة من العرب وكانت الآلهة الكبرى التي يعبدونها « مناة » التي سميت أوس الله باسمها منذ البداية ، لكنهم كانوا يوقّرون اللات كذلك من الآلهات الأخرى . ويقول بوهل في دائرة المعارف هذه ، خلال إلحاحه الممل في البحث على تأثير اليهود في المدينة والإسلام ، إن هذه القبائل كانت خلال معيشتها إلى جنب اليهود قد تأثرت بمعتقداتهم الدينية وتعاليمهم الأخلاقية . لكننا ويا للأسف لا نعلم إلا النزر اليسير عن وجهة نظرهم الروحية قبل قدوم النبي الأعظم إلى المدينة فإن قيساً شاعرهم يشير بطريقة بدوية في الدرجة الأولى إلى المشاحنات التي كانت تحصل بين القبائل والأسر فقط ، ونادراً ما كان يتعرض بشيء إلى الشؤون الدينية . وهو يتطرق بين حين وآخر إلى ذكر الآلهة المحلية لكنه يشير إلى الله الذي كان يسميه الخالق ، ويعد هذا نفسه دليلاً كافياً على وجود التأثير اليهودي أو المسيحي (كذا) . وإلى جانب هذا كله كانت هناك فئة من الناس قد ذهبت في مفاهيمها إلى أبعد من ذلك خلال احتكاكها باليهود أو المسيحيين ، حتى صار أفرادها يعرفون بالأحناف لأنهم كانوا يعترضون بجزم على عبادة الأوثان المعتادة ، ويميلون إلى الزهد والتنسك . فقد كان أبو الهيثم وأسعد بن زرارة مثلاً يقرّون بالتوحيد قبل أن يتعرفوا بالنبي محمد (ص) . ومن نتائج العيش مع اليهود (كذا) في المدينة ، على رأي بوهل ، أن فن الكتابة كان يعرف تمام المعرفة فيها .

وقد أصبح تأثير اليهود الروحي على سكان المدينة العرب عاملاً مهماً في علاقاتهم بالنبي محمد (ص)، لأنه جعلهم يتقبلون تعاليمه الدينية بسهولة حينما تعرفوا عليها خلال ترددهم على مكّة، وبالطرق والوسائل الأخرى.

المدينة في عهد النبي الأعظم

وبعد أن تتطرق دائرة المعارف الإسلامية إلى تعرف النبي الأمين على نفرٍ من أهل المدينة واعتناقهم لمبادئه الدينية، وعقده وأياهم معاهدة لحمايته، كما يرد في كتب التاريخ المعروفة، تذكر هجرة المسلمين السرية إلى المدينة، وهجرة النبي (ص) من بعدهم بالكيفية التي تذكرها الكتب التاريخية كلها كذلك.

وتقول دائرة المعارف هذه علاوةً على ذلك (عند بحثها عن النبي) إن هجرته إلى المدينة قد اتخذها المسلمون بحق بدايةً لتاريخهم الهجري المعروف، لأنها تعتبر المرحلة الأولى لحركة خطيرة جداً تمكنت في مدة وجيزة من الزمن أن تصبح ذات أهمية كبرى في تاريخ العالم. ثم تذكر أن الحسابات الاعتيادية تجعل وصول النبي إلى قبا في ضواحي المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول الواقع في السنة الأولى للهجرة بطبيعة الحال، أي في يوم ٢٤ أيلول سنة ٦٢٢ للميلاد. وبعد أيامٍ قلائل انتقل إلى موطنه الجديد، فألقت المهمة الجسيمة التي كانت تنتظره عبئها الأكبر على قابلياته التنظيمية والدبلوماسية.

وقد جعل النبي صلوات الله وسلامه عليه إقامته الأولى في دار أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري الخزرجي حتى استطاع تهيأة منزلٍ خاص به. وليس هناك شيء مطلقاً يدل بوضوح على مواهبه، المبنية على عقيدته برسالته النبوية المقدسة، في قيادة الرجال وإقناعهم بالرضوخ لإرادته، مثل نجاحه خلال مدة قصيرة جداً في تهدئة الأمور في المدينة

وفرض نوع من النظام فيها ، بعد أن كادت تمزقها الأحقاد والضغائن . وفي توحيـــد خليط متنافر من السكان يتألف من سكان يثرب العرب القدماء ، وقبائل قيلة التي أصبحت مهيمنة فيها ، والمهاجرين الجدد من مكة ، واليهود أو العرب المتهودين . ويقول بوهل إننا نستطيع أن نتبين ما فعله النبي (ص) في هذا الشأن من « الكتاب الذي كتبه الرسول بين المهاجرين والأنصار لموادعة اليهود » المثبت في سيرة ابن هشام . وكان أول بيان يصدره في المدينة . ونرى من الأفضل هنـــا أن نورد نص[١] الكتاب نفسه بدلاً من تلخيص ما تذكره عنه دائرة المعارف الإسلامية :

قال ابن اسحق : وكتب رسول الله (ص) كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من النبي محمد (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدّي عانيهـــا بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفةٍ منها تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفةٍ منها تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى

---

(١) سيرة ابن هشام ، الجزء الثاني ، الص ١١٩ ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة غير المؤرخة بأشراف محمد محيى الدين عبد الحميد .

وكل طائفةٍ منها تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفةٍ منها تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفةٍ تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة : يجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فأن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة : لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قَوَد به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل لمؤمنٍ أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره وآواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة . ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن [illegible] إلى الله عز وجل

وإلى محمد (ص)، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من أظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من أظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف وأن البرّ دون الأثم وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وانه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد (ص)، وأنه لا ينحجز على ثار جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الأثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس مضا ولاآثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بأذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل ومحمد (ص)، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين : على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة.

وأنّ البرّ دون الأثم : لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جارٌ لمن برّ واتقى ، ومحمد (ص) » انتهى [1] .

لكن شروط هذا العهد سرعان ما أُهملت ، على ما يقول بوهل ، نظراً لتطور الحوادث السريع في المدينة ، ومن الطبيعي أن ذلك لم يكن مخالفاً لما كان يريده النبي الذي ذهبت خططه إلى أبعد مما نص عليه في الكتاب . والسبب الرئيسي في فقدان الكتاب المذكور لأهميته هو خبث اليهود بالشروط الموضوعة وتحركهم للعمل ضده والهزء بما جاء به . فقد أخذوا يحاولون إثارة الضغائن القديمة بين الأوس والخزرج ويدسون عليه في كل فرصةٍ أو مناسبة .

على أن النبي ردّ على ذلك بالعمل المتواصل في توحيد أتباعه ليستطيعوا الوقوف ضد خصومه الأصليين في مكة . ويتطرق بحث دائرة المعارف الإسلامية بعد ذلك إلى موقعة بدر وأُحُد والخندق ، ويقول كاتبه عند ذكر موقعة الخندق ان ابن جبير شاهد في القرن الثاني عشر بقايا الخندق المذكور في المدينة ، وان قريشاً هم الذين كانوا السبب في انتصار المسلمين فيها لأنهم أبدوا كثيراً من الخور والجهل بأصول الحرب . ثم يعقب على ذلك بقوله ان مركز النبي قوي كثيراً بعد هذه الموقعة في المدينة ، حتى تسى له أن يقضي على خصومه في الداخل من اليهود والمنافقين . وقد استطاع أن يكيل الصاع صاعين لليهود ، ويعاملهم بشدة وقسوة في مختلف المراحل . فقد أخرج بني القينقاع من المدينة بعد انتصاره المدوّي في وقعة بدر ، وأخرج بني النضير منها بعد غزوة أُحُد التي لم يكن النصر

---

(١) مر هذا العهد علينا في بحث الدكتور حسين أمين وقد تطلب سياق البحث والعرض اثباته هنا مرة ثانية مراعاة لتسلسل الحديث وكونه اصبح مصدراً من مصادر مؤرخي الغرب المنصفين عن رسالة محمد (ص) ودعوته للسلام الشامل لكل الشعوب . الخليلي

حليفه فيها . أما بنو قريظة فقد ذبحوا ذبحاً لا رحمة فيه برغم توسط الأوس لهم . وبهذه الطريقة نجح النبي عليه السلام في التخلص من الخطر الذي كان يتهدده من ناحية اليهود ، لأن الذين بقوا منهم في المدينة لم يعد لهم شأن يذكر فيها .

ولقد أصبحت الحرب في حكم المنتهية مع قريش عندما عقد النبي معهم صلح الحديبية في سنة ٦ للهجرة ، لأن عبقرية الديبلوماسية استطاعت أن ترغم قريشاً بها على الاعتراف بالمدينة واعتبارها قوةً تضاهي مكة في أهميتها . لكن الانتهاء الرسمي لكفاحه عليه السلام مع قريش قد حصل عندما تم له فتح مكة من دون إراقة دماء في العام الثامن للهجرة . على أن هذا النصر على عظمته ، وعلى ما كان فيه من ظفر وموفقية للنبي ، قد سبب حدوث توتر جديد كُتب له أن يكون شيئاً مؤذياً للإسلام بعد وفاة النبي . وهنا يتطرق كاتب البحث إلى الاختلاف بين المهاجرين والأنصار ، والدور الذي كان يلعبه عبد الله بن أبي فيه ، وإلى قضية بناء مسجد ضرار وهدمه ، وغير ذلك .

هذا وقد برّ النبي عليه السلام بوعده لأصحابه حينما عاهدهم على البقاء في المدينة حتى النهاية ، وعدم الانتقال إلى مكة بعد فتحها ، فبقي فيها حتى توفي في ٨ حزيران سنة ٦٣٢ للميلاد ودفن فيها . ويقول الدكتور بوهل ان الخليفتين أبا بكر وعمر قد دفنا ، كما دفن النبي ، في بيت عائشة ، بينما جيء بجثة عثمان محمولة « على خشبة » في ظلمة الليل إلى المقبرة خلال عاصفة من التنديد والرمي بالحجارة [1] . ولم يفكر أحد خلال هذه المدة بتقوية خطوط دفاع العاصمة الإسلامية العتيدة ، حتى ولا في أيام الردة التي أعقبت وفاة النبي . وكان الخليفة الثالث قد أمر

(١) تستند دائرة المعارف الإسلامية في هذا الخبر على ما ذكره المسعودي في تاريخه وما ذكره في كتاب التنبيه .

بهدم الحصون التي كانت موجودة في المدينة ، لكن آثارها بقيت شاخصة للعيان حتى أواخر القرن العاشر .

المدينة بعد مقتل عثمان

ومما جاء في دائرة المعارف الإسلامية عن هذا العهد أن خلافة الإمام علي في المدينة قد أحدثت فيها تبدلاً تاماً . فحينما نشبت الحرب الأهلية بينه ـبين خصومه ، ووقعت المواقع الحربية الحاسمة في الأقاليم أدرك الإمام علي عليه السلام أن الامبراطورية الواسعة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تُدار من زاوية بعيدة من زوايا العالم التي تقع فيها المدينة . وبينما كان الخلفاء الأوائل يبقون في العاصمة ويسوقون جيوش الفتح منها إلى مختلف الأنحاء ، قاد الإمام علي جيوشه بنفسه وغادر المدينة في سنة ٣٦ـ٦٥٦ ولم يعد اليها منذ تلك السنة . فقد اتخذ الكوفة عاصمة له ، وبقيت كذلك حتى حلت دمشق في محلها حينما تولى معاويــة . فأصبحت المدينة ، كما أصبحت مكة من قبلها ، مدينةً أقليمية ثانوية غير متأثرة بمجرى الأحوال في العالم الخارجي . ويمكن الوقوف على رأي المتعبدين القدامى من الصحابة في هذا التبدل الجوهري من الحديث الذي دار بين الإمام علي وبين عددٍ من وجوه الأنصــار الذين ذهبوا ليقنعوه بالعدول عن مغادرة المدينة . فقد قال له عقبة بن عامر وكان بدرياً « يا أمير المؤمنين إن الذي يفوتك من الصلوة في مسجد رسول الله (ص) والسعي بين قبرهِ ومنبره أعظم مما ترجو من العراق ، فإن كنت إنما تسير لحرب أهل الشام فقد أقام عمر فينا وكفاه سعد زحف القادسية ، وأبو موسى زحف الأهواز ، وليس من هؤلاء رجل إلا ومثله معك والرجال أشباه والأيام دول » فقال علي « ان الأموال والرجال ، بالعراق ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها [1] » .

---

(١) نقلا عن الدنيوري في الأخبار الطوال ، وهو مــا اقتبسه كاتب البحث في دائرة المعارف الإسلامية .

المدينة في عهد الأمويين والعباسيين

ولا شك أن المدينة بكل ما فيها من ذكريات دينية عزيزة على المسلمين ، وبالجدث الطاهر المقبور في تربتها ، لا يمكن أن تصبح مدينة مهملة على الإطلاق . وإنما كان الأمر بالعكس ، فقد أخذت قدسيتها تزداد في أعين المسلمين كلما عظمت شخصية النبي الأعظم في نظرهم لكن حياة البلدة نفسها ظلت تبعد شيئاً فشيئاً عن العالم الحقيقي الذي كانت تتكشف فيه حوادث التاريخ الفعلي . وصار يقصدها الراغبون في البقاء بمعزل عن فوران الوقائع السياسية ، مثل ما فعل الحسن بن علي (ع) بعد تنازله عن حقه في الخلافة . وقصدها الحسين كذلك من الكوفة ، لكنه غادرها من جديد ليحاول محاولته اليائسة في الحصول على حقوقه المهضومة . لكن المهم أن أحداً من أنصار المدينة لم يخرج معه إلى الكوفة . وحينما استشهد بذلك الشكل المؤلم المؤسف جيء بنسائه وابنه إلى المدينة ، حيث عاشوا بهدوء وسلام من دون أن يسهموا في القتال . وقد أقام محمد بن الحنفية كذلك في المدينة . على أن أقرباء النبي وأتباعه المخلصين لم يكونوا وحدهم هم الذين يفضلون العيش في مدينته المقدسة ، وإنما فعل ذلك أيضاً البعض من الأمويين ، أعدائه السابقين[١] ، الذين كانت تجذبهم المدينة اليها بهدوئها الشامل وحياتها الرخية وبهذه الطريقة أصبحت المدينة موطناً لطبقة جديدة من السكان تتألف من إناس يريدون التمتع بالثروة العظيمة التي جاءت اليهم بها حروب الفتح المختلفة من دون إزعاج . وقد صارت الحياة فيها على جانب أكبر من الترف والرخاء بالتدريج حتى غدت في الأخير ، وهي المدينة المقدسة ، رديئة السمعة بحيث أن مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين سأل أحد المشتركين

(١) Lammens — Etudes sur le règne de Mo'awia, p. ٥٥.

في ثورة قامت فيها سنة ١٢٧ ـ ٧٤٥ كيف أن خمور المدينة وجواريها لم تقعده عن الالتحاق بها . ويعقب كاتب البحث هذا بعد ذلك بقوله ان مثل هذه القصص عن المدينة تذكرنا بالوصف الذي أورده الرحالة دوطي [١] في رحلته إلى المدينة (سنة ١٨٧٨) عن سكان المدينة في أيامه . فهو يقول « ان المقامرة وأنواع اللعب وإدمان شرب العرق وتعاطي المخدرات ، كانت توجد فيها كلها * » .

وكانت هناك طبقة أخرى من الناس تفضل السكنى في المدينة والاعتزال فيها ، وهي طبقة الناس الذين لا يقيمون وزناً للأغراض والمباهج الدنيوية . وكان هؤلاء يكرسون حياتهم للعيش بين أطلال الماضي المقدس للمدينة ، وجمع الأحاديث النبوية لدراستها وتمحيصها ، علاوةً على تفسيرها وتوضيح ما ترمي اليه ، ومقدار مطابقتها للسنة والأجماع في المدينة . وأبرز شخصية من بين هذه الطبقة مالك بن أنس (المتوفى سنة ١٧٩ ـ ٧٩٥) صاحب الموطأ ، الذي كان وهو مؤسس المذهب المالكي يجمع الكثيرين من تلاميذه حوله ويفقههم في أمور الدين . وقد كتب ابن زبالة أحد تلامذته أول كتاب في تاريخ المدينة (١٩٩ ـ ٨١٤) لكنه لم يصل الينا .

وقد كانت المدينة يحكمها في هذه الفترة حكام يعينهم الخليفة من دمشق أو بغداد . على أنها لم تكن في عزلة تامة عن التأثر بالحروب التي نشبت خلال القرون الأولى التي تقضت بعد وفاة النبي (ص) . ففي أيام يزيد بن معاوية كان شعور أهل المدينة ، وحتى الأمويين منهم ،

---

(١) Doughty, Charles M — Travels in Arabia Deserta Third Edition, p. 151.

(*) نقول من باب التأكيد أن كل ما يرد هنا من أقوال نتركه على حاله دون تعليق إلا ما نرى التعليق ضرورة لازمة الخليلي

معادياً للخليفة حتى انحاز الكثيرون منهم إلى جانب خصمه عبد الله بن الزبير في مكة. وقد منيت الحملة التي جردها يزيد عليها بقيادة حاكمها عمرو بن سعيد بالفشل. وفي سنة ٦٣ — ٦٨٢ — ٨٣ ثار أهل المدينة على الخليفة ثورةً علنية وعينوا عبد الله بن حنظلة قائداً عليهم، ثم شيدوا لها سوراً وحفروا خندقاً في الجهة الشمالية منها. لكن يزيداً ساق اليها جيشاً يقوده مسلم بن عقبة. فاتخذ هذا مقراً له في الحرة الكائنة في شمال شرقي البلدة. وعند ذاك وقعت موقعة الحرة المعروفة التي انتهت باندحار أهل المدينة، بتأثير الخيانة التي بدت من بني حارثة. وهنا يشكك كاتب البحث بالرواية الثابتة عند المؤرخين المسلمين عن انتهاك حرمة المدينة وأهلها وهتك أعراضها، وسلب أموال الناس فيها، بأمر من يزيد. ويستند إلى ما كتبه فلها وزن في هذا الشأن[1]. ثم يستأنف الكتابة ويقول ان الخوارج استطاعوا بقيادة قائدهم أبي حمزة من دحر أهل المدينة في كبيد قبيل انتهاء الحكم الأموي. لكن أبا حمزة فوجىء بجيوش مروان فذبح في المعركة.

وحينما تولى العباسيون الخلافة بعد ذلك حاول أخوان علويان، محمد وابراهيم، من أبناء عبد الله بن الحسن الحصول على حصتهما في الحكم عن طريق القتال. فقد أطلق محمد على نفسه لقب المهدي وظهر في المدينة سنة ١٤٥—٧٦٢—٦٣، حيث وجد عدداً غير قليل من الأتباع والموآزرين الذين كان من بينهم مالك بن أنس وأبو حنيفة. وحاول بطرق شتى تقليد النبي، فتمنطق بسيفه وحفر الخندق حول المدينة وفعل أشياء أخرى. لكن الخليفة ساق عليه جيشاً يقدر بأربعة آلاف مقاتل بقيادة قريبه عيسى بن موسى، وحينما نصب القناطر فوق الخندق بعد عددٍ من الأبواب ودخل المدينة تخاذل معظم أتباع المهدي كما كان من

(١) Wellhausen — Das Arabioche Reich, P, 98,

المعتاد أن يحصل لدى أتباع العلويين . وعندما جدد كفاحه أمام الجيش الزاحف خر قتيلاً في المعركة . وبعد عشرين سنة ثار علوي آخر في المدينة يدعى الحسين بن علي ضد العباسيين ، وبعد حصول تدمير غير يسير في المدينة أُخرج منها فقتل في فخ بالقرب من مكة . ويقول بوهل ، وهو يبدي لهجة مناوئة للعلويين في بحثه : ان قتيل فخ هذا قد مجده الحزب العلوي تمجيداً غير يسير برغم الدمار الذي أنزلته حركته في مدينة الرسول . ولا شك أن هذا هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ع) ، على ما جاء في مقاتل الطالبيين .

وفي أيام الواثق الخليفة العباسي تكبدت المدينة خسائر فادحة من هجمات سُلَيم وبني هلال عليها . فخف لإنجادها بغا الكبير سنة ٢٣٠ — ٨٤٤ — ٤٥ وحبس البدو . لكنهم أفلحوا في الإفلات من السجن حينما غادرها هذا القائد . فاكتشف أمرهم أهل المدينة وقضوا عليهم بأجمعهم وقد أبدى المدنيون محبتهم للخليفة الواثق بندبه والنوح عليه في ليال متعاقبة بعد موته .

في أيام الفاطميين وما بعدهم

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية كذلك أن المدينة قد خمل ذكرها بعد هذا بحيث لم يعد يذكرها المؤرخون إلا في النادر . وحتى عندما كانت تذكر فإن ما كان يكتب عنها لم يكن شيئاً ذا بال في الأعم الأغلب . وحينما تولى الفاطميون في مصر ، وصاروا يهددون المدينتين المقدستين في الحجاز ، شيد سور خاص حول المدينة في النهاية . وقد فعل ذلك عضد الدولة البويهي سنة ٣٦٤ — ٩٧٤ — ٩٧٥ ، لكن هذا السور لم يكن يحيط إلا بالقسم الأوسط من البلدة . وقد أعاد تشييد هذا السور في ٥٤٠ — ١١٤٥ — ٤٦ وزير من وزراء زنكي . ولما كان عدد غير يسير من السكان أصبح يعيش في خارج السور وهو في هذه الحالة

التي لا تحميهم من هجمات الأعراب فقد شيد أتابك سورية نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٥٧ – ١١٦٢ سوراً ثانياً يمتد امتداداً أوسع حول المدينة ، ويحتوي على عدد من الأبراج والأبواب الكبيرة . أما السور الحالي (كتب البحث في أوائل القرن هذا) الذي يتراوح ارتفاعه بين ٣٥ و ٤٠ قدماً فقد بناه السلطـــان سليمان القانوني بن السلطان سليم (١٥٢٠ – ١٥٦٦) من حجر البازلت والغرانيت ، وحفر خندقاً مناسباً من حوله . وقد شق السلطان نفسه قناةً مغطاة وأوصلها من الجهة الجنوبية إلى داخل البلدة . وأخيراً رفع السور إلى ارتفاع ثمانين قدماً في أيـــام السلطان عبد العزيز ، وبقي على ارتفاعه هذا منذ ذلك اليوم .

في عهد الاتراك العثمانيين

وبقيت المدينة تعيش في ظل العهد التركي عيشة وادعـــة هادئة ، لا تعبأ إلا قليلاً بالعالم الخارجي ، ونادراً ما كان يأتي ذكرها في حدث مهم . وقد ساعد على ذلك وضعها الديني الخاص وكون الدخول اليها محرماً على غير المسلمين . غير أن انقلاباً جذرياً حدث فيها في أوائل القرن التاسع عشر . فقد استولى عليها الوهابيون في ١٨٠٤ ، ونهبوا خزائنها ، ثم منعوا الحجاج عن زيارة القبر المطهر فيها . وقد باءت محاولة بدرت منهم لتهديم القبة بالفشل ، لكن خزائن اللؤلؤ والجواهر العظيمة الـــتي كان زوار القبر المطهر قدموها هديةً إلى الجامع الكبير قد تناهبتها الأيدي الأثيمة واختفت من مكانها . ولم يستطع طوسون بن الخديوي محمد علي باشا من استرداد المدينة من الوهابيين إلا في سنة ١٨١٣ ، وفي معاهدة الصلح المعقودة في ١٨١٥ اعترف عبد الله بن سعود بتابعية الأماكن المقدسة في الحجاز إلى الأتراك . وقد جاء هذا الاسترداد بشيء جديد واحد على الأقل إلى تلك الأنحاء ، وهو إنشاء سكة حديد الحجاز بين دمشق والشام والمدينة نفسها سنة ١٩٠٨ . وكان الغرض الرئيسي من إنشائها نقل الحجاج

إلى البلاد المقدسة ، لكنها كانت لها أهمية عسكرية خاصة كذلك ، ومن أجل هذا تعرضت إلى تخريبات غير قليلة خلال الحرب العالمية الأولى . وعلى أثر الصلح الذي عقد بانتهاء الحرب العالمية أخلت الجيوش التركية المدينة في ١٩١٨ .

وظهر في الوقت نفسه خصم جديد للملك حسين في الحجاز ، وهو الملك عبد العزيز بن سعود الذي رفع الوهابيين إلى موقف السيطرة من جديد . فإن حركة الحسين الجريئة في انتحال صفة الخلافة لم تقابل بالتأييد ما بين أمراء العرب ، فاضطره سكان الحجاز إلى التنازل عنها . وقد اغتنم ابن سعود هذه الفرصة ودخل في تشرين الأول ١٩٢٤ ، بعد أن أجبر علياً بن الحسين على مغادرتها . وعلى هذا سقطت المدينتان المقدستان في أيدي الوهابيين وأصبحتا تابعتين إلى المملكة السعودية منذ سنة ١٩٣٢ . وغدا الوهابيون بمرور الزمن أكثر تساهلاً في السماح بزيارة الجامع الذي يقوم فيه الضريح المطهر وسائر البقع المقدسة ، ومنعوا التعبد فيها فقط .

وصف المدينة بشكلها الأخير

جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن المدينة برغم حظر الدخول اليها على غير المسلمين فإن كتابات الرحالة الحديثين على اختلاف أنواعهم تساعدنا على تكوين صورة واضحة عنها في مخيلتنا ، يمكن إيرادها هنا بصورة موجزة . فالسهل الذي تقع فيه المدينة يقسم إلى قسم أعلى جنوبي وقسم أسفل شمالي ، أي « العالية » و « السافلة » ، وقد ورد هذان الأسمان حتى في الكتابات القديمة . وتمتد العالية إلى قرية قبا الكائنة على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، كما تمتد السافلة إلى جبل أُحد . ويضم السور القديم المدينة الأصلية في داخله ، كما يضم السور الجديد ــ المتهدم قسم غير يسير منه في الوقت الحاضر ــ ضاحية العنبرية الغربية الواسعةو « برّ المناخة »

الذي يبلــغ عرضه حوالي أربع مئــة ياردة ما بــين السور والمدينة . ويشار هنا إلى موضع « المصلى » التقليدي . وعلى طول الجانب الجنوبي من السور يمتد « درب الجنازة » الذي يؤدي إلى المقبرة العامة ، وهي مقبرة البقيع . أو « بقيع الغرقد » في القسم الشرقي من البلدة . ومن بين الآلاف المدفونين هنا ابراهيم بن النبي ، وزوجاته . والكثــيرون من أصحابه . والعباس . ومحمد الباقر . وجعفر الصادق . وقد نسي الكاتب أن يذكر هنا أيضاً الإمامين الحسن بن علي ، وعلي بن الحسين عليهم السلام والفقيه مالك بن أنس ، وغير هؤلاء كثيرون .

ويقوم في الزاوية الشمالية الغربية من البلدة القصر المبني على سورها . وهناك عدة أبواب في السور ، بما فيها باب الجمعة في الشرق ، وباب العنبرية في الغرب . ومن ينبوع من الماء العذب يقع في قرية قبا تمتد قناة خاصة إلى البلدة ، وكان قد شقها أول مرة مروان حاكم المدينة . وكثيراً ما كان يهمل ترميم هذه القناة وتعميرها في مختلف العهود ، لكنها كانت ترمم بين حينٍ وآخر كما تم على عهد عدد من سلاطين آل عثمان ، وآخرهم عبد الحميد الذي رممها بعد أن هدمها الوهابيون .

وقد تعرضت المدينة إلى كثير من الأضرار بفعل السيول والفيضان في مختلف الأدوار . فقد تعذر على أهل المدينة في سنة ٧٣٤ زيارة قبر الحمزة خلال مدة تناهز الستة أشهر بسبب الفيضان . أما شوارعها فهي نظيفة لكنها ضيقة في الغالب ، ولم يبلط منهــا سوى الشارع الرئيسي وتبنى البيوت بناءً متقناً بالحجر ، وعدد غير يسير منها يتكون من طابقين أيضاً . وهناك عدة بيوت محاطة بحدائق وبساتين . لكن المحاطة ببساتين توجد في العادة خارج السورين الشمالي والجنوبي ولا سيما من جهــة الجنوب ، حيث تتناوب حقول الخضروات وبساتين الفاكهة مع بساتين النخيل وحقول القمح . ويزرع في المدينة سبعون نوعاً من أنواع التمور التي تعد من حاصلات البلاد الرئيسية كما كانت من قبل . على أن حركة

الحجاج تعد أهم مورد مالي للسكان الذين يؤجرون مساكنهم إلى الغرباء ويزوّروهم الأماكن المقدسة ، كما يعلّمونهم الشعائر والواجبات الدينيـة الخاصة بالزيارة . ويلعب « المزوّرون » في المدينة نفس الدور الذي يقوم بـه المطوفون في مكة . أما السكان فقد ذكر الرحالة بورتون (١٨٥٣) أن نفوس المدينة كانت تبلغ ١٦٠٠٠ — ١٨٠٠٠ نسمة مع أربع مئة رجل في الحامية . لكن ويڤل يجعل نفوسها في سنة ١٩٠٨ ثلاثين ألف نسمة عدا الجند والحجاج الزوار ، بينما يقول البتنوني في رحلته أن نفوسها تبلغ ستين الف نسمة بما فيهم عددٌ من الأجانب . ويقول الرحالـة بورخارت (١٨١٥) أن الأسر المتحدرة من سلالات الأنصار الأصليين لا يزيد عددهم على العشر في المدينة ، وأن عدداً غير يسير من السكان الشيعة يعيشون في ضواحيها .

الحرم النبوي

وتتطرق دائرة المعارف الإسلامية إلى ذكر شيء غير قليل عن الحرم النبوي الشريف في المدينة . فقد جاء فيها أن المدينة مع كونها لا يوجد فيها حرم مقدس يجله الناس منذ العهود الموغلة في القدم مثل الكعبة ، فإنها تباهي من جهة أخرى بالحرم المقدس الذي لا يثمن بثمن عند المسلمين في كل مكان لأنه يضم بين جدرانه ضريح النبي الأعظم الذي يقصده الحجاج والزوار من مشارق الأرض ومغاربها . حتى أن بعض الفقهاء يعتبرونه أقدم من الحرم الشريف في مكة ، لكن هذا الرأي لا تؤيـده أكثرية المسلمين ولا تعد زيارة الحرم النبوي شيئاً إجبارياً من ناحيـة الفرائض الدينية مثل الحج إلى مكة ، كما أنه يمكن أن يزار في أي وقت من أوقات السنة . وهناك إجماع على أن الرسول الأعظم كان قد دفن في بيت عائشة ، حيث قُبر الخليفتان الأولان أيضاً . يضاف إلى ذلك أن جميع الروايات القديمة تتفق على أن النبي عليه السلام كان قد بـنى

مسجداً بعد وصوله إلى المدينة في الحال ؛ ثم وسعه بعد فتح خيبر ، كما تتفق على أن مساكن أزواجه كانت قريبة من المسجد بحيث يكون من المحتمل جداً أن يكون بيت عائشة وضريحه صلوات الله وسلامه عليه قد أدمج بالمسجد بعد ذلك . ويستفاد من بعض الآيات أن هناك مسجداً آخر كان قد بني في المدينة في أيام النبي (ص) . لكن كيتاني يناقش هذا ويستنتج من كثير من الأحاديث والأقوال أن موقع المسجد الآخر هذا كان بيت النبي نفسه مع صحنه وعدد من المساكن الأخرى . وإذا كان هذا صحيحاً حقاً فلا يعلم أحد من هو الذي بنى هذا المسجد . لكنه من المحتمل أنه كان قد شيد بعد وفاة النبي بقليل . لأن تبجيل النـــبي وتقديره المتزايد ربما كان قد حدا بالمسلمين في الحال إلى ربط مدفنـــه بشؤون التعبد والدين . ولذلك يمكن أن يشار إلى هـــذا المسجد بكونـــه مسجد محمد الذي تذكره الروايات والأحاديث .

وهو عبارة عن بناية بسيطة من الآجر فيها أعمدة من جذوع النخل وسقف من أغصان الشجر . وتقول الروايات كذلك أن عمر بن الخطاب كان قد وسعه ، كما وسعه عثمان من بعده وجدد بناءه فشيّده من الحجر والجص ، وجعل سقفـــه من خشب الساج . وحينما تعيّن مروان عاملاً في المدن شيد فيه مقصورةً من الحجر الملون ، ولم يضف اليه شيء آخر حتى حل عهد الوليد الذي خول عامل المدينـــة عمر بن عبد العزيز الخليفة بعد ذلك ـ بتزيين المبنى إلى حد الفخامة . فاستعان عمر في هـــذا الشأن ببنّائين إغريق ، وأقباط ، والمقول أن امبراطور بيزنطة يومذاك قد تبرع بألف مثقال ذهب ومقدار كبير من حجر الموزاييك لهذا الغرض . وقد أقيمت بهذه المناسبة أربع منارات فوق أركان الحرم ، وغُطيت السقوف بصفائح الرصاص . وبقي الجامع على حالته هذه من دون أن يطرأ عليه أي تبديل إلى أيام الخليفة المهدي . فبعد أن زار المدينة هذا الخليفة أُعيد تشييد الجامع ووُسعت مساحته في سنة ١٦٢ ـ ٧٧٨ ـ ٧٩ فأصبح طوله

ثلاث مئة ذراع وعرضه مئتي ذراع . واستدعى الأمر إعادة بنائه في القرن التالي فتولى ذلك المتوكل في ٢٤٧ – ٨٦١ – ٦٢ .

وصف الحرام

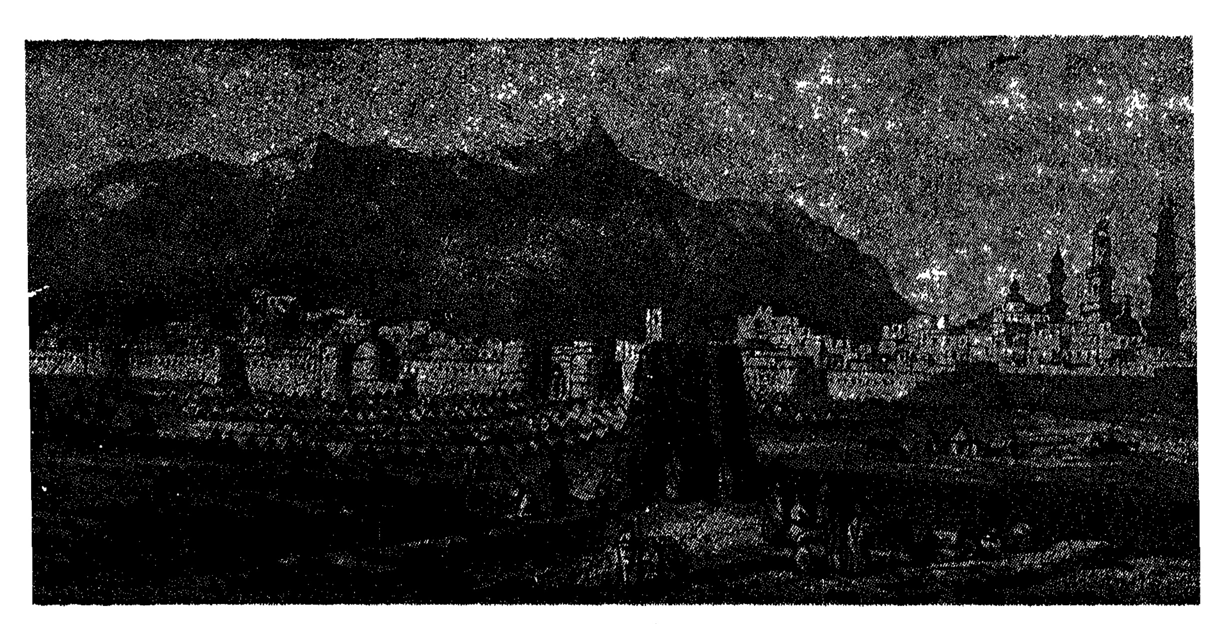
ويقول بوهل في دائرة المعارف الإسلامية أن الجامع ، أو الحرم الشريف ، الذي جاء إلى الوجود على هذه الشاكلة قد وصفه عدد من المؤرخين والكتاب العرب في مختلف العهود مثل ابن عبد ربه (٣٢٨ – ٩٤٠) ، والمقدسي (٣٧٥ – ٩٨٥) ، وابن جبير (٥٨١ – ١١٨٢) ، وياقوت كذلك . ولا يمكننا أن نورد هنا من وصف هؤلاء المؤلفين إلا أشياء قليلة . فقد كان الشكل الذي حوفظ عليه باستمرار عبارة عن صحن مفتوح يغطي أرضه الرمل أو الحصباء وتحيط به من جهاته الأربع صفوف من الأعمدة . وفي القسم الشرقي من البهو الجنوبي ذي الأعمدة يوجد قدس الأقداس ، أي قبر النبي الأعظم ، مع قبري أبي بكر، وعمر ويصفه ياقوت بأنه مبنىً عالٍ يفصله عن سقف البهو ذي الأعمدة فراغ من فوقه فقط . أما بالنسبة لوضع القبور الثلاثة فقد كانت هناك آراء مختلفة في أيامه . وتقول بعض الروايات أن قبر الزهراء البتول ابنة رسول الله يقع في شمال القبور الثلاثة ، بينما تنص روايات أخرى على أن قبرها المطهر موجود في البقيع . ويحمل ذلك القسم من البهو ذي الأعمدة الواقع في غرب هذه القبور المقدسة اسم « الروضة » ، وهو الأسم الذي سمّاه به النبي عليه السلام . والمقول أن عدد الأعمدة في البهو كان يبلغ مئتين وتسعين ، وكانت الأعمدة في الجهة الجنوبية منه مزينة بأساطين من الجص ، بينما كانت الأعمدة الباقية من الرخام . يضاف إلى ذلك أن الجدران كانت مزينة بالرخام والذهب والموزاييك . ويمتد على طول حدود الروضة الجنوبية حاجز يقترن به عدد من الآثار المقدسة للغاية : مثل بقايا جذع الشجرة التي كان يتكىء عليها النبي محمد (ص) ، ومنبره

على الأخص . وقد رغب معاوية ، على ما تقول بعض الروايات : في إزاحتها من مكانها لكن زلزلةً عنيفة حصلت في الحال ، فعدل عن رأيه ورفعها بدلاً من ذلك في مبنى يعلو خمس درجات عن الأرض . وأراد الخليفة المهدي بعد ذلك أن يزيل هذا الملحق فأُقنع بالتخلي عن رأيه لأن المسامير كانت قد دقت في المنبر القديم نفسه . وللمنبر ثماني درجات على ما ينص عليه الوصف ، وكانت هناك قطعة من العاج فوق المقعد يستطيع الزوار لمسها . وكانت بقايا جذع الشجرة تُقبل وتمسّد بالأيدي ، وهذا تقليد لعادات العرب الدينية القديمة . ومن نفائس الحرم الثمينة نسخة المدينة الأصلية من القرآن التي أعدها الخليفة عثمان . وللحرم الشريف تسعة عشر باباً ،لم يكن يفتح منها غير أربع : اثنان في الجهة الشرقية واثنان في الجهة الغربية . وكانت هناك ثلاث منارات ، اثنتان منها في الجهة الشمالية وواحدة في الزاوية الجنوبية .

ومع أن الحرم الشريف قد سلم من هزّة بركانية وقعت في سنة ٦٥٤ ــ ١٢٥٦ فقد اشتعلت فيه النار خلال السنة نفسها لإهمال صدر من بعض الخدم فدمّر جزءً منه . وقد بقي الطلب الذي قدم للحصول على مساعدة خاصة لإعادة بنائه إلى خليفة بغداد من دون جواب لأن الأسرة العباسية الحاكمة كانت تترنح يومذاك قبيل سقوطها الذي تم بعد سنتين . ولم يرمم إلا السقف ترميماً موقتاً في السنة التي أعقبت سنة الحريق ، ولم ترفع حتى الأنقاض من بين القبور المقدسة ، وإنما بقيت على وضعها مدةً تزيد على قرنين .

هذا وكان عدد من سلاطين المماليك قد أبدى شيئاً من الاهتمام بالحرم المطهر ، ومنهم بيبرس الأول الذي يقول مجير الدين (القاهرة ١٢٨٣) انه وضع شبكاً حول قبر النبي وزين السقف من فوقه بينما بعث آخرون العمال والمواد للترميم ، ولا سيما المنصور قلاوون في ٦٧٨ ــ ١٢٧٩ الذي بعث من يعين موقع القبر ويبني قبةً من فوقه مغطاة بصفائح الرصاص .

على أن الأشرف سيف الدين قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٥) كان أول من اهتم اهتماماً جدياً فعالاً، فقوّض المنارة الرئيسية الكائنة في الركن الجنوبي الشرقي وأعاد بناءها من جديد. وقد وقعت بالحرم الشريف نكبة عظيمة في سنة ٨٨٦ - ١٤٨١ حينما هبت عاصفة هوجاء في المدينة سقطت في أثنائها صاعقة عليه فدمرت قسماً منه، وبذلك تلفت خزانة الكتب بما كان فيها من مخطوطات القرآن الثمينة. ويصف السمهودي الذي أضاع خزانة كتبه هو بالمناسبة أيضاً الحريق الذي حصل وصفاً مسهباً. على أن السلطان الهميم أوفد عدداً كبيراً من العمال والآلات والمواد فأُعيد البناء إلى ما كان عليه في ٨٨٩ - ١٤٨٤، ثم وسعت القبة التي كانت تعلو الضريح المطهر. وقد أهدى الحرم كذلك حاجز المقصورة المصنوع من النحاس الأصفر. وأهدى السلطان إلى المدينة نفسها بالمناسبة حمامات، وقناة للماء، وطاحونة ماء، مع عدد كبير من الكتب لتعويض ما احترق



المدينة المنورة في أواسط القرن التاسع عشر

من كتب الخزانة الموجودة في الحرم الشريف. على أن سوء الحظ لم يزايل المدينة المقدسة ، ففي نهاية سنة ٨٩٨ – ١٤٩٢ أُصيبَ الحرم الشريف بصاعقة مدمرة أخرى هدمت المنارة الرئيسية فيه فأُعيد تشييدها . وقد اكتسب الحرم شكله الحالي بعد توسيعه من الجهة الشمالية من قبل السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٠ – ١٨٥٣ – ٥٤ ، وكان الرحالة بورتون قد شاهد العمل فيه يومذاك قبل أن ينتهي . وتتضمن الكتابات الكثيرة المكتوبة فوق الجدران سوراً قرآنية مختلفة وأشعاراً من نهج البردة .

ولا شك أن البقاع المجاورة لمدينة الرسول غنية بالقصص والأخبار التي تقترن بذكره عليه السلام . وأهم هذه كلها جبل أُحُد وقبور أبطال المسلمين الذين وقعوا شهداء للعقيدة والدفاع عن بيضة الإسلام هناك . ويضاهي ذلك في القدسية قرية قبا التي نزل بها النبي محمد (ص) قبيل دخوله إلى المدينة عند هجرته اليها ، وبقي فيها من يوم الاثنين إلى يوم الخميس . وتقع هذه القرية التي كان يشغلها يومذاك بنو عمرو بن عوف على بعد ميلين عن المدينة على ما يقول الرحالة بورخارت . وهناك توجد البقعة التي بركت فيها ناقة النبي (المبرك) ، كما يوجد المسجد الذي تشير اليه الآية القرآنية الكريمة وقد بني من تبرعات الناس . وكان هذا المسجد ومنارته البسيطة في حالة خراب حينما شاهده الرحالة السويسري بورخارت (١٨١٥) ، لكنه شُيد بعد ذلك بالحجر من جديد .

المدينة في مراجع اخرى

وهناك مراجع كثيرة أخرى من المراجع الغربية تتطرق إلى ذكر المدينة المنورة ، والحقيقة أن جميع من يكتب عن نشأة الإسلام وتاريخه من الغربيين لا بد من أن يأتي على ذكرها بشكلٍ أو آخر ، ومعظم ما يذكر لا يخرج عن الحقائق التاريخية المدونـة في جميع كتب التاريخ . لكننا سوف نقتبس هنا بعض ما كتب من هذا القبيل لما له من وجهة نظر

خاصة ، أو لما فيه من إشارة إلى بعض النقاط التي لم يذكرها الغير .

فيقول المستر فانيس ، المبشر الأمريكي الذي أقام سنين طويلة في البصرة واطلع على أحوال المسلمين وتاريخهم ، في كتابه[1] الموسوم « تعرّف على العربي » : .. وعلى بعد مئتين وخمسين ميلاً من شمالي مكة تقع المدينة ، التي تأتي في المرتبة الثانية في قدسيتها ، لأن النبي قد دفن فيها . وتعد زيارتها خلال موسم الحج شيئاً مستحباً وليس إجبارياً . وهي مدينة يسكنها ثلاثون ألفاً من السكان ، وتحتوي على جامع كبير توجد في داخله غرفة القبر المقدس التي يحرسها بدقة العبيد والخصيان ، ولا يمكن الدخول اليها . وقد دفن فيها النبي محمد (ص) نفسه ، وابنته فاطمة ، وأبو بكر وعمر من خلفائه . وهناك بقعة خالية عرف محمد (ص) أنه قال انها يجب أن تبقى كذلك حتى يعود عيسى إلى الأرض فيموت ويدفن فيها . فإن القرآن ينص على أن عيسى صعد إلى السماء ولم يمت ، وأن صلبه كان شيئاً من تضليـــل النظر .. ويقول فانيس في مناسبة أخرى (الص ٣٠) عن الآيات القرآنية الكريمة ونزولها أن تسعين من السور نزلت على النبي في مكة خلال مدة كفاحه للمشركين من قريش ، وهذه آيات نارية بليغة في بيانها ، تؤكد على وحدانية الله عز وجل وصفاتـــه الحسنى والواجبات الدينية وجزاء الآخرة . أما السور الأربع والعشرون الباقية فقد نزلت في المدينة بعد أن هاجر النبي اليها ، حيث أكمل رسالته ووصل إلى الأوج في قيادته السياسية ..

ويقول جيرالد ديغوري في كتابه[2] « حكام مكة » : .. وقد قُدر للاسلام في المدينة أن يصبح دولةً محاربة ، ويستخدم سيف الله ببراعته ولم يكن هذا من رأي مؤسسه الأصلي ، فقد كان وهو المكي المحجم

(١) Van Ess, John — Meet the Arab (John Day Co. New York) p. 21

(٢) De Gaury, Gerald — Rulers of Mecca London 1951) p. 45.

عن سفك الدماء يأمل، قبل أن يمنعه النبلاء من التبشير بدعوتــه ، أن يستولي على مكة بالطرق والوسائل السلمية . لكنه اضطر بعد أن هاجر إلى المدينة إلى إعداد الجيوش لصد هجمات المكيين التي كان يقودهــا قريبٌ ثري من أقربائه ، وهو أبو سفيان الصراف .. ويتطرق ديغوري كذلك (الص ٨١) إلى محــاولة الصليبيين الاستيــلاء عــلى المدينة والعبث بقبر الرسول بقيادة رينو ، مما كنا قد فصلناه في بحثنا عن مكة المكرمة ، في الجزء المختص بها من أجزاء هذه السلسلة من (العتبــات المقدسة) . فقد هاجم الصليبيون الحجاز من ساحل البحر الأحمر ، وظلوا يعيثون فساداً فيه حتى خفت اليهم الجيوش المصرية بقيادة الحاجب حسام الدين لؤلؤ الــذي انتدبه الملك العــادل ، أخو صلاح الدين ، لهذه المهمــة وجهزه بأسطول نقل أجزاء سفنه من البحر الأبيض وشاهدها في البحر الأحمر كما فعل الصليبيون من قبل . وفي الحوارة استطاع المسلمون تدمير السفن الصليبية تدميراً تاماً ، لكن بحارتها حاولوا الالتحاق بالرتل الصليبي الذي توغل في طريقه إلى المدينة . وفي شعاب البادية الكائنة على بعد خمسة أيام من ساحل البحر ويوم واحد من المدينة هوجم الثلاث مئة محارب صليبي فقُضي عليهم قضاءً مبرماً . ومن المئة والسبعين محارباً الذين نجوا من الموت وأسرهم المسلمون ، نُحر البعض في منىً كما تنحر الأضاحي وقتل بعضٌ آخر في المدينة نفسها . أما الباقون فقد أخذوا بأسرٍ مذل إلى مصر وطيف بهم في الشوارع قبل قتلهم على ملأ من الناس من قبل الدراويش. ويورد ديغوري في بحثه أيضاً وصف الرحالة المغربي ابن جبير لأولئك الأسرى والوضع الذي رآهم فيه .

ثم يشرح ديغوري استيلاء الوهابيين على مكة ، واستسلام المدينة لهم في ربيع ١٨٠٤ (الص ١٨٧) . وينتقل بعد ذلك (الص ١٩٤) إلى تجريد الحملة المصرية بقيادة طوسون باشا بن الخديوي محمد عــلي لإخراج الوهابيين من الحجاز سنة ١٨١٢ . وهو يقول ان طوسون ارتأى

ن يهاجم الوهابيين في المدينة من ينبع في ساحل البحر ، الكائنة على بعد
ستة أيام منها . وكانت المدينة أقوى المدن الحجازية بالتحصين . ولذلك
بقي حامية مناسبة في ينبع وتقدم في اتجاه المدينة في كانون الثاني ١٨١٢ ،
بعد مناوشات بسيطة دخل قرية بدر الكائنة في مدخل الجبال التي يجب
ن يخترقها قبل أن يسلك الطريق الذاهب إلى المدينة . ثم قصد الصفرة
اشتبك مع قبائل حرب التي كانت منحازة إلى الوهابيين ، ثم إلى الجديدة
مقر حرب الرئيس . وهنا اندحر طوسون بجيشه اللجب بكمين دبرته
له قبائل حرب والوهابيون بعد أن أبلى بلاء حسناً في المعركة فعاد إلى ينبع .
ويقول ديغوري ان انتصار سعود أمير الوهابيين هذا وطد مركزه بين
العشائر العربية كلها حتى صار يجمع الخاوة من البدو القريبين من بغداد
ودمشق وحلب كذلك .

وقد عاد سعود بعد هذا إلى الدرعية حاسباً أن المدينة يمكنها أن تقاوم
الجيش الغازي مدة طويلة من الزمن ، وأن الأتراك لا بد من أن يرجعوا
من حيث أتوا . لكنه كان مخطئاً في ذلك جد الخطأ ، فقد وجد طوسون
باشا نفسه خلال تشرين الأول ١٨١٢ قادراً على أن يحاول محاولة ثانية
لإنقاذ المدينة من براثن الوهابية . فنقل معسكره إلى بدر بعد أن دخل في
حلف مع البدو النازلين في محيطها ، ثم قاد أحمد بونابرت قسماً كبيراً
من جيشه وتقدم نحو المدينة بعد أن استولى على ممر الجديدة الذي شهد
الاندحار السابق ، حتى وصل إلى ضواحيها . وبعد مناوشات خفيفة مع
الوهابيين دخل أحمد ضواحي المدينة نفسها وطرد منها الوهابيين الذين
تراجعوا للتحصن في القسم الأوسط منها ، الذي كان على جانب كبير
من المنعة . وفي خلال الحصار الذي استدام اسبوعين هاجم الوهابيون
من الداخل الجيش المحاصر عدة مرات . وبعد أن نسفت فتحة كبيرة
في السور دخل الجيش التركي (أو المصري) إلى المدينة واشتبك في
معركة رهيبة قتل فيها حوالي ألف وهابي في الشوارع والطرقات ، ونهبت

البلدة نفسها ، بينما لم يقتل من الأتراك سوى خمسين . وكـــان أول الداخلين إلى مدينة الرسول ، على ما يقول ديغوري ، رجلٌ سكوتلاندي يدعى توماس كيث (الص ١٩٩) كان قد تطوع في الجيش المصري باسم ابراهيم أغا . لكن ألفاً وخمس مئة وهابي ظلوا محاصرين في القلعة ثلاثة أسابيع ، ولم تكن عند الأتراك مدفعية قوية يمكنها أن تهدّ أسسها الصخرية . إلا أن القائد أحمد بونابارت تعهد للوهابيين المحاصرين بالنجاة بأنفسهم إذا ما استسلموا ، فتم الاستسلام ورحلوا عائدين إلى نجد . وقد جمع هذا القائد جماجم الوهابيين الذين قتلوا في المدينة وأنشأ منها نصباً تذكارياً في مبدأ الطريق الذي يخرج من المدينة إلى ينبع ، ثم وضع الحرس للمحافظة عليه . لكن سكان المدينة استطاعوا مع ذلك أن يمحوا هذا الأثر بالتدريج .

وفي هذه الأثناء وصل الخديوي محمد علي نفسه إلى الحجاز ليعد العدة للقضاء على الوهابيين في عقر دارهم بعد أن يخرجهم منه . وبعد أن بقي مدةً وجيزة في مكة ، وعين حسن باشا حاكماً فيها ، توجه إلى المدينة فوصلها على دون انتظار في ١٤ نيسان ١٨١٣ وفي حاشيته ثلاثون أو أربعون جندياً فقط يركبون الأبل . ولا شك أنه جاء ليتبرك بزيارة القبر المطهر ، ويطلع على الوضع العسكري وتفاصيله .

أما المستر كلوب ، الـــذي أنشأ الجيش العربي في المملكة الأردنيـــة الهاشمية وعاش فيها كما هو معروف مدة من الزمن ، فيبحث بالتفصيل عنْ تاريخ المدينة المنورة ودورها في نشأة الإسلام وذلك في كتابه البارع عن « فتوحات العرب الكـــبرى[1] » . فهو يعمد إلى وصف مدينـــة الرسول نفسها (الص ٥٦) ويقول ان االوادي الذي تقع فيه المدينة كان يمتلىء ببساتين النخيل النضرة وحقول الزرع اليانعة ، التي تهدىء أعين المسافرين الواصلين اليها أبداً ودوماً بعد تعرضها لسطوع الشمس المعشية

---

(١) Glubb, John Bagot — The Great Arab Conguests. London 1963.

في البادية . وتنتشر في ذلك الوادي الفسيح منازل عدد من المجموعات القبلية المختلفة التي تعيش كلٌ منها في قريتها المختصة بها المتألفة مــن الأبراج والبيوت الحصينة ، المبنية بالطين والحجر . وبعد المرور ما بين صخور الجبال الجرداء المحرقة كان هذا الوادي يبدو مريحاً مطمئناً يشعر الرائي بالهدوء والخصب ، وبالقناعة والسكون .

ثم يقول عند اختيار النبي (ص) للأرض التي بنى فيها مسجده الأول في المدينة ان بستاناً مهجورة من بساتين النخيل الكائنة في وسط الواحة اشتريت بعد أيام معدودة من وصوله بمبلغٍ من المال يعود لأبي بكر الصديق . وبدأ العمل بإنشاء مسجد وبيت لا يختلف كثيراً عن الكوخ ليسكن الرسول الأعظم فيه . فأخذ المهاجرون القادمون من مكة وأنصار المدينة يعملون ويكدون في البناء وهم يغنون . ويقطعون اللبنات والأحجار فيبنون بها الجدران . وعلى رأسهم محمد (ص) نفسه . وكان من جملة ما تغنوا به قولهم :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة
اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

ويحلل المستر غلوب غزوات النبي ومعاركه تحليلاً بارعاً في كثير من الأحيان . ومن جملة ما يقول في موقعة الخندق والتجاء المسلمين إلى حفره (الص ٨٤) أن الجمود العجيب في التكنيك الحربي الذي كان يتبعه العرب يمكن أن يلاحظ من ارتباك قريش ارتباكاً تاماً حينما شاهدوا هذا التطور غير المنتظر ، واعتبروه بكل ازدراء شيئاً غير مشرف وغير متفق مع عرف العرب . ولم يفكروا وهم يخيمون في خارج قطــاع المدينة بشن هجوم عام عليها ، مع أن عددهم كان ثلاثة أضعاف المقاتلين المسلمين . وعلى ما هو معروف عند العرب من الاهتمام بالشجاعــة الشخصية في الحرب بدلاً من التكتيك المنتظم ، هاجم أربعة من خيالة

قريش الخندق نفسه فاجتازوه بقفزة واحدة ليصبحوا في وسط المدافعين الذين أخذوا ينازلونهم على انفراد . فانبرى علي بن أبي طالب لهم كالمعتاد وقتل رئيسهم ، وعند ذاك ولى الثلاثة الباقون الأدبار عبر الخندق ... وباختفاء العدو وتراجعه في طريق مكة ، عاد محمد (ص) تعباً إلى بيته وشرع المسلمون بنزع السلاح عن أنفسهم . وعلى حين غرة ظهر جبرائيل لرسول الله .. وأشار عليه في آية من آيات الله البينات أن لا يلقي السلاح ، وأن يهاجم بني قريظة الذين تآمروا عليه مع العدو . وعند ذاك دعا محمد (ص) المسلمين إلى حمل السلاح من جديد ، وقادهم علي بن أبي طالب وهم ينشرون راية الرسول الحربية إلى منازل بني قريظة آخر قبيلة يهودية بقيت في المدينة .. وكان وصول قوة كبيرة من مكة قد شجع بني قريظة وأحيا في نفوسهم الأمل في الانتقام ، فاتصلوا بقريش . لكن انسحاب قريش وتقهقرهم الفجائي جعل اليهود وجهاً لوجه أمام المسلمين الغاضبين .. وقد وافق محمد (ص) على إحالة أمرهم إلى سعد بن معاذ شيخ الأوس ، وحليف اليهود الأسبق . وكان سعد من أوائل من اهتدى للإسلام من أهل المدينة ، وقد حمل راية قبيلته في موقعة بدر الكبرى . وكان حينما أحيل اليه أمر البت في جريمة بني قريظة يكابد آلام الموت من سهم أصيب به في أثناء الحصار . وربما كان يعاني مرارة الخيبة كذلك في موقفه ذاك بعد أن كان صديق اليهود من قبل . ولهذا أصدر قراره بقتل كل رجل من رجال بني قريظة ، وسبي النساء والأطفال ، مع نهب ما يملكون . فرحب النبي بالحكم واعتبره حكماً عادلاً ، ثم أمر بتنفيذه .. وقبل التنفيذ عرض عليهم أن يعتنقوا الإسلام ، فكان بوسعهم أن ينتقلوا من سوية المجرمين المحكوم عليهم إلى سوية المستولى عليهم بمجرد ترديد جملة بسيطة ، لكن قليلاً منهم فضل الاستفادة من هذه الفرصة .

الفتنة الكبرى في المدينة

على أن من أهم ما يسهب به المستر غلوب من تاريخ المدينة المنوره في صدر الإسلام ، الفتنة الكبرى التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان (الص ٢٩٧ — ٣٠٧) . فهو يشيد بمنزلة عثمان وشهرته حينما تولى الخلافة ، ويذكر خدماته للإسلام ، ولا سيما ما عمله في جمع القرآن ويقول ان القرآن الكريم كان قد كتب في خلافة عمر ، لكن عدداً من المتون ظهرت للوجود بعد ذلك فأمر عثمان بإعداد متن واحد وبذل جهده في جمع المتون الأخرى وإتلافها في المدينة . ثم يقول ان الاستيلاء المتزايد الذي حصل في أيام عثمان لم يكن موجهاً اليه شخصياً بقدر ما كان موجهاً إلى الحكام الذين عينهم في الأمصار . وحينما اتهم بمحاباة الأقارب أجاب بأن الله عز وجل نفسه أمر بأن يكون « الأقربون أولى بالمعروف » ، وذهب إلى أبعد من ذلك فانتقد الشيخين لأنهما لم يراعيا الأقارب في حكمهما .. ولا شك أن تجرد الكثيرين عن التقوى من مرشحي عثمان للحكم وتركهم التمسك بأمور الدين بصورة علنية ، وكونهم كانوا هم وآباؤهم من أشد أعداء الرسول ومناوئيه ، قد استفز الكثيرين من المسلمين المتدينين الأقحاح في المدينة ومكة . فقد كان الصحابة لا يزالون كثيرين في عددهم ، ولا سيما من حارب منهم في موقعتي بدر وأُحُد ، أو من شهد صلح الحديبية . ولا ريب أن جميع هؤلاء كان يسوؤهم جداً أن يتولى الحكم في الإسلام أعداء النبي .. ثم يتطرق إلى معاملة عثمان لعبد الله بن مسعود وأبي ذر الغفاري ، ويخرج من ذلك إلى القول بأن الخليفة عثمان مع كونه كان مستعداً لعزل الكثيرين من الحكام والقواد لأدنى بادرة استياء تبدر من المسلمين تجاههم ، فإنه لم تكن هناك قوة تستطيع التأثير عليه لكي يعزل مرشحيه الأمويين .

ويتطرق بعد هذا إلى انتشار الفتنة في الكوفة واستياء الناس فيها من تصرف حاكمهم الأموي سعيد بن العاص الذي قال في خطبة له ذات

.وم أن « السواد بستان قريش » . كما يتطرق إلى نفي مالك الأشتر من كوفة إلى الشام ، وما كان له من تأثير في الثورة على هذا الحكم الفاسد الجائر . ثم يقول ان قادة الإسلام في المدينة لم يدخروا وسعاً في تقديم النصح والمشورة إلى الخليفة ، ومطالبته بالاستماع إلى ظلامات الناس والمبادرة إلى القضاء على أسبابها أو بالعمل على إطفاء الفتنة المتسعة بالقوة . ويبدو أنهم قد يئسوا في الأخير من تردده ، على حد تعبير ديغوري ، فتركوه إلى مصيره . فقد انسحب من الميدان مجلس الشورى الذي انتخبه نفسه . وهم علي بن عم النبي . والزبير الذي تسلق أسوار حصن بابيلون ، وطلحة بالإضافة إلى السيدة عائشة زوجة النبي . لكن عمرو بن العاص ، فاتح مصر الذي عزله عثمان عن ولاية مصر ليعين أخاه في الرضاعة بدلاً منه (عبد الله بن أبي سرح) . كان منشغلاً يومذاك بزرع بذور الفتنة والتذمر في المدينة كذلك .

وحينما حج الخليفة إلى مكة سنة ٦٥٥ ، انتهز فرصة الحج وجمع ولاة الأمصار ليأخذ رأيهم في تدني الحالة واستياء الناس في كل مكان . فأشار عليه ابن أبي سرح « جابي الضرائب » في مصر بأن يستخدم المال المتكدس في خزائنه لأن الناس تعشق المادة ، وقال له معاوية إن الذنب ذنب الحكام أنفسهم ، لكن والي البصرة الشاب عبد الله بن عامر أشار عليه بأن يسوق الجيوش للجهاد والفتح لتبتعد عن الفتنة ، ولا يتيسر الوقت الكافي للناس بالتفكير فيها .

وبينما كان الولاة مجتمعين في مكة وضع الثوار في الكوفة والبصرة والفسطاط خطتهم على ما يقول غلوب ، ونضجت ثورتهم ، وفي أوائل سنة ٦٥٦ بدأوا بزحفهم على عاصمة الخلافة ، وخيم كل فريق منهم على حدة في خارج المدينة . ثم بعثوا بنفر منهم لمفاوضة الإمام علي والزبير وطلحة ، لكن قادة الرأي العام المسلم هؤلاء أنبوا الثوار على شغبهم وأعمالهم الاستفزازية . على أن علياً زار في الوقت نفسه الخليفة عثمان

وطلب اليه عزل عبد الله بن أبي سرح من مصر ، وبعثت السيدة عائشة اليه بالرأي نفسه أيضاً . فوافق الخليفة الشيخ على ذلك ورجا مشيريه أن يرشحوا له والياً جديداً لمصر .

ثم يقول غلوب انه من المؤسف أن يسجل بالمناسبة أن محمداً بن أبي بكر كان أحد قادة الفتنة في مصر . وأن الفرق بين هذا المحرك العنيف الطموح ووالده الصارم الوديع في الوقت نفسه . وأخص أصحاب الرسول . ليدل على الانحطاط الذي طرأ على سلوك الجيل الإسلامي الجديد الذي نشأ في وسط الترف والثراء . وقد طلب ممثلو الجيش المصري تعيين هذا الشاب الطموح ليكون قائداً لهم فأذعن الخليفة للطلب . ثم يتطرق غلوب إلى التطور الذي حصل بعد ذلك فأدى إلى رجوع الثوار إلى المدينة بعد أن بدا للجميع أن العاصفة قد هدأت . وكان سبب الرجوع الرسالة التي عثر عليها بيد خادم الخليفة حول قتل محمد بن أبي بكر كما هو معروف .. ويتابع قوله فيذكر أنه يبدو أن الإمام علياً عليه السلام كان يقوم بدور الوسيط بين الخليفة والثوار لتهدئة الفتنة وحسم الأمور بالحسنى ، ولذلك ذهب اليه وأخبره بحقيقة ما جاء به الثوار من جديد ، لكن الخليفة أنكر بشدة معرفته بما حصل ووافق على مواجهة وفد من الثوار أنفسهم . فبيّن له هؤلاء بأن العبد الذي كان يحمل الرسالة كان من عبيده ، وأن الرسالة كانت مختومة بختمه . فاعترف الخليفة بكل ذلك لكنه أقسم بالله على أنه لم يكتب الرسالة ، ولم يأمر بكتابتها ، كما لم يأمر بإنفاذ العبد . ولا يخفى أن الخليفة كان محقاً في ذلك لأن الذي فعل كل شيء وورطه بالأمر كان قريبه مروان بن الحكم الذي لم يكن يفارقه في تلك الأيام .. وحينما لجأ الثوار إلى العنف وطالبوا الخليفة بالتنازل عن الخلافة وعدهم بالنظر في ظلاماتهم لكنه رفض التنازل عن المنصب الذي رفعه اليه الله عــز وجل . وعند ذلك اشتد أمر الثوار فانسحب الإمام علي عائداً إلى بيته . ثم تطورت الحالة إلى حد الخطورة ، لأن الثوار استطاعوا السيطرة في

هذه الأثناء على قلب المدينة المنورة نفسها ، وحاصروا بيت الخليفة من كل جانب ، كما امتلأ بهم مسجد الرسول ..

ومما يذكره غلوب في هذا الشأن قوله ان معظم المؤرخين العرب يصدقون ما أقسم عليه عثمان ويبرئون ساحته من تهمة الرسالة ومعرفته بها . كما أن كثيراً منهم يتهمون بها ابن عمه مروان بن الحكم الذي كان قد منحه حصة الحكومة من غنائم إفريقية الشمالية ، لأنه كان يدخل عليه في بيته على الدوام وكثيراً ما كان يتخذه أميناً لسره .. وعلى هذا فقد طالبه الثوار بتسليم مروان الذي كان مختبئاً في دار الخليفة نفسه لكن الخليفة أبى أن يسلمه اليهم . أما سائر الأمويين فقد أفزعهم وضع الثوار وأخافهم ، فتخلوا عنه في وقت الشدة هذا واختفى بعضهم في مخابىء مختلفة ثم فر بعضهم الآخر إلى دمشق ليحتموا بمعاوية .

وعلى هذه الشاكلة أدت الفتنة إلى ما هو معروف في كتب التاريخ عن قتل عثمان ، واضطراب أحوال المسلمين من جراء ذلك بعد أن اغتنم معاوية الفرصة ليجر المغنم له ولبني أمية . ومما يشير اليه غلوب في هذه المناسبة أن الخليفة عثمان بعث يطلب الماء من الإمام علي عليه السلام حينما حوصرت داره ، فبعث اليه الإمام بثلاث قرب ملأى به ولم يستطع عبيد بني هاشم إدخالها إلى الدار المحاصرة إلا بشق الأنفس . وأن محمد بن أبي بكر استنجد في هذه الفتنة بعشيرته تيم حينما حوصرت دار الخليفة ، وأن علياً عليه السلام وطلحة ، وعدداً آخر من الصحابة ، بعثوا بأبنائهم ليحرسوا دار الخليفة ويذبون عنه الأذى .. وحينما اشتبك هؤلاء مع الثوار أصيب الإمام الحسن (ع) بعدة جروح حتى سالت منه الدماء فتغطى بها جسمه ، وجرح كذلك محمد بن طلحة ومروان .

وبعد أن قتل الخليفة بهذا الشكل المؤسف خف إلى داره الإمام علي والزبير وطلحة وأسفوا جد الأسف لما حدث ، ووبخوا الثوار على ما بدر منهم .. ويقول غلوب كذلك ان جثة الخليفة القتيل ظلت مطروحة ثلاثة

أيام في بيته من دون أن يجرأ أحد على نقلها لتدفن في المقبرة . وفي مساء اليوم الثالث خرج موكب صغير من الدار المشؤومة في ظلمة الليل المعتمة وهو يحمل جنازة الخليفة على الأكتاف ، وكان الموكب يتألف من الإمام الحسن والزبير بن العوام وبعض أقارب الخليفة وخدامه . ومع ذلك فقد علم الثوار بالأمر وأخذوا يرشقون الجنازة بالحجارة . وبهذا دفن أمير المؤمنين في قطعة صغيرة من الأرض تقع في جوار المقبرة العامة الكائنة في خارج المدينة .

وآخر ما يذكره غلوب عن هذه الفتنة ، أنه يحلل شخصية الخليفة الثالث ومقدار نجاحه في الحكم ثم يقول انه كان يعيش عيشةً مترفة ويتقبل الهدايا ، مع أن ترفه البدائي كان شيئاً لا يمكن أن يقارن بترف ملوك بيزنطة والمدائن بطبيعة الحال . ومع هذا فقد كان النبي عليه السلام والشيخان من بعده يزهدون في مباهج الدنيا وعرضها الزائل ويمشون حفاةً بين الناس وعليهم اللباس الصوفي الخشن ، حتى بعد أن كانوا قابضين على السلطة السياسية بأيديهم .. وقد كانت أيام عثمان أياماً صعبة ، وكانت استمرارية النصر الإسلامي المؤزر قد دبّ دبيب البطء فيها ، وأخذت حرارة الحماسة الدينية المتطرفة تخف وتبرد . ولكن عثمان لو كان عمراً آخر لاستطاع أن يقف في وجه العاصفة .

المدينة في كتاب دونالدسون[1]

ولقد أفرد الدكتور دونالدسون في كتابه « عقيدة الشيعة » الذي سبقت الإشارة اليه مرات عديدة في أجزاء هذه المجموعة السابقة فصلا خاصاً عن المدينة المنورة بعنوان « مدينة الرسول وآل بيته » . ويستهل هذا الفصل بقوله ان المدينة بلدة صغيرة يقدر اتساعها بنصف اتساع مكة

---

(١) Donaldson, Dwight M — The Shi ite Religion, London 1933.

المكرمة ، لكنها أخصب من مكة في أرضها . ففيها مياه جارية وبساتين للنخيل تجود بأحسن أنواع التمور ، ومنها تمور البردي والعوجة التي لا يزرع أحسن منها في سائر البلاد . ومعظم سكانها سمر البشرة ، وأكثرهم يشتغل بالتجارة .

ثم يورد دونالدسون أشياء كثيرة عن فضل المدن وقدسيتها ، وينقل روايات وأحاديث عدة في هذا الشان عن « نزهة القلوب » للمستوفي . ويقول بعد ذلك أن المستوفي الذي كتب كثيراً عن المدينة في القرن الرابع عشر للميلاد لم يذكر شيئاً عن الحالة المؤسفة التي كان عليها قبر النبي المطهر في ذلك الوقت ، وما قبله بقرن واحد . فمنذ أن شبت النار في الحرم النبوي الشريف سنة ١٢٥٦ م فهدمت معظمه تقريباً بقيت الأنقاض على حالها ذاك مدة تزيد على القرنين . وفي الأخير عين السلطان المنصور قلاوون موقع القبر الشريف بقبة مغطاة بصفائح الرصاص ، وكان ذلك في السنة ١٢٧٩ ميلادية . وفي ١٤٨١ انقضت على هذا البناء المتواضع صاعقة من السماء فأحرقت ما فيه ، ولا سيما خزانة الكتب وما كان فيها من مخطوطات ثمينة للقرآن الكريم . فأعيد بناء الحرم هذا على أحسن وجه سنة ١٤٨٤ فوسعت القبة ، وأقيم سياج من النحاس الأصفر حولها .

وفي عهد الأسرة الصفوية المالكة في إيران (١٥٠٢ — ١٧٣٦) حدثت حروب عديدة متطاولة بين إيران وتركية فأصبح من الصعب جداً على الحجاج الشيعة الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة الحرم النبوي الشريف في المدينة . ثم يقول دونالدسون (الص ١٤٣) ان الشاه عباس وغيره من ملوك الصفويين هم الذين كانوا يضعون العراقيل في هذا الشأن من أجل تشجيع المشاهد والمزارات الموجودة في داخل الحدود الإيرانية ، ليعملوا على الاحتفاظ بالمبالغ الكبيرة من المال التي كان زوار إيـران وحجاجها قد تعودوا على صرفها في الخارج .

وما انتهى القرن الثامن عشر للميلاد حتى كان الأتراك قد استولوا

على العراق والحجاز استيلاءً تاماً ، وأصبح السلطان التركي الخليفة المعترف به في العالم الإسلامي كله عدا إيران . وعند ذلك صارت المدن والعتبات المقدسة تدار على أسس مالية واقتصادية . وتعاظمت حركة الزيارة والحج إلى الازدهار فأخذت الألوف المؤلفة من الناس تقصد العتبات المقدسة في النجف وكربلا وبغداد وسامراء من إيران للتبرك بالأضرحة المطهرة . وترتجي شفاعة الأئمة الثاوين فيها . وصار الذين يقصدون مكة للحج من هؤلاء يهتمون اهتماماً خاصاً بزيارة المدينة المنورة للصلاة في الحرم النبوي الشريف الموجود فيها ، والتبرك بزيارة قبر الزهراء البتول وقبور الأئمة المعصومين الحسن ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر . وجعفر الصادق .

وكانت حركة الحجاج والزوار هذه تعود بالنفع الكبير على الحكومة التركية وسكان البلاد المقدسة . غير أن قدوم آلاف المسلمين من جميع أنحاء العالم سعياً في طلب الشفاعة من نبيهم المتوفى والأئمة من أبنائه كان يستثير حنق القبائل الوهابية القوية في الحجاز وغيره ، فاضطلعت بدور المصلح الديني وأعلنت أن مثل هذا التعبد يعتبر شيئاً محرماً حتى إذا كان بالقرب من قبر النبي نفسه . فهاجمت المدينة في سنة ١٨٠٤ . ونهبت ما فيها من خزائن ونفائس ، ثم منعت زيارة قبر الرسول . لكنهم لم يتوفقوا في تهديم القبة المقامة فوق القبر المطهر .

وحينما استعاد الأتراك سيطرتهم على البلاد المقدسة في ١٨١٨ اتخذ السلطان عبد المجيد العثماني التدابير اللازمة لإعادة تعمير الحرم النبوي الشريف في المدينة . وكان هذا التعمير قائماً على قدم وساق ما بين سنتي ١٨٠٩ و ١٨٦٠ . فكلف مبلغاً يناهز السبع مئة ألف باون استرليني ، ومن المعتقد عند البعض أن هذا المبلغ تدخل فيه قيمة الجواهر التي أودعها السلطان في الروضة المقدسة . وهذا هو شكل الحرم الذي ظل قائماً حتى السنين الأخيرة ، فوصفه الرحالة بورتون (١٨٥٣) كما سيتضح مما

سنورده بعد هذا ، وويڤل (١٩٠٨) ، والبتنوني (١٩١٠) ، ورتر (١٩٢٨) الذي سنشير اليه بعد هذا أيضاً .

وبقيت مكة والمدينة تابعتين إلى الدولة التركية حتى سنة ١٩١٨ ، حين تنازلت عنهما إلى الشريف حسين ملك الحجاز بمقتضى شروط الصلح التي انتهت بموجبها الحرب العالمية الأولى . لكن الملك حسيناً لم يستطع المحافظة على سيطرته في البلاد ، وظهر الوهابيون على مسرح الحوادث من جديد فاستولوا على مكة والمدينة ويقول دونالدسون فخيم الحزن والأسى على الكثير من البلاد الإسلامية خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى إقدام الوهابيين على العبث بمقدساتهم ، ويحق لهذه البلاد أن تفزع لهذا الخبر لأن الوهابيين يعتقدون أن زيارة القبور تعتبر نوعاً من أنواع الشرك . على أن استيلاءهم على المدينة لم يكن ينطوي على الخطر المأمول بالنسبة لقبر النبي نفسه . فقد كان علماء الدين الوهابيون تواقين إلى تهديم القبة ، وإعادة بناء الحرم الشريف من دون إدخال القبر فيه ، لكن ابن سعود استعمل دهاءه السياسي للحيلولة دون ذلك ، لئلا يثير عليه عداء العالم الإسلامي كله . وبذلك سلم قبر الرسول الأعظم من العبث ، لكن حماسة الوهابيين الدينية سُمح لها بأن تمارس ما تريـــد من العنف في تخريب الأضرحة والقبور الموجودة في البقيع .

وخير من وصف البقيع بعد أن خربه الوهابيون وعاثوا فساداً فيه من الغربيين ايلدون رتر[1] الذي زار البلاد الحجازية في ١٩٢٥ . وسوف نورد وصفه هذا فيما بعد . ثم يتابع دونالدسون حديثـــه عن المدينة في فصله الخاص ويقول ان هذا العبث بالأضرحة المقدسة يمكن أن نقف على عقيدة الشيعي المخلص فيه مما كتبه المستوفي[2] عن مقبرة البقيع قبل

---

(١) Rutter, Eldon - The Holy Cities of Arabia. London 1928 & 1930.

(٢) الـ [illegible] القلوب ، الص ١٥ . (دار مصر للطباعة ١٩٥٥) .

الوهابيين بمدة غير يسيرة . فهو يقول ان مقبرة المدينة المسماة بالبقيع تقع في الجهة الغربية من المدينة ، وفيها يشاهد قبر ابراهيم نجل النبي الأوحد ، وقبور بناته كذلك . وقد دفن الخليفة عثمان فيها أيضاً . ودفن فيها كذلك أمير المؤمنين الحسن ، والعباس عم النبي ، والأئمة المطهرون زين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق سلام الله عليهم أجمعين . ويورد دونالدسون كذلك نصاً عن البقيع من رحلة ابن جبير الرحالة المغربي المعروف . واليك النص الأصلي الوارد في الرحلة هذه بعنوان « ذكر المشاهد المكرمة التي ببقيع الغرقد وصفح جبل أحد[1] » :

... فأول ما نذكر من ذلك مسجد حمزة رضي الله عنه ، وهو بقبلي الجبل المذكور ، والجبل جوفيّ المدينة ، وهو على مقدار ثلاثة أميال . وعلى قبره رضي الله عنه مسجد مبن . والقبر برحبة جوفي المسجد ، والشهداء رضي الله عنهم بأزائه . والغار الذي آوى اليه النبي (ص) بأزاء الشهداء أسفل الجبل . وحول الشهداء تربة حمراء ، هي التّربة التي تنسب إلى حمزة ، ويتبرك الناس بها .

وبقيع الغرقد شرقي المدينة ، تخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع ، وأول ما تلقى عن يسارك عند خروجك من الباب المذكور مشهد صفية عمة النبي (ص) ، أم الزبير بن العوام رضي الله عنه . وأمام هذه التّربة قبر مالك بن أنس الإمام المدني ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء . وأمامه قبر السلالة الطاهرة ، ابراهيم ابن النبي (ص) وعليه قبة بيضاء . وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اسمه عبد الرحمن الأوسط ، وهو المعروف بأبي شحمة ، الذي جلده أبوه الحد فمرض ومات*

---

(١) رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار .

(*) لقد مر الكثير من هذا الوصف عند ذكر اشهر مواقع المدينة في صدر هذا الجزء ولكننا لم نشأ أن نحذفه لوروده في المصادر الغربية ولكي يعرف القارىء كل ما يقول الغربيون عن تاريخنا وما يأخذونه من كتبنا بالإضافة إلى ما يرتأون من آراء. الخليلي

وبأزائه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنـــه ، وعبد الله بن جعفر الطيار رضي الله عنـــه وبأزائهم روضة فيهـــا أزواج النبي (ص) . وبأزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي (ص) . وتليها روضة العباس بن عبد المطلب والحسن بن علي رضي الله عنهما وهي قبة مرتفعة في الهواء ، على مقربة من باب البقيع المذكور ، وعن يمين الخارج منه ، وقبراهما مرتفعان عن الأرض ، متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع الصاق ، مرصعة بصفائح الصفر ومكوكبة بمساميره على أبدع صفـــة وأجمل منظر وعلى هذاالشكل قبر ابراهيم ابن النبي (ص) . ويلي هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول (ص) ، ويعرف ببيت الحزن ، يقال انه الذي آوت اليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى (ص) . وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ، ذي النورين وعليه قبة صغيرة مختصرة . وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أم علي رضي الله عنهما . ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين . وعلى قبر فاطمة المذكورة مكتوب « ما ضم قبر أحد كفاطمة بنت أسد » رضي الله عنها وعن بنيها .

ويبحث دونالدسون في كتابه (الص ١٤٧) عن أهمية زيارة المدينة من الناحية الدينية ، فينقل خلال ذلك أقوالاً كثيرة من كتب الشيعة ، وأخصها كتاب « تحفة الزائرين » للملا محمد باقر المجلسي (١٦٩٩ م) فيقول مثلاً ان عدداً من الأئمة المعصومين الأثني عشر يروي عن النبي أنه قال « من زارني حياً أو ميتاً كنت له شفيعاً يوم القيامة » . وروي عنه كذلك أنه قال « من زارني غفرت ذنوبه ولم يصب بالفقر والفاقة » .

ويتطرق دونالدسون كذلك (الص ١٤٨) إلى كيفية زيارة الحرم الشريف ، والمراسيم التي يجب أن يقوم بها الحاج عند دخوله اليها . وقد رأيت من المناسب أن أورد هنا النص الذي جاء في « مفاتيح الجنـــان »

للشيخ عباس القمي (الص ٣١٥) لأنه يطابق ما يذكره دونالدسون في الغالب :

... فإذا وَرَدت إن شاء الله تعالى مدينة النبي فاغتسل للزيارة ، فإذا أردت دخول مسجده فقف على الباب واستأذن بالاستئذان الأول ، وادخل من باب جبرائيل وقدم رجلك اليمنى عند الدخول ، ثم قل : الله أكبر مئة مرة ثم صل ركعتين تحية المسجد ، ثم امض إلى الحجرة الشريفة فإذا بلغتها فاستلمها بيدك وقبلها ، وقل السلام عليك يا رسول الله .. ثم قف عند الأسطوانة المقدمة من جانب القبر الأيمن مستقبل القبلة ومنكبك الأيسر إلى جانب القبر ومنكبك الأيمن مما يلي المنبر فأنه موضع رأس النبي (ص) وقل أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ... فإن كانت لك حاجة فاجعل القبر الطاهر خلف كتفيك واستقبل القبلة وارفع يدك وسل حاجتك فإنه أحرى أن تقضى إن شاء الله تعالى .. وقال الشيخ في المصباح فإذا فرغت من الدعاء عند القبر فأتِ المنبر وامسحه بيدك وخذ برمانتيه وهما السفلاوان وامسح وجهك وعينيك به وقم عنده واحمد الله وأثن عليه وسل حاجتك فإن رسول الله (ص) قال : ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على باب من أبواب الجنة .. ثم تأتي مقام النبي (ص) فتصلي فيه ما بدا لك ، وأكثر من الصلاة في مسجد النبي (ص) فإن الصلاة فيه بألف صلاة .. وصل في بيت فاطمة عليها السلام ، وأت مقام جبرائيل وهو تحت الميزاب فإنه كان مقامه إذا استأذن على رسول الله .. ثم زر قبر فاطمة من عند الروضة ، وقد اختلف في موضع قبرها فقال قوم هي مدفونة في الروضة أي ما بين القبر والمنبر وقال آخرون في بيتها ، وقالت فرقة ثالثة انها مدفونة بالبقيع ، والذي عليه أكثر أصحابنا أنها تزار عند الروضة ومن زارها في هذه الثلاثة مواضع كان أفضل ...

ويذكر دونالدسون (الص ١٥١) بالأضافة إلى ذلك أن هناك عموداً

أدخل في المسجد يقال انه يحتوي على جزء من النخلة التي كان يتكىء عليها النبي حينما كان يجلس للوعظ ، قبل بناء المسجد .. ويقول دونالدسون وهناك تعليمات أخرى عن زيارة البقيع وأدعية تتلى على قبر فاطمة ، والحسن، وزين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق عليهم السلام .. لكن الحاج الذي يزور البقيع اليوم لا يجد أية قباب مذهبة ولا قبوراً مزينة ، فإن البقعة جميعها ، والمكان الذي يثوي فيه مثل هذا العدد من آل بيت النبي مصطفى ، قد أصبحت قفراً مهجوراً . .

أئمـة البقيع

ولا يخفى أن ذكر الأئمة المطهرين الذين دفنوا في البقيع بالمدينة ، أي الحسن ، وزين العابدين ، والباقر ، والصادق عليهم السلام ، يرد في معظم المراجع الغربية التي تبحث في تاريخ المسلمين وعقائدهم مثل دائرة المعارف الإسلامية وغيرها . لكن أهم من يكتب عنهم بشيء من التفصيل هوالدكتور دونالدسون في كتابه عقيدة الشيعة . فهو يخصص فصلاً واحداً من كتابه لكل أمام من الأئمة الاثني عشر المعصومين ، ومنهم أئمة البقيع سلام الله عليهم . ومع أن ما يكتبه عنهم فيه الكثير من التجني والخبث الذي يؤمل صدوره من مبشر مسيحي مثل دونالدسون ، إلا أنه يذكر أشياء تستحق الإشارة والتدوين .

ويستهل بحثه عن الأمام الحسن بقوله انه نودي به خليفة للمسلمين في الكوفة بعد وفاة والده الأمام علي بيومين ، وكان ذلك في شهر رمضان سنة أربعين للهجرة . فبعث برسله ووكلائه إلى السواد والجبل ، وقتل المجرم عبد الرحمن بن ملجم .. وبعد أن يناقش دونالدسون حق الحسن في تولي الخلافة بعد أبيه يقول ان الإمام علياً سلّم إلى الحسن قبيل وفاته بحضور آل البيت ورجال الشيعة المعروفين ، الكتب السرية وسلاحه . ثم خاطبه يقول : يا بني أمرني رسول الله أن أوصي اليك وأن أدفع

كتبي وسلاحي ، كما أوصى إلي رسول الله (ص) ودفع كتبه وسلاحه إلي ، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين . ثم أقبل على ابنه الحسين فقال : وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك هذا ، ثم أخذ بيد علي بن الحسين ثم قال له وأمرك رسول الله أن تدفعها إلى ابنك محمد بن علي واقرأه من رسول الله (ص) ومني السلام ... ويروى أن علياً دعا الحسن وسماه « ولي الأمر » وكذلك « ولي الدم » ، أي أنه ترك له أمر الثأر لدمه والاقتصاص من القاتل .

ثم يتطرق إلى التطورات التي حصلت بعد ذلك فأدت إلى تنـــازل الإمام الحسن عن الخلافة إلى معاوية ، وينقل في ذلك عن الدينوري في أخباره الطوال وعن اليعقوبي في تاريخه المعروف . ويقول بعد هذا نقلاً عن السيوطي ان تنازل الأمام كان مشروطاً بعودة الخلافة له بعد معاوية ويتابع دونالدسون بحثه هذا فيذكر أن طول المدة التي تولى فيها الحسن الخلافة بعد أبيه غير أكيد . إذ يقول المسعودي انها كانت ستة أشهر وثلاثة أيام ، وان الحسن أول خليفة تخلى عن سلطته لغيره . غير أن المتفق عليه عند الشيعة أن خلافته كانت عشرة أعوام وستة أشهر ، وأن أربعة عشر شهراً منها مارس فيها شؤون الخلافة بالفعل ، ثم فوض أمرها إلى معاوية لمدة تسع سنين وأربعة أشهر على سبيل الاضطرار والتقية وحقناً لدماء أتباعه ومحافظة على أموالهم وأسرهم من جور معاوية وظلمه . أما الفرق بين الأشهر الستة التي يذكرها المسعودي والأربعة عشر شهراً المشار اليها فتفسر بالحادث الذي بايعت فيه المدينة المنورة الأمام الحسن في خلافة والده الذي نازعه فيها معاوية بحيث جرد جيشاً على المدينتين المقدستين بقيادة بسر[1] لأخذ البيعة له ، وكانت مكة قد بايعت الأمام علياً وبادرت المدينة إلى مبايعة ابنه الحسن .

---

(١) يستند دونالدسون في هذا على مروج الذهب للمسعودي والسرويليام موير :
Muir: Sir William - Annals of Early Caliphate, p. 409.

ويذكر بعد ذلك أنه بينما كان الأمام علي قد ولد في الكعبة نفسها ، فقد ولد ابنه الحسن في المدينة أي في بيت علي وفاطمة عليهما السلام وهو البيت الوحيد الذي سمح جبرائيل بأن يكون له باب مطل على صحن المسجد النبوي الشريف . ويتعرض دونالدسون بعد هذا إلى حياة الأمام الخاصة (الص ٧٤) وسيرته فيذكر روايات وآراء تدل على جهله الفاضح بالتاريخ الأسلامي وتحامله الذي لا يستبعد صدوره من مبشر يتطفل على البحث في مثل هذه المواضيع . ومن المؤسف أن يضيق المجال لمناقشته هنا وتفنيد أوهامه وآرائه الخاطئة . ثم يختم فصله عن الأمام المجتبى بالأشارة إلى وفاته فيقول انه عليه السلام قد توفي مسموماً بعد محاولات عدة بذلت من أجل ذلك . فقد حاول أعداؤه أن يدسوا له السم في طعامه عن طريق خادم له يقدم الطعام فاكتشف أمره ، وحاولت زوجته جعدة بنت الأشعث الكندي ثلاث محاولات متتالية أن تسمّه بعد أن أغراها مروان على ذلك باسم معاوية ووعدها بأن يزوجها يزيد بن معاوية إذا ما توفقت في قتله . وكانت أول محاولة لها أنها دست له السم في العسل فمرض على أثر ذلك مرضاً شديداً لكنه تغلب على الجرعة غير القاتلة وحصر شكّه فيها . ولهذا صار يراقبها بحذر لكنها استطاعت أن تدسّ له السمّ الزعاف مرة ثانية في بضع تمرات ناضجة فسقط مريضاً تنتابه الآلام الفظيعة ، غير أنه استطاع في هذه المرة أيضاً أن يتغلب على السم وتعود اليه صحته بالتدريج .

ومن الغريب أن يذكر دونالدسون أن أعصاب الأمام عليه السلام قد انهدت في هذه المرة ، وشكا لأصحابه من أسقامه وآلامه ، فقرر الرحيل إلى الموصل ليبتعد عن زوجته الخائنة . غير أنه وجد هناك رجلاً أعمى ظل يتربص به الفرص ليدس له السم بطريقة أخرى أيضاً . ولعل دسائس معاوية ، الذي كان يهمه أن يقضي على الأمام ليتخلص من الشروط التي اشترطها عليه ، ظلت تلاحقه إلى كل مكان يذهب اليه .

ولهذا لم يجد الحسن عليه السلام هدوء البال الذي كان يبتغيه في الموصل فعاد إلى المدينة من جديد ، وفيها قرر الابتعاد عن زوجته جعدة وبذل أقصى ما يمكن من الحذر في مأكله ومشربه . لكن الخائنة استطاعت أن تتسلل إلى مخدعه في ليلة من الليالي وهي تحمل سماً قاتلاً مزج بمسحوق الماس ، وبينما كان يغط في نومه وضعت السم في إناء من الماء كان موضوعاً بجنبه . وما أن شرب جرعة منه في اليوم الثاني حتى خر صريعاً في الحال وهو يلفظ قطعاً من كبده إلى الخارج . حتى قضى نحبه ... وتقول الرواية انه أوصى أن يدفن إلى جنب جده النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وإذا ما حالت دون ذلك الحوائل . أن يدفن إلى جنب أمه الزهراء في البقيع فتم له ذلك .

ولما لم نجد ذكراً للمرجع الذي استند اليه دونالدسون في الرواية الأخيرة وجدنا من المناسب أن ننقل هنا رواية المسعودي في هذا الشأن . فقد جاء في الجزء الثاني (الص ٤٢٧) قوله حدثنا جعفر عن محمد أبيه . عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم . قال : دخل الحسين على عمي الحسن بن علي لما سُقي السم . فقام لحاجة الأنسان ثم رجع ، فقال : لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه . لقد لفظت طائفةً من كبدي فرأيتني أقلبه بعودٍ في يدي . فقال له الحسين : يا أخي من سقاك ؟ قال وما تريد بذلك ؟ فإنْ كان الذي أظنه فالله حسيبه ، وإن كان غيره فما أحب أن يؤخذ بي بريء ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً حتى توفي رضي الله عنه .

وذكر أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سقته السم ، وقد كان معاوية دس اليها : انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك بمئة ألف درهم ، وزوّجتك من يزيد ، فكان ذلك الذي بعثها على سمه ، فلما مات وفى معاوية لها بالمال ، وأرسل اليها : أنا نحب حياة يزيد ،

ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه. وفي جعدة يقول النجاشي في شعرٍ طويل:

جعــدة بَكيّهِ ولا تسأمــي بعدُ بكاء المُعولِ الثاكــل
لم يُسبل السترَ عــلى مثله في الأرض من حافٍ ومن ناعل
كان إذا شبت لــه نــاره يرفعهــا بــالسند الغــاتل
كيما يراهــا بائس مرمــل وفرد قوم ليس بالآهــل

وقال آخر:

تأسّ فكم لك من سلوةٍ تفرج عنك غليل الحــزن
بموت النــبي . وقتل الوصي وقتل الحسين وســمّ الحسن

وفي الفصل المخصص للأمام زين العابدين عليه السلام (الفصل ٩ الص ١٠١) يبدأ دونالدسون بالبحث عن انقسام الشيعة في تولي الأمامة بعد الحسين إلى كيسانية يرجحون محمداً ابن الحنفية، وإمامية يتمسكون بوصية الأمام الشهيد لابنه علي زين العابدين. ثم يذكر أن زين العابدين، الذي يسميه علياً الأصغر. كان أحد خمسة نجوا من القتــل في مجزرة كربلا الفظيعة من أسرة الحسين وهم: عمته زينب وأخوه عمر وأختاه، وهو نفسه. وكان عليه السلام لا يقل عمره عن ثلاثٍ وعشرين سنة حينما استشهد والده في حومة الشرف والمجد. ولم يسهم في القتال لأنه كان مريضاً ومن أجل هذا أنقذ حياته عمر بن سعد. ويصفه الدينوري بأنه كان مراهقاً يومذاك، وكان أخوه عمر لا يتجاوز الرابعة من عمره. ثم يورد دونالدسون رواية الدينوري في أخباره الطوال عن سبي الأسرة الحسينية وحمل الرؤوس إلى عبيد الله بن زياد، وإلى يزيد في دمشق. ويقول ان الخمسة الذين نجوا من القتل الأثيم سمح لهم في دمشق بــأن يعودوا إلى موطنهم في المدينة، وهناك رووا للناس أوجه النكبة التي حلت في كربلا. وكانت دعاية خطرة هيأت الجو للقيام في وجه الأمويين وجورهم، بعد أن سفكوا دماء آل البيت الزكية.. وقد اغتنم هذه الفرصة عبد الله بن

الزبير ، وكان يومذاك ،في أوائل الستينات من عمره ، وكان انتهازياً ، طموحاً بشكلٍ أناني ، برغم ما كان عنده من قابلية للقيادة والتزعم .. ويذكر أنه كان على خلاف الباقين قد شجع الأمام الحسين على الذهاب إلى الكوفة لغرض في نفسه ، لأنه عرف مقدماً أن الحسين (ع) سيخونه أهل الكوفة ويقتلونه ، وأن الجو سيخلو له بعد ذلك فتسنح الفرصة الكبيرة للثورة .. وحينما ثارت ثائرة أهل المدينة لسماعهم بتلك الأنباء المفجعة والفظائع المخزية التي ارتكبها الأمويون جمعهم عبد الله بن الزبير في المسجد الكبير ، وأكد على خيانة أهل الكوفة حين خطب بهم ، فأدى ذلك إلى مناداة أهل المدينة ، وأهالي مكة من بعدهم ، به خليفةً عليهم .

وبهذا اتفقت المدينتان المقدستان على الثورة في وجه يزيد ، وتعين في كلٍ منهما رجل للقيادة . لكن عبد الله جعل مقرّه في مكة وراح يهيج سكان الجزيرة العربية كلها ضد الأمويين . لكن مسلم بن عقبة جرد من دمشق في الحال سنة ٦٣ هـ على رأس حملة تأديبية ضد المدينة ومكة . ويبدو أن هذه الحملة (واقعة الحرة) كانت على شكل غزوة سريعة لأن ابن الزبير لم يعرف اندحاره فيها ، بينما تذكر التواريخ أن عدداً من قادة الثورة قد قتلوا فيها وأن سكان المدينة قد تعرضوا لأسوأ أنواع العنف والأباحة ، وانتهكت قدسية الحرم النبوي الشريف . وبعد ثلاثة أيام من التهديم وسفك الدماء جلس مسلم بن عقبة في ديوانه الرسمي ليتقبل طاعة الذين سلموا من القتل من أهالي المدينة ليزيد ، وتقديم عبوديتهم له . وكان بين الذين جيء بهم اليه الأمام زين العابدين عليه السلام ، لكنه احتفى به على ما يروى وأجلسه بقربه ثم قال له ان يزيد أوصاه به خيراً .

... وعند ذاك كان أهل الكوفة قد شعروا بالتقصير الذي بدر منهم تجاه الحسين الشهيد ، فلم يرضوا بمروان الذي تولى بعد هلاك يزيد ولا بابن الزبير الذي كان معتصماً في مكة . فاجتمعوا بينهم وانتخبوا خمسة

منهم ، وهؤلاء تداولوا مع سليمان بن صرد الخزاعي ، وقرروا بأن أول ما يجب عليهم أن يفعلوه هو أن يتوبوا إلى الله عما بدر منهم في خذل الأمام الحسين والقعود عن نصرته ، فسموا بـ « التوابين » ، ثم اتفقوا على تطهير الأرض من قتلة أهل البيت ، وتعيين الأمام زين العابدين خليفة للمسلمين [1] ... وبعد أن تطورت الأحداث ظهر المختار بن أبي عبيد في الكوفة مدعياً بأنه يمثل الأمام زين العابدين الذي كان ما يزال باقياً في المدينة .. وحينما قضى ابن الزبير على المختار لم يتعرض للأمام عليه السلام لأنه كان على علم بعدم وجود صلة للمختار به . وكان الأمام قد تسلم معروضات خاصة منه قبل هذا لكنه ترفع عن الرد عليها . وكان يشجب أعماله على ملأ من الناس في مسجد النبي .

ثم يتطرق دونالدسون (الص ١٠٧) إلى قصة الأمام زين العابدين مع عمه محمد ابن الحنفية أيضاً . فيقول ان قضية الاختلاف في تولي الأمامة بين محمد ابن الحنفية وزين العابدين كانت من قضايا الساعة الحيوية خلال فترة الاضطراب التي رافقت حركة ابن الزبير وأعقبتها . وأدت إلى حصول اختلافات بين الشيعة وتكوّن فرقة جديدة منهم . فقد كانت الجهود التي بذلها الحزب الشيعي للحصول على السلطة الدنيوية في الامبراطورية الإسلامية جهوداً فاشلة مرة بعد أخرى . وكانت أول نتيجة لذلك أنهم حوّروا نظريتهم المختصة بالأمامة وصاروا يعتبرون الأئمة قادة روحيين في الدرجة الأولى . وشفعاء عند الله يوم الدين .

ويقول دونالدسون ان ابن الحنفية ذهب بعد موت ابن الزبير إلى مكة مع ابن أخيه زين العابدين ليقررا أيهما الوارث الحقيقي للأمامة . فقد كان

---

(١) يستند دونالدسون في هذا على كتاب « الاثنا عشرية » الذي كتبه بالإنكليزية كانون سيل : Sell, Canon - ithna A shariyya, or The Twelve Shi'ah Imams, Madras 1923. P 6.

يدعي أنه أحق منه بها لأنه كان ابن علي بن أبي طالب . لكن زين العابدين طلب منه أن يخاف الله ولا يأتي بهذه البدعة ثم اتفقا على التحكيم أمام الحجر الأسود في بيت الله الحرام فكانت النتيجة في صالح الأمام زين العابدين بطبيعة الحال . ولذلك عاد إلى المدينة وعاش فيها عيشة هادئة منعزلة ، تفرغ فيها للعبادة وشؤون الدين ، وبقي على هذا المنوال مدة تناهز العشرين عاماً . وقد عرف بين الناس في كل مكان بورعه وتعبده . وبحزنه المتواصل على والده عليه السلام ، حتى سمّي بزين العابدين . وهو الأسم المسجل له في الجنة . ويقال انه أحد خمسة أو ستة بكائين اشتهروا في تاريخ العالم . ومما يؤثر عنه أنه كان يكبّر سبعين تكبيرة في كل صلاة ، ويقرأ القرآن كله من أوله إلى آخره . وكان مشتهراً علاوةً على ذلك بحسن تجويده للقرآن وصوته العذب الحنون . وبانصرافه للصلاة آناء الليل وأطراف النهار حتى تخشبت بعض أعضائه من أثر السجود وسمي السجاد كذلك .

..ولا بد من أنه كان على جانب عظيم من ضبط النفس وكظم الغيظ ، فقد روي عنه أن خادماً من خدامه أراق على رأسه ورقبته عليه السلام شيئاً من الطعام الحار خطأً ، فلم يؤنبه وإنما سرّحه وأعتقه باحسان . ومما يروى عن سخائه وكرمه أنه كان يخرج في المدينة كل ليلة وهو يحمل أكياس القمح والطحين ليوزعها على بيوت المحتاجين من دون أن يعرفوا هويته ، حتى بلغ عدد الأسر التي كان يعينها على هذه الشاكلة ثلاث مئة أسرة . أما خلال النهار فكان يذبح في كل يوم مئة رأسٍ من الغنم ، ويوزعها على الناس . لكن معظم وقته كان يقضيه وهو جالس للصلاة فوق قطعة بالية من الحصير من دون أن يأكل شيئاً ، لأنه كان يصوم في الغالب أو يأكل شيئاً من خبز الشعير .

وكان يشبه في مظهره جده الأمام عليا (ع) . فقد كان طوله بطول جده ، وكان شعره يميل إلى الحمرة في لونه ، كما كان أبيض الوجه

والرقبة عالي الصدر كبير البطن . وكان أول أمام يكتفي بأمرأة واحدة . وهي التي أنجب منها الأمام محمداً الباقر (ع) الذي خلفه في الأمامة . لكنه أعقب أربعة عشر ولداً غيره من إمائه أو جواريه .. وبعد أن يذكر دونالدسون (الص ١١٠) ما وقع للأمام زين العابدين مع هشام بن عبد الملك حينما جاء ليطوف حول الكعبة . وهي القصة التي نظم فيها الفرزدق الشاعر قصيدته المشهورة . يقول ان هشاماً هذا أمر بأن يدبر قتله بالسم . فتوفي سلام الله عليه سنة ٩٤ أو ٩٥ للهجرة ، وهو في السابعة والخمسين من عمره فدفن في بقيع الغرقد إلى جنب عمه الحسن عليهما السلام . وقد قضى عمره على الوجه التاريخي الآتي : فقد قضى سنتين في أيام جـــده علي ، وعشر سنين من أيام عمه الحسن ، وعشراً من إمامة أبيه الحسين ، وخمساً وثلاثين سنة اماماً للمسلمين من بعدهم .

وفي الفصل العاشر من كتاب « عقيدة الشيعة » يذكر دونالدسون شيئاً غير يسير عن حياة الأمام محمد الباقر عليه السلام ، الذي عاش عمره كله في المدينة المنورة . فهو يقول ان الأمام تولى بعد أبيه السجاد في السنة الاخيرة من أيام الوليد بن عبد الملك . وكان المجتمع الأسلامي يومذاك قد تقدمت فيه شؤون الثقافة ، وتعددت دور العلم . وكان الامام الجديد الذي عاش عيشةً منعزلة هادئة في المدينة ، على غرار عيشة أبيه ، يعتبر المرجع الأول للعقيدة الشيعية وقد ظل كذلك تسعة عشر عاماً تقريباً . على أن هناك اختلافاً في تاريخ وفاته بين المؤرخين ، فيذكر اليعقوبي أن ذلك وقع في سنة ١١٧ للهجرة ، بينما يشير المسعودي إلى أنه توفي في سنة ١٢٥ أو ١٢٦ هـ .

وقد عرف الباقر بتضلعه في العلم وتبحّره فيه ، وكان يقدر تقديراً فائقاً لعلمه هذا ونبل مولده وشرف محتده . وسمي بالباقر على هذا الأساس ، لأنه تبقر في العلم أي توسع ، وهو باقر علوم الأولين والآخرين . وكان قد ولد في المدينـــة المنورة في الثالث من شهر صفر سنة ٥٧ للهجرة ،

والمقول أنه كان في الثالثة أو الرابعة من عمره حينما استشهد جده الحسين . وكانت أمه بنتاً من بنات الأمام الحسن تسمى أم عبد الله . وكان هشام بن عبد الملك الأموي كثيراً ما يضايقه ويثير الشكوك من حوله . وقد حاججه ذات يوم في إمامته ، وكان من جملة ما أجابه عليه السلام أنه استهل الحديث بالآية الكريمة .. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً .. ثم قال ان النبي قد كشف للامام علي عن أسرار أخرى بعد أن نزل عليه الوحي بها . ومن بين آل البيت جميعهم اصطفى الأمام علياً واحداً فقط فجعله موضع ثقته . وانتقل اليه ميراث العلم بالأسرار ، فسأله هشام : إذا كان الله لم يجعل للنبي شريكاً يشاركه في أسراره ، فكيف يدعي علي بذلك؟ لكن الأمام الباقر قرأ عليه كثيراً من أقوال النبي وأحاديثه في هذا الشأن مما يدل على منزلة الأمام علي عنده وعلاقته به . وحينما سمع هشام كل هذا صمت ولم يحر جواباً ، ثم سمح للأمام الباقر وجماعته بالعودة إلى المدينة .

وحينما عزم زيد بن علي زين العابدين أخو الأمام الباقر على الثورة ضد الأمويين ذهب اليه في سنة ١٢١ أو ١٢٢ للهجرة وأخذ رأيه فيما هو مقدم عليه ، لكن الأمام الباقر حذر أخاه هذا من الاعتماد على أهل الكوفة وذكره بما صنعوه بأهل البيت من قبل . على أن زيداً لم يعبأ كثيراً بالتحذير وأعلن الثورة فقتل وعلقت جثته على صليب في كناسة الكوفة ، بينما طيف برأسه في الأمصار . ويشير دونالدسون إلى ما يذكره الشهرستاني في (الملل والنحل) من أن خلافاً كان موجوداً بين الأمام الباقر وأخيه زيد لأنه كان يتبع تعاليم واصل بن عطاء المعتزلي . وكان زيد يتحدث بما ينسبه المعتزلي إلى الأمام علي من خطأ في قتل الخوارج ، وبما يقوله المعتزلة من أن دوافعه عليه السلام لم تكن الدوافع التي كان يريدها أهل البيت في هذا الشأن . وكان زيد يعتقد كذلك بأن الأمامة كانت مشروطة بقيام الأمام علناً للمطالبة بحقوقه . فرد عليه الباقر يقول :

« إذن فأنت لا تعتقد بأمامـة أبيك ، لأنه لم يقم للمطالبة بحقوقـه قط » .

وهناك غموض يكتنف سبب وفاة الباقر والوقت الذي حصلت فيه الوفاة . فيقول بعضهم ان ابراهيم بن الوليد دس له السم ، لكن رواية أخرى تقول ان زيداً آخر من أبناء الحسن نازع الأمام على الميراث ، واتفقا على أن يحتكما عند القاضي . وحينما حكم القاضي في صالح الأمام الباقر استأنف زيد القضية لدى هشام بن عبد الملك . وبتأثير من اتهامات زيد هذا بعث هشام بهدية ذهب إلى حاكم المدينة ، وفي صحبتها تعليمات تشير عليه باستحصال الميراث من الباقر ، أو المستندات التي يستند اليها في أخذ الميراث . لكن الأمام الباقر سلم إلى حاكم المدينة صندوقاً يحتوي على المستندات المزيفة التي يستند اليها زيد . وهذه أرسلت إلى هشام بن عبد الملك في دمشق ، وحينما اطلع عليها زيد أيقن بأنها مزيفة . وتقول رواية الشيعة ان هشاماً أعطى إلى زيد سرجاً مسموماً ، واحتال زيد في أن يعطي هذا السرج إلى الأمام الباقر فاستعمله وتسرب السم إلى جسمه الطاهر ، فقضى نحبه !! وتقول الرواية كذلك ان الحكمة الآلهية شاءت أن تقتص من زيد هذا فأصيب بمرض عضال فقد فيه عقله ومات* .

ويورد دونالدسون ما يروى عن جابر بن عبدالله الأنصاري الذي عاش إلى أيام الباقر ، ونقل له حديث الرسول (ص) .. فقد روى جابر أن رسول الله قال له ذات يوم : يا جابر يوشك أن تلتحق بولد لي من ولد الحسين اسمه كأسمي يبقر العلم بقراً أي يفجره تفجيراً ، فإذا رأيته فاقرأه عني السلام . قال جابر رضي الله عنه فأخر الله تعالى مدتي حتى

(*) ولا حاجة للإشارة إلى أن كثيراً مما ورد في هذا الفصل لم يخرج عن حدود الخلط سواء كان هذا الخلط من المصادر الضعيفة التي اعتمدها دونالدسون أو الأراء التي استخلصها هو لنفسه .
الخليلي

رأيت الباقر فأقرأته السلام عن جده رسول الله (ص) [1] .. ثم يختم الفصل بما جاء من أقوال ومعجزات تنسب إلى الأمام الباقر ، وبمناقشة يلقي فيها ضوءاً من الشك على اعتقاد الشيعة بوفاة الباقر مسموماً بتدبير بني أمية . ومع هذا فيقول في النهاية ان التحركات التي نشطت ضد الأمويين كانت تزداد شيئاً فشيئاً في تلك الأيام بحيث احتجب في أهميتها الوقت المضبوط الذي انتهت فيه امامة الباقر ، الأمام المسالم ، وبدت فيه امامة ابنه الصادق ، المسالم كذلك .

أما الامام جعفر الصادق (ع) فيقول عنه دونالدسون (الص ١٢٩) انه الأمام الذي يشار اليه على الدوام بكونه الحجة في شؤون الحديث والشرع الأسلامي . وقد عاش خمسة وستين عاماً (٨٣ – ١٤٨ هـ) ، وبذلك عمر أكثر من أي امام آخر من الأئمة المعصومين الأطهار . ويجمع الكتاب على أن أمه هي أم فروة ابنة القاسم بن محمد بن أبي بكر . ولم يذكر عن هيئته وأوصافه عليه السلام إلا أنه أبيض الوجه والجسم ، أسود الشعر ، أقنى الأنف . كما لم يذكر عن حياته البيتية إلا القليل ، فقد كان له عشرة أولاد سبعة منهم من زوجتيه الأصليتين وإحداهما تسمى فاطمة ، أما الثلاثة الآخرون فمن إمائه وجواريه

وقد عاش الصادق عليه السلام بعيداً عن السياسة وأحوالها بعداً تاماً . فيذكر المسعودي أن ابراهيم الزعيم العباسي حينما قتله مروان الثاني خشي أبو سلمة أن تفشل الدعوة ضد الأمويين فحاول إقناع جعفر الصادق بأن يأتي اليه شخصياً ، فيعلن حقه في الأمامة ، ويتقبل ولاء الخراسانيين له . على أن الأمام دعا بمصباح وأحرق كتاب أبي سلمة فيه ، ثم قال للرسول الذي حمل الكتاب اليه : أخبر سيدك بما رأيت .. ويذكر الشهرستاني

---

(١) نقلنا النص الأصلي لهذا الحديث عن (الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة) لابن الصباغ المالكي ، طبعة النجف ، الص ١٩٣ .

أن معرفة الأمام الصادق بالشؤون الدينية والثقافية كانت ممتازة . وكان على علم تام بالفلسفة ، وبلغ مبلغاً عظيماً من التقوى ، وترفع عن الشهوات بالمرة . وقد عاش مدة طويلة في المدينة بحيث أفاد طائفته وأتباعه إفادة تامة ، ونفع أصدقاءه بالعلوم الخفية . وزار بعد ذلك العراق ، لكنه لم يظهر للملأ فيعلن امامته ، ولم يبحث في شؤون الخلافة مع أحد . لأنه كان غارقاً في بحور العلم والمعرفة ، من دون أن يروقه أي شيء آخر ، فمن يرتفع إلى قمة الصدق لا يخشى التدني . وبتعبير آخر : أن الذي يتفرغ لله ينكمش عن البشر لكن من يعتصم بغير الله تقضي عليه الشهوات [1] . . وكان الصادق يتصل بشجرة النبوة من جهة الأب بطبيعة الحال وبأبي بكر الصديق من جهة الأم . ويضيف دونالدسون على ذلك قوله انه قال ذات يوم : برئت ممن يذكر أبا بكر وعمر بسوء . وقد يكون موقفه هذا تجاه أهل أمه ، أو قابليته في تقدير المزايا الحسنة في الخليفتين الأولين ، مما ساعده على تحاشي سوء ظن الخلفاء الذين عاصروه به — أي هشام والوليد وابراهيم ومروان من الأمويين ، والسفاح والمنصور من العباسيين .. ويذكر كذلك عن الكليني بعض الكرامات والمعجزات ، وعن مقابلاته لأبي جعفر المنصور الذي كان يخشاه ويسيء الظن به .

ويظهر مما يذكر عن النمط الذي كان يتبعه الأمام الصادق في حياته العلمية وغيرها وهو قابع في حديقته الجميلة في المدينة ، والسخاء الذي كان يبذله في استقبال زواره فيها من جميع الطبقات ، بأنه كان يعقد مجامع للمناقشة ، أو يدير مدرسة فلسفية على نمط مدرسة سقراط . فأن

---

(١) هذا ما يقابل النص الوارد بالإنكليزية ، أما النص الأصلي الوارد في كتاب الملل والنحل فيقول الشهرستاني فيه « .. وقد أقام في المدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين اليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ، ثم دخل العراق ، وأقام بها مدة ما تعرض للأمامة قط ، ولا نازع أحداً في الخلافة ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط ، وقيل من أنس بالله توحش عن الناس ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس .. »

عدداً من تلامذته أسهموا اسهاماً خطيراً بعد ذلك في تطور الشريعة والعلوم الدّينية. وقد افتى اثنان من تلامذته بعد ذلك بسنوات، وهما أبو حنيفة وأنس بن مالك، موسسا المذهبين الأسلاميين المعترف بهما، إلى سكان المدينة نفسها أن القسَمَ الذي أقسماه عند المنصور لا يمكن أن يعتبر شيئاً ملزماً لأنه أُعطي بضغط واكراه. ويروى أن تلميذاً آخر من تلامذته، وهو واصل بن عطاء موسس طائفة المعتزلة، جاء اليه للمناقشة بنظريات أدت إلى طرده من صفوف الأمام الصادق. وكان جابر بن حيان الذي اشتهر بالكيمياء من تلاميذه كذلك.

وقد يكون أبو حنيفة أشد إثارةً للاهتمام من تلامذته، وهو الذي كان يلقي محاضرات عامة في الكوفة تستثير الكثير من العناية والالتفات. وكان يعتمد في استنباط الأحكام على القياس [1] والرأي، ولذلك انتقده الفقهاء من خصومه في مكة والمدينة. ولا شك أن أحكامه في هذا الشأن كانت تتناول الشرع الأسلامي بوجه عام، ولم يكن ما يصدره من هذا

(١) ونرى من المناسب في هذا الشأن أن نورد الخبر التالي نقلا عن كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن العاملي: قال عبد الله بن شبرمة دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد فقال لابن أبي ليلى من هذا الذي معك؟ قال هذا رجل له بصر ونفاذ في أمر الدين، قال لعله يقيس أمر الدين برأيه، قال نعم، قال فقال جعفر بن محمد لأبي حنيفة ما اسمك؟ قال نعمان، قال يا نعمان هل قست رأسك بعد؟ قال كيف أقيس رأسي؟ قال ما أراك تحسن شيئاً، قال هل علمت ما الملوحة في العينين والمرارة في الأذنين والحرارة في المنخرين والعذوبة في الشفتين؟ قال لا قال ما أراك تحسن شيئاً.. فقال جعفر أخبرني أبي عن جدي أن رسول الله قال إن الله تعالى بمنه وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين لأنهما شحمتان ولولا ذلك لذابتا، وأن الله تعالى بمنه وفضله لابن آدم جعل المرارة في الأذنين حجاباً من الدواب فإن دخلت الرأس دابة والتمست إلى الدماغ فإذا ذاقت المرارة التمست الخروج، وأن الله بمنه وكرمه ورحمته لابن آدم جعل العذوبة في الشفتين يجد بهما استطعام كل شيء ويسمع الناس حلاوة منطقه الخ وهذا الخبر الذي ينسب إلى الإمام الصادق تجاهله لأبي حنيفة وهو من تلامذته حتى ليسأل عن اسمه وشأنه ليتناقض مع الواقع تناقضاً شديداً اللهم إلا أن يكون قد وقع هذا قبل تلمذة أبي حنيفة على الإمام الصادق وهذا ما نشك فيه الخليلي

القبيل ذا صفة رسمية لأنه كان يرفض على الدوام الدخول في خدمة الحكومة لتسنم مناصب القضاء. وبذلك استطاع أن يحافظ على مركزه في أيام الأمويين والعباسيين معاً. ومن المحتمل جداً أنه كان يشايع العلويين بقوة، ويستاء من الكيفية التي كانوا يعاملون بها.

ويقول دونالدسون بعد ذلك انه من العجيب أن يكون هذان المشرعان المتعاصران قد استطاعا متابعة أعمالهما الشرعية، الأمام الصادق في المدينة وأبو حنيفة في الكوفة، مدةً طويلة من الزمن في مثل تلك الأزمنة المضطربة.. وقد كان أبو حنيفة يُقدر جد التقدير من قبل مشايعي الأمام الصادق لأنه كان ينتقد أبا جعفر المنصور ومن على شاكلته من الطغاة الجائرين من بني أمية أو بني العباس. فقد صرح ذات يوم بأن مثل هؤلاء الرجال لو أقدموا في يومٍ من الأيام على بناء مسجد من المساجد وكلفوه بمهمة عد الآجر السهلة من أجل ذلك لما فعل ما يريدون «لأنهم من الفساق، والفساق غير جديرين بتزعم المسلمين». وحينما نقل قوله هذا إلى المنصور أمر بالقبض عليه وأودعه السجن حتى توفي فيه. وكانت مكابدته لمثل هذا العناء بسبب قوله ذاك هي التي جلبت له مودة الشيعة وتقديرهم. ويستند دونالدسون في روايته هذه على ما رواه العلامة المجلسي في «تذكرة الائمة» (الص ١٣٠).

ويذكر مرجعنا بعد هذا أن رأي الأمام عليه السلام في القدر أو القوة التي تسير الأنسان في أعماله هو رأي وسط، إذ لا «جبر» ولا «تفويض» بل أمرٌ بين أمرين.. ويقول المؤرخ اليعقوبي انه كان من عادة الفقهاء الذين ينقلون عنه أن يقولوا «أخبرنا الأمام الحجة». وحينما نتذكر أن مالك بن أنس (٩٤ - ١٧٤ هـ) صاحب كتاب «الموطأ» كان معاصراً للأمام الصادق، أي قبل البخاري ومسلم بمدة تناهز القرن الواحد تقريباً، يكون من المهم جداً أن نجد أن الأمام الصادق يعتبر صاحب الفضل الأول في القول الذي أصبح بعد ذلك أهم قاعدة يستند اليها المسلمون في إلحكم

على صحة ما يروى من الأحاديث النبوية الشريفة ، وهو « خذوا ما يتفق منها وكتاب الله ، ودعوا ما يخالفه » .

وبعد أن يورد دونالدسون الكثير من الأقوال والروايات عن معجزات الأمام وحياته العلمية وقواعده الأخلاقية ، يذكر نقلاً عن ابن خلكان أنه عليه السلام كتب رسالةً في الكيمياء وكتب في الكهانة والجفر ، وأن تلميذه جابر بن حيان كتب كتاباً بألفي صفحة أدرج فيها أبحاث سيده الأمام عن الكيمياء التي كانت تكون خمس مئة رسالة .. وينهي الفصل بقوله ان الأمام توفي في السنة العاشرة من خلافـــة أبي جعفر المنصور (٧٦٥ – ١٤٨) ، وهو التاريخ الذي يتفق عليه المؤرخون بأجمعهم ، بعد أن عمر خمساً وستين سنة . وقد سُم عليه السلام بايعاز من الخليفة المنصور الذي كان يحاذر من وجوده وهو من هو بمنزلته بين المسلمين . وقد دفن في مقبرة البقيع في المدينة بالقرب من أبيه وجده . وبقيت على هذا الضريح المطهر لعدة قرون قطعة من المرمر كتب عليها : بسم الله الرحمن الرحيم ، سبحان الله الذي يبقي الأمم ، ويحيي العظام وهي رميم . هنا قبر فاطمة بنت رسول الله سيدة نساء العالمين ، هنا قبر الحسن بن علي ابن أبي طالب ، وهنا أيضاً قبر علي بن الحسين ، وهنا قبر محمد بن علي كذلك ، وهنا قبر جعفر بن محمد رضي الله عنهم أجمعين .

وتعليقاً على ذلك نورد ما جاء في (الفصول المهمة) لابن الصباغ المالكي (الص ٢١٢) في هذا الشأن : « .. ومات الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام سنة ١٤٨ في شوال وله من العمر ثمان وستون ، أقام فيها مع جده علي بن الحسين اثنتي عشرة سنة وأياماً ومع أبيه محمد بن علي بعد وفاة جده ثلاث عشرة سنة ، وبقي بعد موت أبيه أربعاً وثلاثين سنة وهي مدة إمامته عليه السلام . يقال انه مات بالسم في أيام المنصور وقبره بالبقيع دفن في القبر الذي فيه أبوه وجده وعم جده ، فلله دره من قبر ما أكرمه وأشرفه ، وأما أولاده فكانوا سبعة : ستة ذكور وبنت

واحدة ، وقيل كانوا أكثر من ذلك . والذكور هم : موسى الكاظم واسماعيل ، ومحمد وعلي ، وعبد الله ، واسحق ، والبنت اسمها أم فروة رضوان الله عليهم » .

الرحالة الغربيون في المدينة

لقد زار المدينة المنورة عدد غير يسير من الغربيين في مختلف العهود والأدوار ، وتسنى لهم الدخول إلى الحرم الشريف ، بعد أن ذهبوا اليه بصفة مسلمين حقيقيين وغير حقيقيين . وكان عددٌ من هؤلاء من أبرع الكتاب والباحثين ، ولذلك استطاعوا أن يكتبوا عن المدينة مؤلفات قيمة ويصفوها وصفاً شاملاً له أهميته القصوى في تاريخ المدينة وتدوين أحوالها . ومعظم هؤلاء كانوا قد زاروا مكة المكرمة كذلك واشتركوا في مناسك الحج فكتبوا أشياء كثيرة عنها ، وقد أشرنا إلى ذلك كله بشيء من التفصيل في الحلقة المختصة بمكة من الجزء الأول من سلسلة (العتبات المقدسة) هذه (الص ٢٥٠ – ٣٣٦) .

وأول أوربي زار المدينة في العصور المتأخرة ، بعد حجه في مكة بصحبة موكب الحج الشامي ، مغامر إيطالي يدعى لودفيكو فارتيما Ludvicuo Vartouannus من أهالي بولوني الأيطالية وكان قد أبحر من البندقية سنة ١٥٠٣ متوجهاً إلى الاسكندرية ، وتوجه من هناك إلى دمشق الشام حيث ارتبط بصداقة مع ضابط من الضباط المماليك . فقرر الذهاب إلى المدينة ومكة مع صديقه هذا في ضمن موكب الحج الشامي الذي خرج إلى البلاد المقدسة في اليوم الثامن من نيسان ، وقد تزيا فارتيما بزي جندي من جنود المماليك .

ويظهر من الرحلة [1] التي دونها فارتيما أنه رجل أفاق ، متحامل

(١) أورد الرحالة الإنكليزي المعروف السر ريتشارد بورتون نصوصاً كثيرة من رحلة فارتيما في الملحق الرابع من ملحقات رحلته المنشورة في ١٨٥٥ . وسوف نأتي على ما فيها بعد هذا

على النبي والأسلام ، بعيد عن الثقافة والاتزان ، ادعى أنه اتصل بكثير من المسلمات في رحلاته ، ودون ملاحظات فيها الكثير من الخلط والخرافات . فهو يقول انه وصل مع القافلة إلى جبل بالقرب من المدينة يسكنه قوم من اليهود يبلغ عددهم خمسة آلاف نسمة . وهؤلاء قصار القامة لا يزيد الواحد منهم على الخمسة أو الستة أشبار أو أقل من ذلك بكثير . ولهؤلاء أصوات رقيقة كأصوات النساء ، وبشرة تميل إلى السواد ، وهم يعيشون على لحوم الماعز . وإذا وقع المسلم بأيديهم يسلخون جلده وهو حي !!

وحينما وصل إلى المدينة التي يسميها « مدينة النبي » بقي فيها ثلاثة أيام ، وهو يدعي أنه دخل الحرم الشريف الذي يسميه المعبد ويصفه وصفاً موجزاً . فيقول أنه مسجد مقبب يدخل اليه من بابين كبيرين ، ويحمل سقفه حوالي أربع مئة عمود من الآجر الأبيض !! ، وفيه عدد كبير من المصابيح المعلقة ــ الثريات ــ يناهز الثلاثة آلاف !!! ويشير إلى وجود عدد من الكتب الدينية في جهة من جهات المسجد التي تحتوي على تعاليم الديانة الأسلامية وحياة النبي وأصحابه . ثم يذكر شيئاً عن القبر المطهر . ويقول انه توجد بقربه قبور أبي بكر وعثمان (كذا) وفاطمة . ومما يقوله كذلك ان الأمام علياً هو صهر النبي أو زوج ابنته فاطمة ، وان ابا بكر وعمر هما من قادة جيوشه .

وفي سنة ١٦٧٨ حج إلى الديار المقدسة شاب إنكليزي يافع من أهالي أوكسفورد يدعى جوزيف بيتس goseph Pitts . خرج يبتغي المغامرة والأسفار وهو في السادسة عشرة من عمره . ومن أجل ذلك انخرط في سلك البحرية فوقع أسيراً بأيدي القرصان الجزائريين في البحر المتوسط ، فعاش خمس عشرة سنة عبداً عند ضابط من ضباط الخيالة في الجيش الجزائري . وكان هذا قد ألح على عبده باعتناق الأسلام تكفيراً عن خطاياه هو ، فضغط كثيراً على العبد حتى نطق بالشهادة لكنه ظل يضمر النصرانية في قلبه خلال الوقت الذي قضاه في بلاد الأسلام والمسلمين كله .

فقد أخذه سيده الجزائري إلى مكة والمدينة ، وهناك أعتقه وأخلى سبيله ، لكنه ظل متعلقاً به وأخذ يخدمه بأجور حتى عاد إلى الجزائر . وبعد تقلبات كثيرة هناك هرب من الجزائر وعاد إلى بلاده بواسطة القنصل الإنكليزي . ومما يدل على مقدار تعصبه للنصرانية التي بقي عليها أنه ما كادت رجله تطأ الأرض في ميناء ليغهورن الأيطالي الذي هرب اليه حتى خر ساجداً وقبلها عدة مرات ، وهو يشكر الله على عودته إلى ديار النصرانية . ويبدو أن جوزيف بيتس هذا كتب مذكرات تفصيلية عن سفرته إلى الحج ، ووصف مكة بالتفصيل ، ثم كتب شيئاً غير يسير عن المدينة المنورة كذلك .

فهو يقول عن المدينة انها بلدة صغيرة ، فقيرة . ومع ذلك فهي مسورة بأسوارمحكمة وفيها الجامع الكبير ، لكنه لا يبلغ « معبد » مكة في ضخامته . ولذلك يعتقد أن هذا السور قد بني ما بين سنتي ١٥٠٣ و ١٦٨٠ . وفي زاوية من زوايا الجامع بناء يشغل خمسة عشر خطوة مربعة ، فيه شبابيك كبيرة مشبكة بالنحاس الأصفر . وفي داخله بعض المصابيح المعلقة والأعلاق النفيسة . وليس هناك ذلك العدد الكبير من المصابيح الذي كتب بعضهم يقول انها تبلغ ثلاثة آلاف في عددها . وفي وسط هذا المكان يوجد قبر محمد وهنا يتجاوز على النبي الأعظم ويسميه « دعياً » . ثم يصف الستائر ويشير إلى ما كان يتردد في هذا الشأن من الخرافة التي تقول ان الجدث الطاهر يشاهد وهو في تابوته معلقاً بين السقف والأرض . ويشير إلى البقعة المعدة للمسيح عيسى بن مريم ، ثم يقول ان المدينة تتزود بجميع ما تحتاجه من الحبشة الكائنة في الجهة المقابلة من البحر الأحمر .

هذا وقد زار المدينة عدد آخر من الأوربيين الرحالة بعد ذلك ، ولا سيما خلال القرن التاسع عشر منذ بدايته حتى نهايته . وقد كانت حملة الخديوي محمد علي باشا على الحجاز بأمر من الباب العالي في استانبول ،

لإنقاذها من الوهابيين ، سبباً في دخول عدد من الأوربيين مع الجيوش المصرية إلى الأراضي المقدسة ، وزيارتهم للمدينة ، كما فعل الرحالة بورخارت الذي سنأتي على ذكره بعد هذا ، وكما حصل للجنــدي السكوتلاندي المغامر توماس كيث . فقد كان توماس كيث أغا من أغوات المماليك العاملين في جيوش محمد علي باسم ابراهيم أغا . وقد كتب لأبراهيم أغا هذا أن يشارك في حملة طوسون بن محمد علي التي سيقت على المدينة سنة ١٨١٢ فكان أول الداخلين اليها ، ثم وجد نفسه يشغل أغرب وظيفة في حياته لفترة قصيرة من الزمن وهي وظيفة حاكم عسكري للمدينة المنورة على ما يقول هوغارث . ويلخص المستر هوغارث (الص ١٨٦) هذا [١] أسماء الأوربيين الذين زاروا الأراضي المقدسة فيما يأتي : .. أن قائمة الأوربيين الذين زاروا مكة هي قائمة طويلة في الحقيقة . فمنهم الأيطاليون مثل ڤارتيما وفيناتي . والألمان مثل ڤايلد وستيزن وفون مالتزان ، والإنكليز مثل پيتس وبورتون وكين ، والسويسريون مثل بورخارت ، والاسبان مثل باديا ، والسويد مثل والين ، والهولنديون مثل هورغرونيه ، والفرنسيون مثل كوتر نلمونت . وإلى جانب هؤلاء هناك عدد من المحاربين والمغامرين ، وقد سمع الرحالة نيبور بجرّاح فرنسي تمكن من الدخول إلى الأراضي المقدسة ، وبرجلين انكليزيين أيضاً . وطرق سمع الرحالة دوطي أن عدداً من الأفرنج دخلوا اليها كذلك ، وصادف هو بالذات رجلاً ايطاليــاً يسمي نفسه فراري كان في طريقه إلى مكة مع قافلة الحج الأيرانية . ووجد جوزيف پيتس رجلاً ايرلاندياً في المدينة ، كما يقول الرحالة مالتزان ان ليون روش القنصل الفرنسي في تونس حج إلى مكــة وزار المدينة ، وكذلك فعل رجل من البحارة الانكليز . هذا فضلاً عن عدد من الأوربيين المشارقة مثل اليونان .

---

(١) Hogarth, David - the Peuetration of Arabia. London 1904, P. 85.

.. ولما كان الخديوي محمد علي يشك في إخلاصه لأسلامه فقد كان متساهلاً مثل ابنه في هذا الشأن فسمح لعدد من الأوربيين بالدخول إلى الأراضي المقدسة ومنهم بورخات . ولا بد من أن يقال هنا ان الـذين زاروا المدينة كذلك من بين هؤلاء هم فارتيما وفايلد وبيتس، وستيزن وبورخارت ، ووالين ، وبورتون ، وكين . وشاهد المدينة من الخارج الرحالة سادلير كذلك .

على أن أهم الرحالة الأوربيين هؤلاء وأغزرهم علماً وثقافةً هو الرحالة السويسري جون لويس بورخارت الذي حج إلى مكة المكرمة ، وزار المدينة المنورة ، سنة ١٨١٤ وشهد حملة محمد علي على الوهابيين في الحجاز ، والسر ريتشارد بورتون الذي زار المدينة المنورة ، وحج إلى مكة المكرمة . في سنة ١٨٥٣ . وقد كتب كلٌ منهما عن رحلتـه بصورة مفصلة . وأسهب في ذكر كل شيء يمكن أن يخطر على البال تقريباً عن المدينتين المقدستين وما يحيط بهما من البلاد الحجازية . ولذلك فقد ذكرنا شيئاً كثيراً عنهما في الجزء المختص بمكة من سلسلة العتبات المقدسة هذه (الص ٢٦٣ — ٣٠٤) .

جون لويس بورخارت في المدينة

كان المستر بورخارت قد أسلم على ما يزعم عند قدومه إلى مصر في عهد محمد علي باشا . وسمى نفسه الشيخ ابراهيم . وقد تعرف بمحمد علي واتصل به كثيراً . ثم تبعه حينما ذهب إلى الحجاز للأشراف على الحملة التي جُردت ضد الوهابيين . وهناك سهّل له محمد علي حج البيت الحرام ، وزيارة المدينة المنورة . برغم شكه في اسلامه وارتيابه فيه . وقد توفق بورخارت في كل هذا . ولم يكتشف أمره على ما يبدو ،

فضمّن رحلته[1] المعروفة جميع ما شاهده ومرّ به من حوادث وتجارب .

فقد توجه إلى المدينة بعد أن انتهى من الحج في مكة ، ووصل اليها في صباح يوم ٢٨ كانون الثاني ١٩١٥ ، بعد أن قطع المسافة اليها بثلاثة عشر يوماً . ومن سوء حظه أنه وقع مريضاً بمرض البرداء — الملاريا — حتى أصابه اليأس من نفسه وظن أنه سيقضي نحبه في المدينة فيقبر فيها . لكنه مع ذلك استطاع أن يرى أشياء كثيرة من أحوال المدينة وما فيها بحيث استطاع أن يكتب عدة فصول عنها في الجزء الثاني من رحلته (الص ١٣٨ — ٢٩٢) .

وهو يقول ان القافلة نزلت في الساحة الكبرى الكائنة في ضاحية المدينة ، ووجد له منزلاً مناسباً بواسطة المزوّر . وأُخذ كالعادة لزيارة الحرم الشريف فلاحظ أن مراسيم الزيارة أقصر وأسهل من مراسيم الحج ومناسكه بطبيعة الحال . لكنه لاحظ أن المدينة كان قد احتلها طوسون باشا مؤخراً وطرد منها الوهابيين ، فنفر عنها البدو وأصحاب الأبل الذين كانوا يأتون اليها بالأقوات والمؤن . فعز فيها الطعام ، ولاحظ وخامة الجو فيها كذلك وطعم الماء المقيت .

ويأخذ بورخارت بوصف المدينة وموقعها الطبيعي ، بوصف يشابه الوصف الوارد في دائرة المعارف الاسلامية الذي اثبتناه في بداية هذا البحث ، لأنها كانت قد استندت اليه على ما يظهر . ويقول انه وجد أسوارها عامرة بحيث تعدها للدفاع على أحسن وجه بالنسبة لمقاييس تلك الجهات ، ولذلك كانت المدينة المعقل الرئيسي في الحجاز . وكان السور قد بني حولها سنة ٣٦٠ للهجرة ، ثم أعيد بناؤه بعد ذلك في أوقات مختلفة

---

(١) Burchardt, gohn Lewis - Travels in Arabia, Comprehending on Account of Territories in Hedjaz Which Mohammadans Regard as Sacred .

أخصها سنة ٦٠٠ للهجرة ، لكن الخندق كان قد مدد حولها سنة ٧٥١ . على أن بناءه بشكله في أوائل القرن التاسع عشر كان قد تم بأمر من السلطان سليمان القانوني في نهاية القرن السادس عشر . وهناك أبواب ثلاثة جميلة فيه : الباب المصري في الجهة الجنوبية ، وهو مع باب الفتوح في القاهرة أجمل الأبواب التي شاهدها بورخارت في المدن الشرقية ، والباب الشامي في الجهة الشمالية ، وباب الجمعة في الجهة الشرقية . وهناك باب يسمى « الباب الصغير » في الجهة الجنوبية كان الوهابيون قد أغلقوه عندما احتلوا المدينة قبل سنوات . وفيما يقرب من الباب الشامي ، في جوار القلعة ، هناك محراب في السور كان جزءاً من مصلى صغير على ما يقال يسمى مسجد السباق ، ومنه كان محاربو الصحابة يبدأون سباقاتهم في الركض .

ويقول بورخارت انه شاهد المدينة مبنية بالحجر كلها ، وتتألف بيوتها من طابقين بوجه عام ومن سطوح منبسطة . ولما كانت غير مصبوغة بالأبيض ، ونظراً لأن حجر البناء كان غامقاً في لونه فقد كان منظرها يبدو كئيباً . وعلى كل فقد كانت المدينة من أحسن المدن الشرقية في بنائها ، وهي تأتي بعد حلب في نظره . ويعد الشارع الرئيسي فيها أعرض الشوارع أيضاً ، وهو الذي يؤدي من الباب المصري إلى المسجد الكبير . وتوجد فيه معظم المخازن والدكاكين . ويسمى الشارع الآخر شارع البلاط ، ويمتد من المسجد إلى الباب الشامي ، لكن عدداً من البيوت الموجودة فيه كانت خربة . ويقول بورخارت ان مكة تعتبر بلدة عربية في مظهرها أكثر من المدينة التي تعتبر أشبه بالمدن السورية .

أما الحارات فيورد أسماء المنحصر منها ما بين الشارعين المذكورين كالآتي : الساحة ، كومة الحشفة ، البلاط ، الزقاق الطويل، الذي يقع زفيه بيت القاضي وعدد من الحدائق الجميلة ، زقاق الذرة ، سقيفة الشاخي ، قاق البكر . وفي شمال شارع البلاط بامتداد شمالي من المسجد إلى باب

الجمعة تقع محلة الحماتة ، وزقاق الحبس ، وزقاق انكيني ، وزقاق الصماهدي ، وحارة الميده ، وحارة الشرشورة ، وزقاق البدور ، وحارة الأغوات حيث يعيش الخصيان الموكلون بالحرم الشريف . وتقع في الجهة الممتدة من باب الجمعة على طول الأجزاء الجنوبية من المدينة إلى حد الباب المصري والسوق الكبير محلة دوران ، والصالحية ، وزقاق ياهو ، وحارة أحمد حيدر ، وحارة بني حسين حيث تنزل القبيلة المسماة بهذا الأسم ، وحارة البسوغ ، وحارة السقيفة ، وحارة الرصاص ، وزقاق الزرندي ، وزقاق الكبريت ، وزقاق الحجامين ، وحارة سيدي مالك حيث بيت الفقيه المعروف مالك بن أنس ، وحارة الحماشين .

ويقول بورخارت ان العرب بوجه عام لا يهتمون كثيراً بفخامة الأبنية وطراز البناء ، وحتى رؤساؤهم يكتفون في أبنيتهم بالضروري منها فقط . ولذلك فليس في المدينة أبنية كبيرة بارزة إلا القليل . فهناك الحرم النبوي الشريف المحتوي على قبر النبي العظيم ، ومدرسة عامة جميلة تسمى المدرسة الحميدية في شارع البلاط ، وأخرى شبيهة بها قرب المسجد حيث يسكن شيخ الحرم ، ومخزن كبير للحبوب يضم بين جدرانه ساحةً كبيرة يقع في الجزء الجنوبي من البلدة ، وحمام غير بعيد عنه وهو الحمام العام الوحيد في البلدة وقد شيده في سنة ٩٧٣ هـ محمد باشا وزير السلطان سليمان . أما القلعة فهي محاطة بأسوار قوية جداً وأبراج عالية منيعة عدة . وهي تسع حوالي ست مئة او ثمانمأة رجل ، وفيها عدد من الغرف ذات العقود التي لا تخترقها القنابل . وهذه لو وضعت فيها حامية جيدة وجهزت بما تحتاج من المؤن لا تستطيع أية قوة عربية التغلب عليها لأنها مبنية فوق صخور صلبة لا يمكن أن تلغم بالألغام . على أنها لا تستطيع الصمود تجاه المدفعية الأوربية . وفيها بئر عميقة فيها ماء صالح للشرب

الضواحي

تمتد ضواحي المدينة ، على ما يذكر بورخارت ، في الجهة الغربية والجنوبية منها فتغطي مساحةً من الأرض تزيد على مساحة البلدة نفسها . وتحجز الضواحي عن البلدة نفسها فسحة كبيرة تضيق من جهتها الجنوبية وتتسع من الجهة الغربية بين يدي الباب المصري حيث تكوّنْ ساحة عامة تسمى المناخة .. وليس هناك سور للضواحي المطلة على المناخة ، لكن الجهتين الخارجيتين من الغرب والجنوب يحيط بهما سور آخر يقل مناعةً عن سور البلدة الأصلية . وهناك أربعة أبواب تؤدي إلى الخارج منها ، وهي أبواب خشبية صغيرة غير متينة .. وفي الجهة الغربية من الضاحية مقابل باب القاهرة والمناخة تتألف الضاحية من شوارع منتظمة حسنة البناء تشبه دورها الدور الموجودة في داخل المدينة . ويخترق هذا الجزء من الضاحية شارع واسع يسمى العنبريه ، وتقوم على جانبيه أبنية وبيوت حسنة البناء ، وفي حوالي هذه الجهات يعيش طوسون باشا في دار خاص به ، ويسكن بالقرب منه التاجر الثري عبد الشكور .

وأهم الحارات الموجودة في الضواحي هي حارة العنبرية ، وحارة الواجهة ، وحارة الساح ، وحارة أبي عيسى ، وحارة مصر ، وحارة الطيار ، وحارة نفيسة ، وحارة الخمدية ، وحارة الشهرية ، وحارة الخيبرية ، وحارة الجفر . وكثير من سكان البلدة الداخلية لهم بيوت صيفية في هذه الحارات يقضون فيها شهراً من السنة يتفرغون فيه إلى جني حاصلات تمورهم .

وهناك مسجدان في المناخة ، أحدهما يسمى « مسجد علي » ويقال انه قديم منذ صدر الأسلام ، لكن بنايته القائمة كانت قد شيدت في ٨٧٦ . والمقول ان النبي عليه السلام كثيراً ما كان يصلي فيه . ويسمى المسجد الآخر « جامع عمر » وقد ألحقت به مدرسة عامة كانت تستخدم بنايتها مخزناً للذخيرة وملجأً للكثير من الجنود .

الحرم النبوي الشريف

وبعد أن يصف بورخارت أشياء أخرى في المدينة ، وأهمها مشروع الماء فيها ، يقول ان الجوهرة الغالية التي تجعل المدينة في صف مكة من حيث الأهمية ، لا بل وتفضلها عليها في نظر بعض الناس مثل أتباع مالك ابن أنس ، هو الجامع الأكبر الذي يضم في داخله قبر النبي محمد (ص) . وهو مثل جامع مكة يسمى « الحرم » . ويقع هـذا الجامع في الطرف الشرقي من البلدة وليس في وسطها . أما أبعاده فهي أصغر من أبعاد الجامع في مكة ، إذ يبلغ طوله مائة وخمساً وستين خطوة ويبلغ عرضه مائة وثلاثين . لكنه مشيد على الطراز نفسه تقريباً ، فهو يكوّن صحناً مكشوفاً في الوسط تحيط به صفوف من الأعمدة المغطاة من جميع الجهات ، مع مبنى صغير في وسط الصحن المربع . وتكون صفوف الأعمدة هذه أقل انتظاماً من صفوف الأعمدة في مكة حيث تكون على نفس العمق من جميع الجهات . كما تكون الأعمدة نفسها مختلفة في حجومها ، ففي الجهة الجنوبية التي يقع فيها قبر النبي المطهر ، وتكوّن أقدس بقعة في المبنى كله ، تكون أبعاد الأعمدة أكبر من أبعادها في سائر الجهات ويبلغ قطر الواحد منها قدمين ونصف .. ويتألف السقف فوق الأعمدة من عدد من القباب الصغيرة المصبوغة بالأبيض من الخارج ، كما هي الحالة في مكة . أما الجدران الداخلية فهي مصبوغة بالأبيض كذلك إلا من الجهة الجنوبية وقسم من الزاوية الجنوبية الشرقية المكسوة بقطع من الرخام إلى السقف تقريباً . وهناك على طول هذا الجدار عدة صفوف من الكتابات المكتوبة بأحرف كبيرة من الذهب ، واحدة فوق الاخرى ..

وبعد أن يصف بورخارت سائر أجزاء الحرم والضريح المطهر وما يوجد حوله من القبور الأخرى يقول ان نفائس الحجاز كانت تحفظ في السابق حول هذه القبور إما معلقةً بحبال من حرير يمتد في داخل المبنى ، أو مودعةً في صناديق خاصة موضوعة على الأرض . ويمكن أن يذكر

من هذه على الأخص نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي تعود إلى الخليفة عثمان بن عفان ، ويقال انها لا تزال موجودة في المدينة .. ثم يتطرق إلى ذكر حصار الوهابيين للمدينة ، وإلى أن شيئاً كثيراً من هذه النفائس ، ولا سيما الأوعية الذهب منها ، استولى عليهــا رؤساء البلدة بحجة توزيعها على الفقراء لكنهم تقاسموها فيما بينهم بعد ذلك . وحينما دخل الأمير سعود الوهابي إلى المدينة واستولى عليها دخل الحجرة النبوية نفسها ووصل إلى مــا وراء الستائر فوضع يده على جميع النفائس التي وجدها هناك . وقد باع قسماً منها إلى شريف مكة وحمل الباقي إلى الدرعية معه . ومن الأعلاق النفسية التي أخذها ، وهي أغلى من أي شيء آخر ، النجمة البراقة المتلألئة المطعمة بالماس واللؤلؤ التي كانت معلقة فوق القبر المقدس مباشرة ، وقد كانت تسمى « الكوكب الدري » . وقد كانت تودع في هذا المكان جميع أنواع الأوعية والأواني الثمينة المطعمة بالجواهر ، والأقراط ، والأساور ، والقلائد ، وسائر النفائس التي كانت تهدى من جميع أنحاء الامبراطورية العثمانية ويأتي بها الحجاج في أثناء زيارتهم للمدينة . ولا شك أن ذلك كله كان يؤلف مجموعة ذات قيمة غير يسيرة ، لكنها لا تكاد تقدر بثمن . فقد قدر الشريف غالب ما اشتراه من الأمير سعود بمائة الف دولار . ويقال ان رؤساء البلــدة أخذوا من أوعية الذهب وأوانيه ما يقدرونه بمائــة « هندردويت » ــ الهندردويت الواحد يساوي ١١٢ باوناً أو ليبرة ــ أو ما يساوي ثمنه خمسين ألف دولار . كما يقال ان ما أخذه الأمير سعود معه يتألف غالباً من اللؤلؤ والمرجان ، وان قيمته تساوي ما باعه إلى الشريف غالب . وربما يبلغ مجموع كل ما وجد في قيمته حوالي ثلاث مائة الف دولار . وهناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد بأن هدايا المسلمين التي تجمعت في هذه البقعة عبر القرون والأجيال كانت تبلغ أكثر من هذا بكثير . ومن المحتمل جداً أن يكون حكام المدينة الذين كانوا مستقلين في كثير من الأحيان ، وسدنة الضريح المقدس أنفسهم ، قد أخذوا الشيء الكثير مما

كان يهدى بين حينٍ وآخر كما فعل علماء مكة قبل ثلاث مائة سنة حينما سرقوا مصابيح الذهب العائدة للكعبة وأخذوها إلى الخارج بين طيات أردانهم على ما يقول المؤرخ قطب الدين. وقد أخذ طوسون باشا، عند مجيئه إلى المدينة، يفتش عن الأواني الذهب التي بيعت في المدينة فوجد قسماً منها وابتاعه من مالكيه بعشرة آلاف دولار، ثم أعاده إلى مكانه.

ثم يذكر بورخارت أن فوق «الحجرة» قبة جميلة عالية الذرى، ترتفع فوق القباب الأخرى التي تكوّن السطح الممتد من فوق الأعمدة، وترى من مسافة بعيدة في المدينة. وحالما تلوح للزائرين من بعيد يبدأون بالصلاة وقراءة الأدعية. وتغطى بالرصاص، كما يعلوها هي كرة غير صغيرة بالحجم وهلال كبير، وكلاهما يتوهج بذهبه. وقد صنعت الكرة والهلال في استانبول بأمرٍ من السلطان سليمان القانوني. أما القبة والحرم بأجمعه فقد بناه قايتباي سلطان مصر ما بين سنتي ٨٨١ و ٨٩٢ هـ. وكان الوهابيون قد أغراهم بتهديم القبة الكبيرة الذهب اللماع، وتعاليمهم القاضية بتهديم القباب المقامة فوق القبور جميعها بما فيها قبة الرسول الأعظم. فحاولوا ذلك وابتغوا رفع الكرة والهلال، لكن متانة البناء، ووجود الغطاء الرصاص، جعل من الصعب عليهم تنفيذ ما يريدون. ثم سقط اثنان منهم بعد أن تزحلقا من فوق السطح الأملس، فتركت المحاولة وعدّ ذلك من معجزات النبي.

وهناك على مقربة من ستائر الحجرة وفي داخل محيطها قبر «ستّنا فاطمة» مغطى بغطاء أسود من الحرير المطرز. وهناك بعض الاختلاف في الرأي حول مدفن الزهراء البتول في هذه البقعة أو في مقبرة البقيع. ولذلك يزورها الزوار في هذين المكانين معاً. وفي الجدار الشرقي للجامع في مقابل هذا القبر تقريباً شباك صغير يدل على المكان الذي كان ينزل فيه جبرائيل على النبي محمد (ص)، ويسمى «مهبط جبرائيل»... ولا يعتقد بورخارت بأن الزينة التي وجدها في جهة الروضة وحول الضريح

المطهر تناسب المقام المقدس ، ولذلك يرى بأن أية كنيسة من الكنائس الكاثوليكية في أوربا تبدو أفخم وأجمل عند المقارنة ، وأن المسلمين غير ميالين إلى التضحية بأموالهم في هذا الشأن مثل ما يفعله الكاثوليك ، وحتى البروتستانت من النصارى .

وبعد أن يشرح بورخارت الكيفية التي يزور بها الزوار الحرم الشريف ، يبدأ بوصف الصحن الأوسط فيقول ان مبنى صغيراً مقبباً يقوم في وسطه ، وتحفظ فيه الأضوية والمصابيح العائدة للحرم . ويوجد بالقرب منه سياج خشبي غير مرتفع في داخله نخلات تعتبر مقدسة لأنها على ما يقال كانت قد زرعتها الزهراء عليها السلام . وفي جانب النخلات بئر تسمى « بئر النبي » ، لكن ماءها ماء عكر ولذلك لا يتمتع بشهرة قدسية .. وحينما يأتي على ذكر الأضاءة والشموع يذكر أن زوجة الخديوي محمد علي باشا التي كانت يومذاك في المدينة جاءت بكميات كبيرة من الشمع وأهدتها إلى الحرم الشريف ، بعد أن كانت قد نقلت بعناية وصعوبة كبرى من ينبع إلى المدينة .

وللحرم الشريف أربعة أبواب كبيرة : باب السلام الذي كان يسمى باب مروان على ما يروي السمنودي ، ويقع في الزاوية الجنوبية الغربية ، وهو الباب الرئيسي الذي يجبر الزائر على الدخول منه عند أول زيارته للحرم . وهذا الباب جميل ذو عقادة مقوسة ، وأجمل بكثير من أي باب من أبواب الحرم الشريف في مكة ، مع أنها أصغر من عدد منها في الحجم ، وأجمل من أي باب من أبواب الجوامع التي رأيتها في الشرق من قبل . فقد طعمت جوانبها بقطع من الرخام والكاشي الملون بمختلف الألوان ، واكسبتها الكتابات البارزة بحروف من الذهب المكتوبة فوق القوس وعلى جوانبه مظهراً متألقاً يبهر الأبصار . وهناك أيضاً باب الرحمة الذي كان يسمى الباب العتيق من قبل ، ويقع في السور الغربي فتمر منه الجنائز إلى داخل الجامع حيث يصلى ويقرأ عليها ، وباب الجبر الذي

يسمى أيضاً باب جبرائيل ، وباب النسا في السور الشرقي وهو أول باب فيما يقرب من قبر ستّنا فاطمة . وجميع هذه الأبواب تغلق بعد الغروب بثلاث ساعات يومياً ، ولا تفتح إلا قبل الفجر بساعة . لكن الذين يرغبون في الصلاة داخل المسجد طول الليل يمكنهم أن يستحصلوا الرخصة لذلك من الأغا المكلف بالخفارة ، الذي ينام بالقرب من الحجرة عادةً . أما في أيام رمضان ، فيبقى الحرم مفتوحاً طوال الليل .

وتعهد مهمة أمن الجامع وغسل الحجرة وسائر أجزاء المبنى جميعها ، وإنارة الحرم وما أشبه ، إلى خمسين أغاً من الأغوات الخصيان الذين توجد منظمة خاصة لهم تشبه المنظمة الموجودة في بيت الله الحرام في مكة . لكن هؤلاء تعطى لهم أهمية أكبر في المدينة ، فتجدهم يلبسون أحسن ويستعملون الشال الكشميري وأفخر أقمشة الهند الحريرية . وحينما يمرون بالسوق يسارع الجميع إلى تقبيل أيديهم ، ولذلك يمارسون نفوذاً غير يسير في شؤون البلدة الداخلية . ولهم مخصصات غير قليلة تبعث لهم من استانبول سنوياً بصحبة موكب الحاج السوري . ويأخذون كذلك حصتهم من جميع ما يقدم إلى الحرم ، وينتظرون الهدايا من الحجاج الزوار الأغنياء ، علاوةً على الرسوم التي يتقاضونها من زوار الحجرة .. ويسمى رئيس هؤلاء الأغوات « شيخ الحرم » ، وهو رئيس الجامع بأسره أيضاً والشخصية الأولى في المدينة عادةً ، وعلى هذا فرتبته أعلى من رتبة رئيس الأغوات في مكة . وهو في الحقيقة خصي من الخصيان يبعث من استانبول ، وينتمي عادةً إلى الباب العالي الذي يرسله في كثير من الأحيان على سبيل النفي كما يحصل عند ارسال باشوات الحجاز إلى جدة . وقد كان شيخ الحرم الذي شاهده بورخارت يومذاك « قزلرأغاسي » في عهد السلطان سليم .. وقد شوهد مراراً وهو يتقدم على طوسون باشا الذي كانت رتبته برتبة الباشا في جدة ، أي برتبة باشا ذي ثلاث « طوغات » . ولذلك تسنى لبورخارت أن يشاهد طوسون باشا وهو يقبل يد شيخ

الحرم في داخل الجامع المقدس . وله ديوان يضاهي ديوان الباشا بتشكيلاته تقريباً .. وعلى هذا الأساس فقد احترمه حتى الوهابيون حينما استولوا على المدينة ، وسمح له أميرهم سعود بأن ينسحب إلى ينبع هو وعدد من الخصيان مع أزواجهم وأمتعتهم وممتلكاتهم النفسية .. ويلقب الخصيان عادةً بالأغوات ، كما يخاطب رئيسهم « بسيادتكم » كما يخاطب الباشا وشريف مكة .. وهناك بالأضافة إلى هؤلاء عدد آخر من الخدم في الحرم الشريف من أبناء المدينة نفسها يطلق عليهم « الفراشون » ... ويشتغل كثير من هؤلاء في الوقت نفسه مزوّرين أو قائمين بصلاة الغائب ، أو مرشدين للزوار في الأماكن المقدسة .. ويكون عدد الفراشين كبيراً جداً عادةً .

وينتقل بورخارت بعد ذلك إلى الكتابة عن أهمية الزراعة في حياة أهل المدينة ، ويذكر أن المدينة محاطة ببساتين النخيل التي تنتشر فيها البيوت . ويقول أن الحاصلات الرئيسية فيها القمح والشعير والبرسيم وأنواع الفاكهة ، بالأضافة إلى التمور التي تعد الحاصل الرئيسي فيها . ويزرع الشعير بمساحات أكبر ، ولذلك يعتبر خبز الشعير الغذاء الرئيسي لطبقات الناس الفقيرة . وهو يحصد هناك في مارت ، وحاصله من النوع الجيد .. وتكثر بساتين الفاكهة في جهات قبا ، ويزرع فيها الرمان والعنب الفاخر والخوخ والموز بالأضافة إلى الرقي والخضروات مثل السبانغ والشلغم والكراث والبصل والجزر والفاصولية . ويشيع في المدينة شجر (النبق). ويتطرق أيضاً إلى ذكر النخيل وفائدته في صنع أشياء كثيرة من أجزائه المختلفة . ثم يقول انه سمع بأن المدينة فيها ما يزيد على المائة نوع من التمور ، وأكثرها انتشاراً وأرخصها « الجبلي » ، وهنا أيضاً « الحلوة » و « الحلية » وثمارها صغيرة ، والصيحاني ، والبرني . ويذكر نوعاً يقول انه نسي اسمه تبقى ثماره خضراء اللون حتى بعد أن تنضج وتجف ، ونوعاً آخر أصفر مثل الزعفران ، وهذان النوعان ينظمان في خيوط تباع باسم « قلائد الشام » .

وينهي الفصل عن المدينة بذكر المنطقة الحرام فيها ، ويقول انها تحيط بالبلدة من جميع الجهات لمسافة اثني عشر ميلاً ، ويدخـل في ضمنها من الجهة الجنوبية جبل عير والشمالية جبل ثور (وهو جبل صغير يقع وراء جبل أُحُد) . وهذه يجب أن تعتبر منطقة مقدسة لا يذبح أو يقتل فيها أي شخص إلا الأعداء أو المعتدين عن طريق الدفاع عن النفس ، أو الكفار الذين يدنسونها . كما يجب أن لا يقتل فيها الطيور ولا تقطع الأشجار . على أن هذا التحريم قد وضع جانباً في الوقت الحاضر ، على ما يقول بورخارت ، أي بوجود القوات المصرية . فقد لاحظ أن الأشجار تقطع والطيور تذبح ومعارك دموية تقع في البلدة وما حولها ، ومع أن غير المسلمين يحرم عليهم الدخول اليها فقد حدثت مناسبات خلال مدة وجوده في المدينة استخدم فيها النصارى اليونانيون في مهمـات تعود لجيوش طوسون باشا المخيمة على رمية بندقية من المدينة نفسها .

أماكن الزيارة الأخرى

ويذكر بورخارت أنه في اليوم الذي ينهي فيه الحاج الزائر زيارته للحرم والضريح المقدس في المدينة ، يزور مدافن البلدة كذلك في العادة حيث يثوي عدد من الصحابة والأئمة والشهداء . وتقع المقبرة هذه في خارج سور البلدة فيما يقرب من باب الجمعة ، وتسمى مقبرة البقيع . وهي عبارة عن مربع كبير تبلغ سعته عدة مئات من الخطوات ، محاط بجدار يتصل من الجهة الجنوبية بضاحية البلدة وببساتين النخيل من الجهات الأخرى . وتبدو المقبرة حقيرة جداً لا تليق بقدسية الشخصيات المدفونة فيها . وقد تكون أقذر وأتعس من أية مقبرة موجودة في المدن الشرقية الأخرى التي تضاهي المدينة في حجمها . فهي تخلو من أي قبر مشيـد تشييداً مناسباً ، وتنتشر القبور فيها وهي أكوام غير منتظمة من التراب يحد كلاً منها عدد من الأحجار الموضوعة فوقها . ويعزي تخريب المقبرة

إلى الوهابيين فيشير إلى بقايا القبب والمباني الصغيرة التي عمدوا إلى تخريبها من فوق قبور العباس وبعض الأئمة وعثمان وستنا فاطمة وعمات النبي (ص). والموقع بأجمعه عبارة عن أكوام من التراب المبعثر، وحفر عريضة، ومزابل.. ويذكر بورخارت (الص ٢٢٦) بالمناسبة أسماء الشخصيات الأسلامية التي قبرت في البقيع، وقد أتينا على ذكرها من قبل. لكنه حينما يذكر قبر الأمام الحسن بن علي عليهما السلام يتوهم أنه الأمام الحسين سيد الشهداء فيقول ان جسمه فقط دون الرأس قد دفن فيه، ويشير إلى أن الرأس قد أخذ إلى القاهرة وحفظ في جامع خاص يدعى الحسنية*.

ثم يصف زيارته إلى جبل أحد حيث وجد المسجد الذي شيد حول قبر الحمزة وغيره من شهداء أحد، مثـــل مصعب بن عمير وجعفر بن شماس وعبد الله بن جحش، وقد هدم الوهابيون القبة المشادة فوق القبر لكنهم لم يتعرضوا للقبر نفسه. وعلى مسافة من هذا المسجد وجد قبة صغيرة تشير إلى المكان الذي أصيب فيه الرسول عليه السلام في موقعة أحد. وعلى مسافة قصيرة من هذه القبة وجد قبور اثني عشر صحابياً

(*) والروايات في مدفن رأس الحسين كثيرة فهناك من يذهب إلى ان الرأس مدفون في الشام وفي الموضع المعروف اليوم برأس الحسين وتقول هذه الرواية أن يزيد بن معاوية قد احتفظ به في خزانته حين جيء بالرؤوس وحينما مات يزيد أخرج من خزانته وغسل وكفن ودفن، حيث هو، وهناك من يذهب إلى أن يزيد قد بعث بالرأس إلى المدينة فدفن عند مرقده فاطمة الزهراء (ع). وقيل بل بعث به يزيد إلى الرقة إلى آل بني معيط كثمن لرأس عثمان فدفن بمسجد الرقـــة على الفرات، وقال الآخرون بل إنه أرسل إلى الكوفة فدفن بظهر الكوفة، وقال آخرون بل أرسل إلى النجف ودفن عند أبيه الإمام علي بن أبي طالب، وذهب بعض الرواة أنه مدفون بالقاهرة وقد نقله الخلفاء الفاطميون حيث هو الآن.

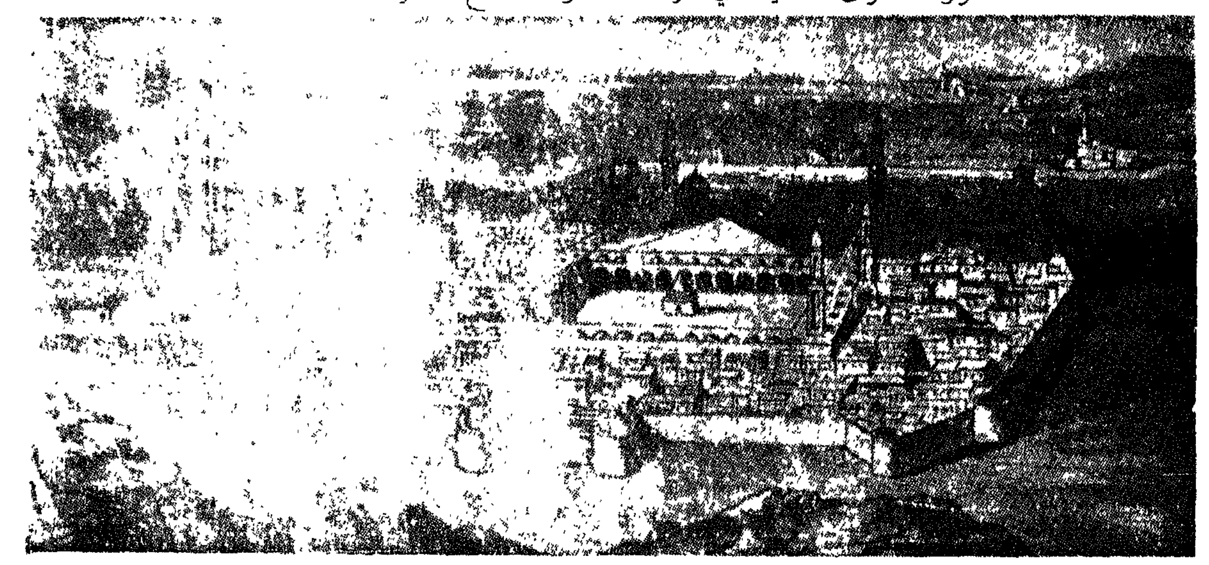
أما الرواية التي تستند إليها الأكثرية ويؤيدها الرواة المعروفون الذين يصلون برواياتهم إلى الأئمة العلويين باعتبارهم أطلع من غيرهم فتقول: ان الرأس أعيد إلى كربلا ودفن مع الجسد هناك وعلى هذا معظم الشيعة.

الخليلي

من أصحاب الرسول الذين استشهدوا في موقعة أحد أيضاً ، وقد خرب الوهابيون قبورهم وعبثوا بها . ويقول بورخارت ان سكان المدينة قد اعتادوا على الخروج مرةً واحدة في السنة إلى جبل أحد خلال شهر تموز ، وهناك يبقون ثلاثة أيام متتالية يسرحون ويمرحون كأنهم في عيد .

وزار بورخارت منطقة قبا أيضاً ، وأهم ما يذكره عنها أنها ملأى بالبساتين العامرة التي تزرع فيها جميع أنواع الفاكهة عدا التفاح والكمثرى . وتتزود المدينة بفواكهها من هذه المنطقة التي تنتج الليمون والبرتقال والرمان والموز والأعناب والخوخ والمشمش والتين ، وتنمو أشجار هذه الفواكه ما بين أشجار النخيل والنبق ونباتات الخروع . ويقوم مسجد قبا التاريخي مع ثلاثين أو أربعين بيتاً من حوله في وسط هذه البساتين . وقد وجد المسجد [illegible] أ وبحالة خربة . ويوجد فيه « مبرك الناقة » والبقعة التي صلى فيها النبي عند وصوله إلى (قبا) والتفت إلى مكة فتخيل ما كانت قريش تفعله فيها ، والمكان الذي نزلت فيه الآية المختصة

صورة أخرى للمدينة في أواسط القرن التاسع عشر



بسكان (قبا) وعلى مسافة قصيرة من مسجد قبا شاهد مسجد علي ، وبقربه بئر عميقة تسمى «العين الزرقاء» .

سكان المدينة

أما سكان المدينة المنورة وطبقات الناس فيها فيقول بورخارت عنها انهم مثل سكان مكة أكثريتهم من الغرباء الذين تجذبهم قدسية البلد اليها من جميع أنحاء العالم الأسلامي . وعلى هذا فهناك فيها جاليات من كل بلد اسلامي تقريباً . ولا توجد فيها إلا أقليـــة صغيرة من نسل الأنصار الذين كانوا يسكنون المدينة عندما هاجر النبي اليها سنة ٦٢٢ للميلاد . فهناك حوالي عشر أسر يمكنها إثبات نسبها وتحدّرها من الأوس والخزرج ، وهذه أسر فقيرة تعيش على الفلاحة في الضواحي والبساتين . على أن عدد الشرفاء الحسينيين غير قليل في المدينة ، لكن معظمهم غير مدنيين في الأصل ، وإنما كان آباؤهم قد نزحوا اليها من مكة خلال الحروب التي كان يشنها الشرفاء للاستيلاء عليها . وينتمي معظم هؤلاء تقريباً إلى طبقة العلماء ، أما الشرفاء المحاربون الذين يشبهون شرفاء مكة فقليلون جداً . وهناك أيضاً قبيلة صغيرة من الشرفاء الحسينية المتحدرين من نسل الحسين شقيق الأمام الحسن عليهما السلام . ويقال انهم كانوا أقوياء في المدينة سابقاً ، وكانوا يأخذون لأنفسهم القسم الأكبر من واردات الحـــرم الشريف ، فإنهم كانوا خلال القرن الثالث عشر سدنة القـــبر المطهر المحظوظين . لكنهم تضاءلوا بعد ذلك حتى أصبحوا اليوم يقتصرون على عدد محدود من الأسر التي لا تزال من علية القوم في البلد وسكانه الأغنياء . وهم يشغلون حارة خاصة بهم ، ويحصلون على أرباح طائلة ولا سيما من الحجاج الأيرانيين الذين يفدون على المدينة للزيارة . ويفهم مما كتب في هذه الرحلة أن هؤلاء من شيعة المدينة الذين يمارسون عباداتهم عـــلى الطريقة السنية في الظاهر ، ومع هذا فيطلق عليهم «الرافضة» .

والمعروف في كل مكان أن بقايا الأنصار القدماء ، وعدداً كبيراً من عرب المدينة الفلاحين الذين يفلحون البساتين والحقول من حولها هم من « الرافضة » أي الشيعة كذلك . ويسمي هؤلاء النواخلة ، لأنهم يعيشون بين النخيل ، وهم كثيرون في عددهم وشجعان في الحروب .. ولذلك قاوموا الوهابيين حينما احتلوا المدينة مقاومةً عنيفة .. ونقول ان المعروف في التاريخ ، ولدى المطلعين من الناس ، أن النواخلة من الفلاحين الذين كانوا يفلحون في بساتين الأمام الحسن عليه السلام . ويقول بورخارت كذلك ان النواخلة لا يتزاوجون مع غيرهم إلا في النادر ، ومعظمهم يجاهرون بالشيعية حينما يكونون بين نخيلهم لكنهم يدعون بالسنية حينما يكونون في البلد . وقد استوطن بعضهم في الضواحي فاحتكروا مهنة القصابة . وتعيش في البادية من جهة الشرق على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة قبيلة بدوية بكاملها يسمى أفرادها « بني علي » ، وهؤلاء كلهم من الشيعة أو من معتنقي المذهب الأيراني على حد تعبير بورخارت الذي يستغرب كيف أن أقدس مدينتين في الاسلام تحاط إحداهما بالزيدية (أي مكة) والأخرى بالجعفرية (أي المدينة) ولا تبذل أية محاولة لأجلائهم .

ومن بين الأسر القديمة في المدينة أسر تتحدر بنسبها من نسل العباسيين كذلك ، لكن شأنهم قد انحط الآن حتى أصبحوا فقراء . ويطلق عليهم « الخليفة » ، أي المنحدرون من نسل الخلفاء .. ثم يسهب بورخارت في ذكر الجنسيات الأصلية التي ينتمي اليها سكان المدينة ويقول ان الجيل الثاني أو الثالث من السكان غير العرب يستعربون بالتدريج ويصبحون عرباً حتى في قسمات وجوههم . ويتطرق بعد ذلك إلى لباس المدنيين وأسلحتهم وأحوالهم المعاشية والاقتصادية وتجارتهم وأطعمتهم ، وعاداتهم وطباعهم .

حكومة المدينة

وفي فصل خاص بحكومة المدينة يلخص بورخارت تاريخها منذ صدر الأسلام إلى يوم وصوله اليها تلخيصاً مختصراً جداً لا نرى موجباً لنقله هنا لأنه منقول بصورة وافية وكافية للاطلاع في صدر هذا الجزء الذي يتطرق إلى المدينة قديماً . لكنه من الطريف أن نذكر هنا أن حكومة المدينة قد استولى عليها في العشرين السنة الأخيرة ، أي منذ أواخر القرن الثامن عشر ، رجلٌ يسمى حسناً بعد أن كان قد عُين أغا في القلعة ، ولذلك سُمي حسن القلعي . وكان هذا رجلاً من عوام الناس متصفاً بالدهاء والحيلة ومحبواً بقوة التحمل والشدة ، فوصل إلى رتبة ضابط في الجيش . وكان وهو ذو قامة قصيرة جداً يمشي مشياً مضطرباً لأنه كان شبه أعرج ، برغم ما كان عنده من قوة في البدن ورهبة في الصوت . وبعد عدة سنوات من الكفاح الشاق استطاع هذا الرجل أن يصبح سيد المدينة غير المنازع ، وكان في خدمته فوج من الحرس المختلط المتألف من البدو والمغاربة وسكان المدينة ، كما كان في جانبه جميع رعاع المدينة وعوامها . فأخذ يستبد بالناس ويظلم الحجاج فيبتز أموالهم ، ويصادر ممتلكاتهم ، ويستولي على مخلفات المترفين منهم ، كما صار يصادر « العدة » أو الأموال التي كانت تحول من استانبول إلى العتبة المقدسة في كل سنة ، حتى جمع ثروةً جسيمة وأموالاً طائلة .

وقد رويت عنه قصص غريبة تدل على وحشيته ونذالته ، ومنها أن أرملةً ثرية جاءت من استانبول ذات يوم مع ابنتها لزيارة القبر المطهر فقبض عليها وأجبرها على التزوج منه . وما مــرّ يومان على الزواج حتى وجدت المرأة المسكينة ميتةً في بيته فاستولى على أموالها ، وبعد مدة من الزمن أجبر ابنتها على الخضوع له والتزوج منه أيضاً ! ! ومع أن أمره قد رفع إلى استانبول عدة مرات فإن السلطان لم يجد نفسه قادراً على طرده أو الاقتصاص منه . ولم يكتف بذلك بل صار يتعرض بقوافل الحجاج ومواكبهم الرسمية فيبتز

منها الأموال والرسوم حتى اضطر موكب الحج السوري إلى العودة قبل الوصول إلى المدينة في سنة من السنين .

وحينما أخذ الوهابيون يهاجمون الحجاز في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، ويتوجهون نحو المدينة ، ازداد حسن القلعي عتواً وعنفاً ولم تعرف لتعسفه وجوره أية حدود في السنوات الثلاث التي سبقت استيلاء الوهابيين على المدينة . وصارت المخازن والدكاكين تسرق خلال الليل من قبل البدو العاملين في خدمته . ولما وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجه الوهابيين والصمود لهجماتهم استسلم لهم بشرط أن يبقى في منصبه . فوعد بذلك وتم له ما أراد . فقد وضعت حامية وهابية في القلعة ، وأُجبر آغا الحرم والأتراك الذين كانوا موجودين في المدينة على الانسحاب منها بعد ان لم يكونوا فيها سوى أشباح لا أثر لها . وهكذا بقي حسن القلعي حاكماً على المدينة في ظل الوهابيين . وعندئذٍ أخذ يتطرف في تحمسه للمذهب الوهابي الجديد ويضغط على السكان في سبيل إعتناقه بأقسى الوسائل وأعنف الطرق . ولم يكن سعود ليحترم المدينة كما كان يحترم مكة ، ولذلك أعفى المكيين من الرسوم والزكاة وشدد في استيفائها من أهل المدينة بواسطة حسن القلعي .

وعندما زحفت الجيوش المصرية على المدينة تحمس حسن القلعي في الدفاع عنها ، وبعد أن اندحر طوسون باشا اندحاره الأول في الجديدة تُرك الحكم لحسن نفسه . غير أن طوسون أعاد الكرة في الهجوم على المدينة بقوةٍ أعظم ، فوجد القلعي أن لا قبل له بهذه الجيوش ودخل في مفاوضات سرية معها فوعد بابقائه في منصبه عند استسلام المدينة لها . فانحاز للجيوش العثمانية حينما وصلت إلى أبواب المدينة ، واستقبله أحمد بونابرت القائد العثماني (المصري) بكل تقدير وتكريم . ثم هوجمت البلدة في الحال واستسلمت القلعة للمهاجمين . وبعد أن قُضي على الوهابيين واستُبعد خطرهم قبض على القلعي وزميله مذيان قائد الوهابيين وقيدا بالحديد والسلاسل ثم بعث بهما إلى القاهرة ، ومنها

إلى استانبول حيث لقيا ما يستحقانه من الجزاء . وبذلك انقضت صفحة من أغرب صفحات التاريخ في مدينة الرسول .

السر ريتشارد بورتون في المدينة

لقد جاء السر ريتشارد بورتون الرحالة الانكليزي لزيارة مكة والمدينة بعد بوخارت بأربعين سنة تقريباً (١٨٥٣) ، ونجح نجاحاً باهراً في التستر بحيث استطاع المكوث مدة من الزمن في المدينة وزيارة الحرم الشريف فيها ، وسائر الأماكن ذات الذكريات المقدسة وزيارة مكة المكرمة وأداء فريضة الحج بكل مناسكها وشعائرها ، من دون أن يكتشف أمره لأنه تظاهر بالإسلام وتسمى بـ « عبد الله » ، وانتحل الجنسية الأفغانية . وقد أوردنا تفصيل ذلك في الجزء المختص بمكة المكرمة من سلسلة العتبات المقدسة هذه (الص ٢٩٤) .

ويلاحظ من الرحلة[١] التفصيلية الرائعة التي طبعت بجزئين كبيرين أن السر ريتشارد لم يترك شاردة وواردة إلاّ ذكرها في نصوص الرحلة أو شروحها وهوامشها الضافية . ومع ما في هذه الرحلة من تحامل وأغلاط في فهم الإسلام وشريعته ، فإنها تعد شيئاً ممتازاً من ناحية البحث والتحقيق ، ودراسة لها قيمتها التاريخية والجغرافية . وسنحاول أن نورد فيما يأتي أهم ما يمكن اقتباسه منها ، تاركين الباقي إلى ما كان قد ذكره بورخارت عن المدينة قبله ، وما سننقله عن رحلة أيلدون رتر المتأخرة (١٩٢٥) لكونه أقرب إلى واقع المدينة الحالي ، لا سيما ما يختص منها بوصف داخلية الحرم النبوي وما أشبه .

فقد جاء بورتون إلى المدينة من ينبع المطلة على البحر الأحمر ، ووصلها

---

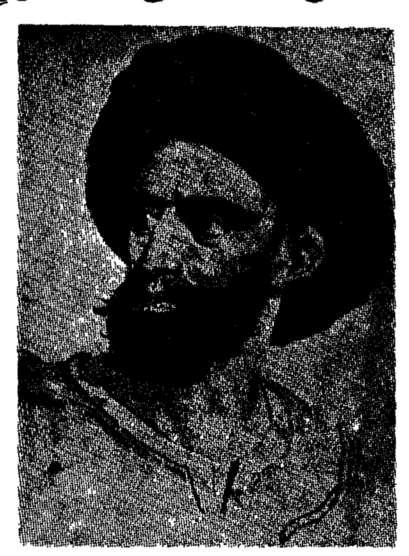
(١) Burton, Richard F - Personal Narrative of A Piligrimage to Al Madinah d Meccah . Edited. By his wife isabel Burton (London 1963). Memorial Edition.

في الخامس والعشرين من تموز ١٨٥٣ . وهو يرسم صورة قلمية لها عند أول إطلالة عليها من مسافة قليلة بقوله : وقد بانَ أمامنا سهلٌ فسيح تحده من الأمام أراضي نجد المتعادية ، ويبين في يساره ركام عبوس من الصخور هو جبل أُحُد المعروف . وكتلة كبيرة من الخضرة تستكن في قاعدتها قبة بيضاء واحدة أو قبتان . وكانت تمتد إلى اليمين ، من فوق نخيل قبا وبساتينها المتميزة بخضرتها الزمردية من بين وجه السهل الأسمر المعتم ، شرائط عريضة من الضباب الليلاتي المتكاثف بالندي المتجمع هنا ؛ والمتراعد هناك ، بفعل الأشعة المنبعثة في الصباح . وفي أسفل السهل ، على بعد ميلين منا ، كانت تربض المدينة المنورة ، فتبدو كأنها مكان كبير متسع ، لكننا ما دنونا وتبيناها على قرب حتى تبين لنا أن انطباعنا ذلك كان شيئاً وهمياً . وكان يخترق السهل ما بين الحرة والمدينة طريق ملتوٍ يؤدي إلى مدخل مرتفع مستطيل الشكل يخترق السور الطيني المحيط بالضاحية ، وهو مدخل « العنبري » . وتقوم إلى يساره قباب ومنائر مبنى تركي جميل ، هو التكية التي شيدها محمد علي لاستقبال مسافري الدراويش ، كما يمتد إلى يمينه خط طويل واطىء من الأبنية البيضاء المزدانة بشبابيك مربعة بشعة .. وفيما بين النخيل القائم في شمال المدينة من الخارج كانت تبين خربة سبيل قديم واسع بصورة رائعة ، وفيما بين هذه الخربة والقلعة كانت تقوم بناية بارزة مبنية على طراز المقاصير التركية ، وهي قصر الحاكم . وتبين في زاوية سور البلدة الشمالية الغربية قلعة بيضاء طويلة مشيد قسمٌ منها فوق كتلة بارزة من الصخر . وتكسب هذه البناية استحكاماتها



محمد علي باشا الخديو

ومزاغيلها مظهراً أوربياً حديثاً يقارن مقارنةً غريبة بتاريخها الشرقي الخالص . وتقوم في ضاحية « المناخة » القباب والمنائر الجديدة من فوق المساجد الخمسة لامعةً بين الكتلة الداكنة المتكونة من البيوت والأرض المحيطة بها . وفيما وراء ذلك في أقصى القسم الشرقي من المدينة تبين بصورة رائعة جوهرة المدينـــة أي الأبراج (لعله يقصد المنائر) العامرة الأربعة والقبة الخضراء اللامعة التي يثوي تحتها جدث النبي الطاهر . ويبدو محتجباً نصف احتجاب بهذه الكتلة من الأبنية وبيوت البلدة ، من بعيد عدد من البقع البيضاء منطبع فوق سطحٍ أخضر ، يشير إلى القبور التي تزدان بها مقبرة البقيع الموقرة . وتبدأ من تلك النقطة إلى الجنوب كتلة النخيل وبساتينها التي عرفت في الإسلام بـ « أشجار المدينة » . وتبرز من وراء هذا المنظر خلفيةٌ ملائمة تتكون من حقول الجُفاء (البازالتي) الأسود الدال على أصل بركاني واضح ، والمتكسر إلى كتل جسيمة ضخمة يتلوى نزُولاً من بينها بانحدارٍ يسمح بنزول الإبل طريقٌ يؤدي إلى السهل .


ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا

ويصف بورتون بعد ذلك ساعة الوصول والاستقبال فيقول خلال هذا : ان العرب يبدون في هذه المناسبات من العواطف أكثر مما تبديه سائر الأقوام الشرقية التي يعرفها ، ففي طبيعتهم من الحنان والمحبة الشيء الكثير ، وهم أكثر تعبيراً عن عواطفهم بكثير من الهنود .. وبعد أن مرّ الركب من باب العنبري ساروا أرتالاً في شارع عريض مغبر فاخترقوا حارة العنبرية ، وهي الحارة الرئيسة في ضاحية المناخة .. ثم عبروا جسراً يتكون من طاقٍ حجري واحد مشيد فوق مسيلٍ يسمى « السيح » ،

وبعده بقليل وصلوا إلى « برالمناخة » ، وهذا يؤدي باتجاه مستقيم إلى « الباب المصري » للمدينة .

بين مكة والمدينة

وفي فصل خاص يفرده بورتون لزيارته قبر النبي (ص) يستهل الكتابة بالخوض في موضوع المفاضلة بين مكة والمدينة . فيقول ان المسجد النبوي هو أخذ الحرمين ، وثاني الأماكن المقدسة الثلاثة المعدة للعبادة ، أما الإثنان الآخران فهما المسجد الحرام في مكة الذي يعود بقدسيته إلى إبراهيم الخليل والمسجد الأقصى في القدس الشريف . ويذكر في حاشية له على هذا القول أن البعض يضيفون مكاناً رابعاً إلى هذه الأماكن الثلاثة ، وهو « مسجد التقوى » في قبا . وقد ورد في الحديث عن النبي قوله « الصلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة في أماكن أخرى ، إلاّ المسجد الحرام » . ولذلك فمن واجب الزائر الذي يبقى في المدينة أن يصلي هناك في الأوقات الخمسة ، ويقضي النهار بقراءة القرآن الكريم فيه ، والليل في التأمل إن أمكن .

ويسمى الدخول إلى المسجد النبوي وتفقد الأماكن والبقع المقدسة فيه « الزيارة » . وهناك فرق أساسي بين هذا الطقس والحج إلى بيت الله الحرام . فالحج فريضة واجبة يفرضها القرآن على كل مسلم مرةً واحدة في حياته ، أما الزيارة فعملٌ مستحب . والطواف الذي يتم في بيت الله في مكة يجب أن لا يؤدى حول قبر الرسول مطلقاً ، وعلى الزائر أن لا يزور القبر المطهر بلباس الاحرام ولا يلمسه بيده أو يضغط بصدره عليه كما يفعل في الكعبة ، ولا يعفّر وجهه بالتراب المتراكم من حوله .

ويخال للمرء أن هذه النقاط تكفي للاتفاق على منزلة المسجد النبوي ومكانته الروحية ، لكن الناس تختلف على الدوام ، ولا سيما في الشرق فيذهب المالكيون إلى أن المدينة أكثر تبجيلاً من مكة نظراً لقدسيتها والمنافع الدينية المستمدة منها ، ولوجود قبر النبي (ص) فيها . ويقرل البعض أن الرسول

عليه السلام فضّل مكان هجرته على أي مكان آخر وباركه كما بارك إبراهيم مكة . يضاف إلى هذا أن الحديث المختص يستفاد منه أن جسم كل امرىء يُستمد من الأرض التي يدفن فيها ، ولذلك فقد حظيت المدينة بشرف تقديم المادة لجسم الرسول الأعظم . وهناك آخرون مثل عمر بن الخطاب لم يكونوا متأكدين من أي شيء يفضلون . ولما كان الوهابيون من جهة أخرى لا يعترفون بشفاعة الرسول يوم القيامة ، ويعتبرون قبر الرسول قبراً مثل سائر القبور شيئاً لا يُعتد به ، ووسيلة للعبادة الوثنية التي يمارسها بعض المسلمين الحمقى ، فقد نهبوا المبنى المقدس بعنفٍ ينطوي على التدنيس ومنعوا الزوار القادمين من البلاد النائية عن الدخول إلى المدينة* .

على أن المسلمين يجمعون على أفضلية بيت الله الحرام في مكة على كل شيء في العالم ، ويعترفون بأن المدينة أكثر احتراماً وتبجيلاً من أي جزء من مكة ، وجميع ما في الأرض ، عدا بيت الله . ولا شك أن هذا لا يعني تفضيل سكان مكة على سكان المدينة أو بالعكس ، لكن المكيين في الوقت نفسه يدعون ادعاءً مطلقاً بأفضليتهم على أهل المدينة ، وكذلك يفعل المدنيون (الص ٣٠٤ ـ ٣٠٧ ج ١) .

مظهر الحرم النبوي

وحينما حاول بورتون الدخول إلى الحرم الشريف في المدينة لم يجد له جبهةً خارجية واضحة ، ولا منظراً يليق بمسجد الرسول على ما يقول ، ولذلك فهو كمبنى مقدس لا جمال فيه ولا جلال . وبعد أن دخل من « باب الرحمة » اندهش من منظره العادي والبهرجة الرخيصة المتجلية فيه ، التي

(*) لقد تغير اليوم الشيء الكثير من العنف الذي عرفت به الوهابية في القرن الثالث عشر الهجري وأصبحت هذه الوهابية أكثر مرونة وأصبحت أبواب مكة والمدينة مفتوحة في وجوه جميع الطوائف الإسلامية ومختلف مذاهبها والمظنون أن الوهابية تدنو اليوم رويداً إلى ما يشبه الحياة المدنية الخليلي

تعد شيئاً غير لائق لمثل هذا المكان الذي يجله المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ويقدسونه كل التقديس . وهو ليس مثل بيت الله الحرام المهيب البسيط ، المعبر عن فكرة سامية واحدة . ويقول كذلك : انني كلما أمعنت النظر فيه تبين لي أشبه بمتحف فن من الدرجة الثانية ، أو دكان تحف قديم ممتليء بالتزويقات غير الكمالية ، ومزدان بفخامة الفقراء .

.. والمسجد متوازي الأضلاع يناهز الأربع مائة وعشرين قدماً في الطول والثلاث مِاية وأربعين في العرض ، ويتجه طوله من الشمال إلى الجنوب تقريباً . وهو مثل سائر المباني الدينية الإسلامية المعتادة مبنى فيه ساحة وسطى مكشوفة تسمى الصحن ، أو الحوش ، أو الحصوة ، أو الرملة ، يحيط بها بهوٌ له صفوف عديدة من الأعمدة على شاكلة الأديرة الإيطالية . والأروقة فيه سقوف منبسطة ، لكنها مقببة من فوق بقبب تشبه القبب الإسپانية نصف النارنجية ، وتقسم إلى أربعة أقسام بممرات ضيقة تنخفض عن مستوى التبليط بثلاث أو أربع درجات . ويمتد على طول الجدار الشمالي القصير من داخله الرواق المجيدي المسمى باسم السلطان الحاكم (عبد المجيد) ، كما يشغل الجدار الغربي الطويل رواق باب الرحمة ، والجدار الشرقي رواق باب النساء . ويستمد الرواق الأخير اسمه هذا من قربه من قبر السيدة فاطمة (ع) ، ويدخل النساء منه عندما يردن زيارة القبر المطهر .

ويحتضن الطول الداخلي للجدار الجنوبي القصير صف الأعمدة الرئيس المحيط بالروضة ، أي الموضع المحتوي على جميع ما هو مقدس في الحرم . وهذه الأروقة الأربعة المقدسة من الخارج تحملها من الداخل أعمدة تختلف بعضها عن بعض في الشكل والمادة . وقد بُلط الرواق الجنوبي الذي يقوم فيه الضريح بقطع جميلة من الرخام الأبيض المشغول بشغل التطعيم ، المغطى هنا وهناك بالحصر الخشنة التي فُرش فوقها السجاد غير النظيف المتأكل بأرجل المؤمنين .

المنائر

يبلغ عدد المنائر في الحرم الشريف خمسة ، لكن منارةً واحدة ، هي الشكيلية التي تقوم في الزاوية الشمالية الشرقية من المبنى قد هدمت وما تزال تبنى بشكلٍ جديد . وتقوم منارة باب السلام إلى جانب هذه الباب . وهي كأنها برج طويل جميل تعلوه كرة كبيرة أو مخروط من النحاس الأصفر اللماع . كما تقوم منارة باب الرحمة في منتصف الجدار الغربي ، وهي أبسط في شكلها من المنائر الأخرى ، ولها حوضان يكون الأعلى منهما دائري الشكل يعلوه سطح مخروطي كما هو مألوف في تركية ومصر . وتقوم في الزاوية الشمالية الشرقية من المسجد المنارة السليمانية المسماة باسم بانيها السلطان سليمان القانوني . وهي برج متين البناء بالحجر ، له ثلاثة أحواض يكون الحوضان الأسفلان منها مضلعي الشكل والحوض الأعلى أسطواني الشكل ، وينتهي كلٌ منها بمنصة يدور حولها سياج حديد لحماية الذين يصعدون اليه .

وأخيراً ، تقوم المنارة الرئيسية في زاوية المسجد الجنوبية الشرقية ، والمفروض في هذا الموقع أن يكون الموقع الذي كان يقف فيه بِلال مؤذن الرسول فيدعو المسلمين إلى الصلاة . ويقول بورتون انها سُميت رئيسية لأنها مخصصة لرؤساء المؤذنين . وهي مثل المنارة السليمانية لها ثلاثة أحواض يكون الأولان منها مضلعين في شكلهما والثالث أسطواني الشكل ، وله مثل ما للأولين منصة مسيجة . وتنتهي كل من المنارتين الأخيرتين بشكلٍ بيضوي صلب ينبت منه عدد من المثلثات الخشبية التي تعلق بها وبالمنصات مصابيح نفطية في الأعياد والمناسبات ، مثل مناسبة وصول موكب الحج الشامي — وهي محاولة هزيلة للأنارة يمكن أن تساعد على تفسير الخرافة المدنية التي تشير إلى عمود النور الذي يعلو قبر النبي (ص) . وليس هناك تناسق في شكل هذه المناورات الأربع وحجمها ، ولهذا تكاد تبدو لأول وهلة غريبة المنظر وفي غير محلها برغم ما فيها

من جمال وجلال . ويقول بورتون انه بعد أن بقي في المدينة عدة أيام صارت عيونه تألفها ولم يعد يجد صعوبة في تقدير نسبها الضخمة وأشكالها السامقة (الص ٣٣٣ و ٣٣٤ ج ١) .

الأروقة والأعمدة

ويسري عدم التناسق الموجود في المنائر إلى الأروقة المحيطة بالصحن المربع المكشوف في الوسط أيضاً . فعلى طول الجدار الشمالي سيكون عند الانتهاء من البناء الذي كان قائماً على قدم وساق صفٌ جميل من الأعمدة الغرانيت التي بُلطت الأرض فيما بينها بالرخام . وللرواق الشرقي ثلاثة صفوف من الأعمدة ، وقد ثبتت الأربعة الغربية منها والجنوبية ، التي يقوم تحتها الضريح المطهر تثبيتاً أعمق . لكن هذه الدعامات التي تدعم المبنى قد نحتت من مواد مختلفة ، فبعضها رخام فاخر جميل ، وبعضها الآخر حجر غير صقيل كُسي وصبغ بآرابيسك مبتذل – أي ببقع وخطوط عريضة من اللونين القرمزي والأسود مثل وجه المهرج اللندني حينما يظهر فوق المسرح . يضاف إلى ذلك أن حجم الأعمدة مختلف أيضاً ، فتتألف الجنوبية منها من أساطين أضخم من الأساطين الموجودة في سائر أنحاء المسجد ، فنادراً ما تجد اسطوانتين لهما تاجان متشابهان ، وكثير منها ليس له قواعد ، كما أن بعضها قد قطع بجهل مؤلم بفن البناء . وللذلك يقول بورتون انه لا يسعه أن يشمّل إعجابه بالمنارات الأعمدة هذه .

ومن بين هذه الأعمدة التي لا تستحق الثناء ، هناك ثلاثة لها شهرة في تاريخ الإسلام وللذلك كتبت أسماؤها عليها بالدهان ، وتتمتع خمسة أخرى بشرف التسميات المشهورة . فيسمى الأول « المخلق » لأنه لطخ بالخلوق في مناسبة من المناسبات ، ويقع هذا بالقرب من المحراب النبوي إلى يمين المكان الذي يصلي فيه الأمام ، كما يدل على البقعة التي

كان الرسول الأعظم عليه السلام قبل اختراع المنبر يتكيء فيها على « الأسطوانة الحنانة » ويلقي خطبة الجمعة . والعمود الآخر هو ثالث عمود من المنبر وثالث من الحجرة ، ويسمى « عمود عائشة » وكذلك « أسطوانة القرعة » لأن الرسول على ما تقول زوجته المفضلة صرح قائلا : ان الناس حينما يعرفون قيمة هذا المكان سوف يستعينون بالقرعة للصلاة فيه . ويذكر في بعض الكتب باسم « عمود المهاجرين » ، كما أن آخرين يسمونه « المخلق » كذلك .

وعلى بعد عشرين ذراعاً من عمود عائشة ، وعمودين من الحجرة ، وأربعة أعمدة من المنبر يقع « عمود التوبة » أو عمود أبي لبابة . وقد سُمي كذلك على أثر حادثة وقعت لأبي لبابة أحد الأنصار ، اليهودي الأصل ، أو الأوسي ، الذي جاء يفاوض النبي عن بني قريظة اليهود فأساء التصرف وندم فقرر أن يشد نفسه بنخلة كانت في هذه البقعة حتى يقبل الله والنبي توبته . أما الأعمدة التي تقل في شهرتها فهي « أسطوانة السرير » التي كان من عادة النبي أن يجلس في موقعها للتأمل فوق سريره المتواضع المصنوع من جريد النخل . وتشير « أسطوانة علي » إلى المكان الذي كان الأمام علي يصلي فيه إلى جنب ابن عمه النبي . وفي موقع « أسطوانة الوفود » كان النبي (ص) يستقبل الوفود والرسل والمبعوثين من البلاد الأخرى . وتدل « أسطوانة التهجد » على المكان الذي كان النبي يمضي ليلة فيه مصلياً متهجداً . وأخيراً « مقام جبرائيل » الذي لم يجد بورتون تفسيراً لأسمه الآخر « مربعة البعير » .

وتطل الأروقة الأربعة في مسجد المدينة على صحن أوسط مكشوف متوازي الأضلاع في شكله . والشيء الوحيد الذي يلفت النظر فيه سياج خشب مربع الشكل يحيط بتربة حسنة الأرواء تدعى « حديقة ستنا فاطمة » ، وتوجد فيها اليوم (أي يوم زيارة بورتون في ١٨٥٣) اثنتا عشرة شجرة يهدي خصيان المسجد تمرها إلى السلطان وعظماء المسلمين .

وتوجد بين النخلات بقايا لسدرة قديمة يباع ثمرها بأسعار عالية . أما البناية الصغيرة التي ذكرها بورخارت قبل أربعين سنة ، وقال إنها توجد بالقرب من هذا الموقع ، فقد هدمت قبل ثلاث أو أربع سنوات ، وكانت تسمى « قبة الزيت » أو « قبة الشمع » .

دفن النبي

وينهي بورتون فصله الطويل الذي كرسه لوصف الحرم الشريف (الفصل السادس عشر ج ١) بالتشكيك في صحة المكان الذي دفن فيه النبي الأعظم ، مستنداً إلى أسباب تافهة . فهول يقول (الص ٣٣٩) انه برغم أن كل مسلم ومسلمة على وجه البسيطة ، متعلماً كان أو غير متعلم ، يعتقد بجزم بأن رفات النبي محمد قد دفنت في « الحجرة » بالمدينة ، فأنني لا يسعني إلاّ أن أعتقد بأن المكان مشكوك فيه ، مثل ما هو مشكوك بالقبر المقدس في القدس الشريف . ويجب أن نتذكر أن شغباً قد حصل حينما توفي النبي لأن الناس الذين كانوا يعتقدون بخلوده لم يصدقوا النبأ ، وحتى عمر فعل ذلك وهدد بقتل من يصدقه . يضاف إلى ذلك أن النبي ما صعدت روحه إلى بارئها في السماء حتى حصل نزاع بين مهاجري مكة وأنصار المدينة . وباحتدام هذا النزاع هدد البعض بحرق بيت علي وفاطمة ، الواقع على بعد أقدام معدودة من البقعة التي يوجد فيها جدث الرسول اليوم ، ثم انتُخب أبو بكر للخلافة في مساء اليوم نفسه . ويقدم بورتون فيما يأتي الأسباب التي تدعوه إلى الاعتقاد بمثل هذا الرأي العجيب !! .

فهو يقول ان قبر الرسول منذ أيامه الأولى لم يعرف شكله قط في الاسلام ، ولهذا السبب يكون شكل القبور محدباً في بعض البلاد الاسلامية ومسطحاً في بلاد أخرى ، ولو كانت هناك سُنة في هذا الشأن لما كانت الحالة على ما هي عليه اليوم . كما ان الروايات ، فالسمنهودي الذي يعد ثقةً بين المؤرخين يناقض نفسه في هذا الشأن . فتارةً نجده يصف القبر المطهر ، وتارةً أخرى يقول

بصراحة انه دخل الحجرة حينما كان يرممها قايتباي ورأى في داخل الضريح ثلاثة لحود عميقة ولكن لم يجد أثراً للقبور . ولذلك فاما ان تكون رفات الرسول يكون الشيعة قد نقلوها الى مكان آخر حينما ظل القبر المقدس بعهدتهم قروناً عديدة . وأخيراً يقول بورتون : اني لا يسعني الا ان اعتبر قصة النور الذي يأخذ بالأبصار فيحيط بقبر الرسول ، مما كان وما زال يعتقد به المسلمون ، تمويهاً ابتدعه المسؤولون لتغطية النقص المشار اليه . ولا اعتقد ان هذه الأسباب ، وهذا الرأي ، يستحق الرد عليها لأنها تتهادى أمام المنطق السليم* .

شيء من تاريخ المدينة

وهناك فصل أفرده بورتون في رحلته (الفصل السابع عشر ج ١) لتاريخ المسجد النبويَ لا نجد مبرراً لايراد شيء منه هنا نظراً لما جاء من هذا التاريخ في صدر هذا البحث نقلاً عن دائرة المعارف الاسلامية . لكن بداية هـــذا الفصل تتطرق الى تاريخ المدينة القديم ، وقد وجدنا من المناسب ايراده هنا لما فيه من طرافة وشيء من الفائدة بالرغم من كونه من الاخبار التي لا تتجانس مع التاريخ الاكاديمي العلمي فهو يقول ان ابن عباس أخبر العالم بان الثمانين شخصاً الذين كانت تتكون منهم أسرة النبي نوح عند أول خروجه من الفلك نزلوا في مكان يبعد عن بابل بعشر مراحل واثني عشر فرسخاً ، اي بمقدار ٣٦ الى ٤٨ ميلاً . وهناك تناسلوا وتكاثروا ثم انتشروا فكونوا امبراطورية قوية ، لكنهم انحرفوا عن عبادة الله العلي القدير في الأخير على عهد نمرود بن كنعان بن حام . وبمعجزة من المعجزات تفرقوا أيدي سبا وانتشروا الى أقصى

(*) الحق أن بطلان هذا الرأي من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى رد أو تعليق ذلك لأن التواتر وحده في تعيين مدفن النبي منذ أول ساعة من وفاته حتى اليوم والقيام بدفن الخليفة أبي بكر وعمر إلى جواره بقصد المثوبة كاف لنقض مثل هذا الرأي وان مثل هذا الشك في موضع قبر النبي كمثل الشك في موضع قبر الإمام علي في حين أن التواتر القائم منذ أول تاريخ الدفن عنـــد الأسرة والأبناء والأحفاد والأنصار والتابعين دليل لا يقبل الشك والارتياب . الخليلي

بقاع الأرض ، ثم أخذوا يختلفون بتعدد لغتهم البدائية الى اثنتين وسبعين لهجة .

وقد أوحي الى قبيلة من هؤلاء تسمى أبناء سام بن نوح ، أو العمالقة والعماليق ، نسبةً الى جدهم عملق بن أرفخشد بن سام بن نوح ، بمعرفة اللغة العربية . فنزلت في المدينة ، وكانت أول من فلح الأرض وزرع النخيل فيها ، واحتل هؤلاء الناس بمرور الزمن جميع الأراضي الواقعة ما بين بحري الحجاز (البحر الأحمر) وعُمان (الجزء الشمالي الغربي من المحيط الهندي) فأصبحوا أسلاف الجبابرة في سورية والفراعنة في مصر . وكان عمر الانسان في عهد هؤلاء العماليق طويلاً بحيث لم يكن يُرى خلال أربع مائة سنة أي تابوت ولم يُسمع أي نوع من العويل في مدنهم .

ويقول معظم المؤرخين ان آخر ملك من ملوك العمالقة ، وهو أرقم بن الأرقم ـ بحه جيش من أبناء اسرائيل أرسله موسى بعد « الخروج » أو هجرة اليهود وأمرهم بتطهير مكة والمدينة تطهيراً كاملاً من سكانها الكفرة . فقُضي على القبيلة كلها عدا امرأة واحدة وأطفال من الأسرة المالكة وفتى يافع منهم ، لأن جماله الطاغي أقنع المحتلين باستبقائه الى ما بعد الرجوع الى رأي النبي فيه . وحينما عاد الجيش وجد موسى قد قضى نحبه ، فأنّبهم الناس على مخالفة أمره الصريح . ولم يشأ أفراد الجيش ان يعيشوا مع الأمة التي استقبلتهم بمثل ذلك اللوم والتقريع ، فعادوا الى الحجاز واستقروا فيه* .

ويتفق المؤرخون المسلمون على ان بني اسرائيل هم الذين حكموا بلاد العرب المقدسة بعد العمالقة ، لكن المتبحرين في التاريخ لا يتفقون على سبب هجرتهم الى هناك . فيقول بعضهم ان موسى حينما كان عائداً من الحج في مكة وجد جماعةً من اتباعه في المدينة الدلائل التي يشير التوراة بواسطتها الى انه ستستمع الى خاتم النبيين وآخر المرسلين . فنزلوا فيها وانضم اليه كثير من

(*) في صدر هذا الجزء طائفة من هذه الأخبار المفتقرة إلى التأييد وقد اوردناها كما أوردنا بعضها هنا من أقوال الغربيين التي اعتمدت تلك الأخبار بقصد الاطلاع الخليلي

البدو الموجودين حولها ، وخضعوا لشريعة موسى . ويخبرنا ابن شيبة كذلك ان موسى وهارون حينما رحلا من مكة واتجها نحو الشمال لم يدخلا الى المدينة خوفاً من بعض اليهود الذين كانوا فيها ، لكنهما نصبا خيامهما فوق جبل أحُد . وحينما اوشك هارون على الوفاة حفر موسى قبراً له وخاطبه يقول « لقد أتتك الساعة يا أخي فوجه وجهك الى العالم الآخر » . فتمدد في القبر ، وفاضت روحه في الحال ، وعند ذاك أهال موسى عليه التراب وتوجه الى أرض الميعاد !.. وهنا يعلق بورتون ويقول انه شاهد قبة هارون فوق قمة أحُد ، لكنه يذكر كذلك ان قليلاً من المراجع تعتقد بدفن هارون في هذا المكان ، لأن قبره موجود فوق جبل الطور في شبه جزيرة سيناء ، وهو كثيراً ما يزار هناك .

ويزعم أبو هريرة ان بني اسرائيل نزلوا في المدينة بعد تفتيش طويل ، لأنهم وجدوا في كتبهم بعد أن طردوا من فلسطين على اثر احتلال بختنصر لها أن خاتم النبيين سيظهر في بلدةٍ من بلدان « عربية » تدعى « ذات نخل » . وقد احتل البعض من أبناء هارونَ المدينة ، ونزلت القبائل الأخرى في خيبر وما جاورها وبنوا لهم أطُماً ، أو حصوناً مربعة مسطحة السطوح من الحجر للسكنى والدفاع . وخلفوا لأجيالهم التالية ما يفهم منه أن محمداً يجب ان يستقبل استقبالاً حسناً ، لكن الله سبحانه وتعالى أغلظ قلوبهم فأدى ذلك الى هلاكهم . فقد اداروا ظهورهم كالحمير الى رحمة الله ، وكانت النتيجة ان استؤصلوا من الأرض .

ويذكر الطبري في تاريخه ان بختنصر بعد ان خرب أورشليم هاجم مصر وذبح ملكها الذي كان قد آوى بقايا بني اسرائيل ، فوجد اللاجئون المطاردون طريقهم الى الحجاز ونزلوا بالقرب من يثرب ، حيث أسسوا بلداناً عدة مثل خيبر ، وفدك ، ووادي الصبو ، ووادي القرى ، وقريظة ، وكثير غيرها : ولذلك يبدو باتفاق المؤرخين ان اليهود في الزمن القديم اما ان يكونوا قد استوطنوا المدينة ، أو حلوا محل العمالقة فيها .

وقد تخلى الاسرائيليون في الأخير عن عبادة الله الواحد الأحد ، الذي أثار قبائل الأوس والخزرج العربية عليهم . وتمتّ هذه القبائل بصلة الى أصل واحد ، كما تزعم ان بلادها الأصلية هي بلاد اليمن . وتشرح ظروف هجرتهم الى المدينة على الوجه الآتي : فقد كان أحفاد يعرب بن قحطان بن شالك بن أرفخشد بن سام بن نوح . أقارب العمالقة ، يعيشون عيشةً مزدهرة في بلاد سبأ ، وكان نفوذهم يمتد الى رحلة شهرين عن سد مأرب بالقرب من عاصمة اليمن الحالية فيصل الى سورية . كما كانت تروى روايات لا تصدق عن ضيافتهم وخصب أراضيهم . فتبدلت قلوبهم كالمعتاد وانحرفت بتأثير الترف والحيـــاة المزدهرة التي كانوا يحيونها ، وطلبوا من الله ان يريحهم من عناء الامبراطورية المترامية الأطراف ومن واجبات الضيافة بتقليل ممتلكاتهم . فكانت نتيجـــة تضرعاتهم العاقة ما أصابهم من سيل العرم المعروف !!.

وكان رئيس أبناء قحطان بن سبأ ، من أُسر اليمن المالكة ، رجلاً يسمى عمرو بن ماء السماء ، ويلقب « مزيقية » لأنه كان يمزق ثيابه بعد ان يلبسها مرةً واحدة . وكانت لزوجته (تاركة) الحميرية معرفة تامة بالعرافة والكهانة ، فتكهنت بحوادث مميتة وأنذرت زوجها مقدماً بذلك . ولما كان غير راغب بترك قبيلته من دون عذرٍ أو مبرر ، دبر مع ابنه بالتبني ان يتشاجر معه ويلطمه على وجهه في مأدبةٍ كبيرة يحضرها رجال مملكته المرموقون . فاتخذ تلك الحادثة حجةً لبيع أملاكه وهاجر الى الشمال يتبعه أبناؤه الثلاثة عشر ، الذين كانوا كلهم من أمهم (تاركة) نفسها . وقد قُدر للجماعة الصغيرة هذه ، التي نجت من الطوفان في اليمن على هذه الشاكلة أن يكون أحد أفرادها أباً للأنصار الذين نصروا رسول الله في المدينة من بعد ذلك .

فقد انتشر أولاد عمرو جميعهم في مختلف أنحاء الجزيرة العربية ، واختار ابنه الاكبر سلبه بن عمرو الحجاز فنزل في المدينة التي كانت يومذاك في أيدي بني اسرائيل العاقين ، وأصبح أباً للأوس والخزرج . وبمرور الزمن جعل الله

سبحانه وتعالى من القادمين الجدد وسيلة للانتقام من اليهود المتمردين . إذ كانت قبيلتا بني قريظة وبني النضير تدعيان ببعض الحقوق الاقطاعية في جميع مناسبات الزواج ، وبعد ان تحمل أبناء الأوس والخزرج هذه الاهانة مدة من الزمن التجأوا في الأخير الى قريب من أقربائهم الذين كانوا قد نزلوا في سورية عندما تفرقت الأسرة ، وهو أبو جبيلة . فساق هذا جيشاً الى المدينة وانتقم لشرف أقربائه فيها ، وبذلك قضى على قوة اليهود الذين أصبحوا منذ ذلك اليوم موالي للعرب .

فعاشت قبائل الأوس والخزرج بعد ان تحررت من عدوها المشترك عيشة هدوء وصفاء مدة من الزمن . ثم وقعت خلافات وضغائن بينهم بعد ذلك ، وظلوا يتقاتلون فيما بينهم حتى جاء النبي الأكرم الى المدينة فأصلح فيما بينهم . على ان هذا لم يحدث الا بعد ان مني الخزرج باندحار شنيع على يد الأوس في موقعة بواس حوالي سنة ٦١٥ للميلاد .

وقد روي أيضاً ان تبعاً الأصغر سار نحو الشمال ، قبل ان يحاصر أبو جبيلة المدينة بثلاثة قرون ، بطلب من الأوس والخزرج لتأديب اليهود . وبعد ان استولى على المدينة ترك أحد أبنائه حاكماً فيها وزحف لاحتلال سورية والعراق . غير انه أُخبر فجأةً ان أهالي المدينة قتلوا أميرهم الجديد غيلةً فعاد تبع لتوه وأخذ بمهاجمتها . وحينما قتل حصانه من تحته في أثناء الهجوم أقسم بأن لا يقوض خيامه ما لم يهدم المدينة على أهلها . وعندذاك خرج له اثنان من كهنة اليهود وأحبارها ، هما كعب وأُسَيد ، وأخبراه بأنه ليس في مقدور البشر ان يهدم هذه المدينة لأن الله سيحميها على ما تذكره كتبهم ، ويجعلها ملجأ لنبيه من أبناء أسماعيل .

فتهود تبّع وأخذ أربع مائة من أحبار اليهود معه وترك المدينة ، وبعد ان حج الى الكعبة في مكة وأنعم عليها بكسوة ممتازة ، وشيد في المدينة داراً للنبي المنتظر عاد الى عاصمة ملكه في اليمن . وهناك ألغى عبادة الأصنام وعامل ضيوفه الأحبار بكل عناية ورعاية ، ثم كتب على فراش الموت ما فحواه :

« أشهد ان أحمد على حق . وهو نبي الله خالق الأرواح ، ولو امتد عمري الى أيامه لصرت وزيراً له وابن عم » . وبعد ان ختم الورقة سلمها الى الحبر الأكبر وأخذ عهداً منه بأن يسلم الكتاب الى النبي الأعظم اذا سنحت له الفرصة . واذا طال الزمن وبَعُد اليوم الذي يظهر فيه فان الكتاب يجب ان يسلم من جيلٍ الى آخر حتى يصل اليه . وقد عهد بالدار التي بنيت في المدينة الى حبرٍ كان من نسله أبو أيوب الأنصاري الذي كان أول شخصٍ تجاوز عتبة بابه النبي عندما وصل الى المدينة في هجرته . وكان عند أبي أيوب كتاب تبّع نفسه ، وبذلك وصل الكتاب بعد ثلاثة أو أربعة قرون الى المرسل اليه* .

ثم يبدأ بورتون بذكر علاقة النبي والمدينة وكيفية وقوع الهجرة المباركة اليها مما هو معروف في التاريخ . لكنه يذكر أيضاً في حاشيةٍ له قوله أنه من الغريب ان يكون عبد الله أبو النبي قد مات في المدينة ودفن فيها ، وان يكون قبر أمه آمنة في الأبواء على طريق المدينة . وفيها أيضاً تزوج هاشم جده الاكبر سلمى المتدلية التي كانت متزوجة قبله من أحيحة الذي ينتمي الى الأوس . فكان جده شيبة المسمى بعبد المطلب في العادة ابناً لسلمى هذه ، وقد نشأ في المدينة أيضاً .

تشكيلات الحرم

ويأتي بورتون على تشكيلات الحرم النبوي الادارية والعلمية . فيقول ان هذه التشكيلات قد تغيرت كثيراً منذ أيام الرحالة بورخارت (١٨١٤) الذي سبق ان أشرنا اليه . وكان ذلك بتأثير المولدين الأتراك ونفوذهم .

وعلى هذا الأساس لم يعد « شيخ الحرم » من الخصيان . وكان على أيام بورتون رجلاً من پاشوات الأتراك يدعى عثمان ، تعين من استانبول براتبٍ

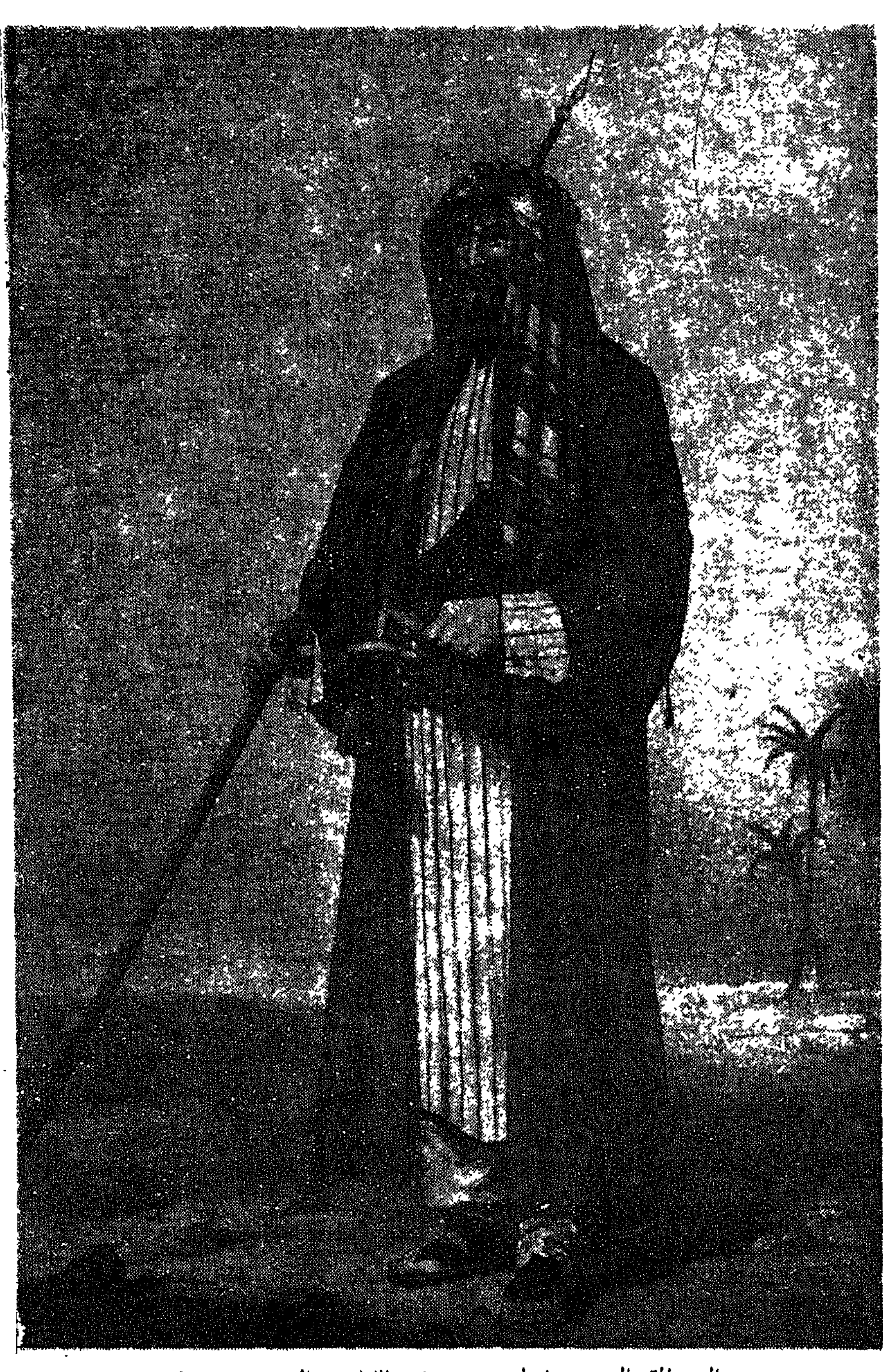
(*) كل ما كتبه (بورتون) كان قد استمده من الأخبار دون تمحيص وهي أخبار تختلف وواقع التاريخ اختلافاً كلياً نبهنا عليها في كثير من المواطن . الخليلي

قدره ثلاثون ألف قرش في الشهر . ونائبه خصي أسود يسمى « رئيس الأغوات » ، ويتقاضى خمسة آلاف قرش في الشهر ، وكان يومذاك يسمى (طيفور أغا) وهو عبد من عبيد (عصمة سلطانة) أخت السلطان محمود المتوفى. ويطلق على رئيس الخزانة « مدير الحرم »وهو يراقب (الخزنةدار) في عمله ويتقاضى راتباً قدره ألف وخمس مائة قرش ، كما يشتغل في معيته مساعد يسمى « نقيباً » ، ويتقاضى ألف قرش . وهناك شيوخ ثلاثة للخصيان يتقاضى الواحد منهم ما بين سبع مائة وألف قرش في الشهر . ويبلغ عدد الخصيان حوالي مائة وعشرين ، وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طوائف : البوابون الذين يفتحون أبواب الحرم ، والخبزية الذين يكنسون الاقسام النظيفة من الحرم ، والطائفة الأخيرة التي يعرف أفرادها بالبطالين ، وهؤلاء يكنسون سائر أجزاء الحرم ويضربون الذين يجدونهم نائمين ويعملون كالشماسين في الكنائس . ويتراوح راتب الواحد منهم ما بين (٢٥٠) و (٥٠٠) قرش في الشهر . وتعتبر وظائفهم شرفية ، وهم في العادة متزوجون ، وبعضهم متزوج من ثلاث زوجات أو أربع .

وهناك إلى جانب الخصيان عدد من الخدام الأحرار يطلق عليهم (الفراشون) ويكاد ينتمي جميع أفراد الطبقة الوسطى والدنيا من سكان المدينة الى هذه الطائفة من الخدم ، وهم يقسمون الى جماعات يتألف كلٌ منها من ثلاثين ، ويتبدلون كل أسبوع بعد ان يتقاضوا عن خدماتهم « غازي » واحد أو ما يعادل اثنين وعشرين قرشاً . وينحصر عملهم في مسح الأرض وغيرها وازالة التراب عنها ، وفرش السجاد ، وملء المصابيح بالنفط بعد ان ينزلها الخصيان لهم من السقوف ، وغير ذلك

وأخيراً هناك الطبقة الدنيا من الخدم المتألفة من « شيخ السقاقي » الذي يشتغل في معيته أربعون الى خمسين رجلاً يقومون بفرش الساحات وسقي الحدائق وتقديم الماء للزوار.

اما التشكيلات الدينية فهي على نطاق أوسع من التشكيلات الادارية



الرحالة السر تشارلز بورتون باللباس العربي ١٨٥٣

فهناك القاضي الذي يبعث كل سنة من استانبول . وبعد أن يقضي اثني عشر شهراً في المدينة ينتقل الى مكة، ثم يعود الى بلاده بعد خدمة سنة أخرى فيها . ويشتغل في معيته ثلاثة (مفتين) : المفتي الشافعي . والمفتي الحنفي . والمفتي المالكي . وكلٌ من هؤلاء يتقاضى حوالي مائتين وخمسين قرشاً في الشهر . اما الرؤساء ، كما يسمى المؤذنون هنا ، فهم كثيروا العدد . فهناك ثمانية وأربعون او تسعة وأربعون مؤذناً من الطبقة الدنيا ، ويترأسهم ستة من المؤذنين الكبار . وهؤلاء أيضاً يرأسهم شيخ الرؤساء الذي يحق له فقط ان يؤذن من فوق « المنارة الرئيسية » . وهذا الشيخ يتقاضى مائة وخمسين قرشاً . اما الرؤساء فيتقاضى كل منهم مائة . المؤذنون الاعتياديون ستين . وهناك في الحرم أيضاً خمسة وأربعون خطيباً يعظون ويؤمون المصلين في أيام الجمع لقاء مائة وعشرين قرشاً في الشهر ، وهم تبع لرئيس الخطباء . ويدفع المبلغ نفسه إلى خمسة وسبعين إماماً يقرأون الصلوات الخمس يومياً في الحرم ، ويترأسهم شيخ الأئمة .

ولم يستطع بورتون الحصول على معلومات مضبوطة حول المبلغ الذي تحوّل سنوياً من استانبول والقاهرة الى المدينة . فالنقطة الوحيدة المتفق عليها بين الناس في هذا الشأن ان معظم هؤلاء يحرمون من نصف مخصصاتهم عادةً ويبتزها غيرهم . فحينما تصل الصدقة ومبالغ الأوقاف الى المدينة تسلم الصرّة الى المفتين ورئيس الخطباء وكاتب القاضي . وهؤلاء تتكون منهم لجنة خاصة . وبعد أن يحصوا الأسر المستحقة يقسمون المبالغ فيما بينها بموجب العدد الذي تتكون منه الأسرة الواحدة ومنزلة المستحق . ويقسم هؤلاء الى الدرجات التالية :

أ ــ العلماء والمدرسون الذين يعظون ويحاضرون ويعلمون البالغين من الناس في الحرم .

ب ــ الأئمة والخطباء .

ج ــ السادة من نسل النبي .

د ــ الفقهاء والملالي .

هـ ــ العوام بما فيهم أهالي المدينة والمجاورون .

وقد استقى بورتون هذه المعلومات من عمر أفندي الذي ينتمي إلى الدرجة الثانية من هذا التصنيف . وقد أخبره بأن حصته تتراوح بين ثلاثة الى خمسة عشر ريالاً في السنة .

سكان المدينة

ذكرنا فيما سبق من هذا البحث ما كتبه الرحالة بوركهارت عن سكان المدينة حينما زارها في ١٨١٤ ، وسنورد هنا ما كتبه بورتون بعده بأربعين سنة في الموضوع نفسه ، منتقين منه ما لم يتطرق الى ذكره الرحالة الأول .

فيقول بورتون[١] ان المدينة فيها عدد قليل من الأسر المتحدرة في نسبها من أنصار النبي الأقدمين ، وأنه سمع عن أربع منها :

١ — بيت الأنصاري ، أو سلالة أبي أيوب الأنصاري النبيلة التي تفرعت شجرتها تفرعاً كبيراً خلال مدة تناهز الألف وخمس مائة سنة . ومع ان هؤلاء يحملون مفاتيح مسجد قبا ، ويخدمون أئمةً في الحرم الشريف ، فانهم لم يعودوا من الأسر الثرية القوية .

٢ — بيت أبي جود ، وهؤلاء يزودون الحرم بعدد من الأئمة والمؤذنين . لكن المعروف في أواسط القرن الخامس عشر بأن الأسرة لم يبق منها سوى شخصين هما ولد وبنت . ثم يقول بورتون بالمناسبة ان الرحالة المغربي ابن جبير يروي انه شاهد في المدينة مؤذناً من نسل بلال مؤذن الرسول يمارس المهنة التي تخصصت بها أسرته عبر القرون .

٣ — بيت الشعب ، وهذه أسرة كثيرة العدد اتخذ قسم من ابنائها الترحال مهنةً لهم ، واتخذ الآخرون التجارة والخدم في الحرم الشريف .

٤ — بيت الكراني ، الذين يشتغلون غالباً في الأمور التجارية .

---

(١) الفصل الحادي والعشرون [illegible]

ثم يتطرق الى ذكر النخاولة الشيعة فيورد نقاطاً وتهماً ما أنزل الله بهـا من سلطان عنهم ، ولعل ذلك من خيال المتعصبين الذين نقلوا له هذه الأخبار عن مثل هذه الطبقة من الناس التي كانت تشتغل في صدر الاسلام في الفلاحة عند الامام الحسن عليه السلام ، كما ألمحنا في السابق . وكذلك يتكلم عن بني حسين والخليفية مما أوردناه في بحث الرحالة بورخارت . ويزيد على ذلك بذكر الصديقية من نسل أبي بكر ، وبني النجار الذين يقول عنهم انه لم يجد أحداً يزوده بأي خبر يختص بهم . ويحلل بعد ذلك أوضاع سكان المدينة من جميع الوجوه بفصلٍ يستغرق ثمانٍ وعشرين صفحة كاملة ، ومن المؤسف انه ليس من الممكن ايراد ذلك هنا .

البقيـــع

وقد زار بورتون مقبرة البقيع زيارةً خاصة ، فخرج مع جماعته مـــن المدينة سالكاً درب الجنازة اليها ، الذي يحاذي السور الجنوبي .. وهو يقول عند الوصول اليها ان هناك خبراً يقول ان سبعين ألف قديس ، وفي روايـــة مائة الف ، سوف يبعثون يوم القيامة من البقيع . وان عشرة آلاف صحابي ، وعدداً لا يحصى من السادة ، قد دفنوا في هذه المقبرة على مر السنين فاندرست على مر السنين فاندرست قبورهم لأن القبور في الأزمنة القديمة لم تكن توضع عليها شواهد . وأول من سيبعث يوم النشور النبي الأعظم (ص) ، وبعده أبو بكر ، وبعده عمر ، ثم أهل البقيع ، ثم دفناء مقبرة « جنة المعلا » في مكة المكرمة .

وكان أول شخص في الاسلام دفن في البقيع عثمان بن مظعون ، لأنه أول من توفي في المدينة من المهاجرين . ففي اليوم الثالث من شعبان سنة ٣ للهجرة قبّـل النبي جبين جثته وأمر بدفنها في مدى الرؤية من مقره . وكان المكان في تلك الأيام حقلاً ينتشر فيه عدد من أشجار الغرقد ، فقطعت الأشجار وسويت الأرض فدفن ابن مظعون في وسطها . ثم وضع النبي بيديه الكريمتين حجرين شاهدين كبيرين فوق رأس صاحبه وقدميه . ويقول بورتون في حاشيةٍ له ان

مروان بن الحكم رفع هذين الحجرين بعد ذلك حينما قرر عدم تمييز هذا القبر ، لكن المسلمين استهجنوا هذا العمل من وكيل معاوية . ولعل ابن مظعون كان من خصوم الأمويين . هذا وقد أُنشئت بمرور الزمن قبة فوق هذا القبر . ثم دفن الى جنبه ابراهيم الابن الثاني للنبي محمد ، فأصبح البقيع من بعد ذلك مقبرةً مشهورة .

ومدفن الأولياء هذا له شكل متطاول غير منتظم تحيط به جدران متصلة بالضاحية من زاويتها الجنوبية الغربية . ويحجزه درب الجنازة عن سور المدينة ، كما يحده من الشمال طريق البادية الشرقي الذي يخرج من باب الجمعة . وتعتبر هذه المقبرة صغيرة اذا ما لوحظ أن جميع من يتوفاه الله في المدينة من أهلها ومن الغرباء يتأملون ان يدفنوا فيها الا الرافضة والكفرة . ولذلك فلا بد لها من ان تضيق بجثث الموتى الذين لا يمكن ان تستوعبهم لولا ان الطريقة التي يدفن بها المسلمون موتاهم تساعد على التفسخ والاندراس .. وليس في داخل المقبرة أزهار ولا أشجار باسقة ، ولا كل شيء مما يخفف كآبة المدافن المسيحية في العادة ، حتى ان الأبنية التي فيها تعد شيئاً بسيطاً للغاية او حقيراً في الحقيقة . ولقد هدم الأبنية والنصب القديمة التي كانت موجودة فيها الأمير سعود وأتباعه الوهابيون الذين شنوا حملة شعواء ضد ما لا بد من أنهم كانوا يعتبرونه شيئاً باذخاً من الأضرحة ، لأنهم يعتقدون بأن خير القبور الدوارس . وكان منظر هذه المقبرة حينما زارها بورخارت من قبل (١٨١٤) عبارة عن « .. أكوام مبعثرة من التراب ، وحفر واسعة ، وأنواع من الزبل ، من دون شاهدة واحدة على أي قبر . ويرجع الفضل لما بني منها بعد ذلك الى السلطانين عبد الحميد ومحمود .. » .

ويقول بورتون كذلك : .. وقد دخلت المقبرة المقدسة مقدماً رجلي اليمنى كما لو كنت أدخل الى المسجد ، وحافي القدمين لأتحاشى اعتباري من الرافضة . فمع ان أهالي المدينة يدخلون اليها بأحذيتهم فانهم يغتاضون كثيراً حينما يرون الايرانيين يفعلون مثلهم . ثم بدأنا بقراءة الزيارة العامة المألوفة .. وأعقبناهـــا

بقراءة سورة الاخلاص والشهادة ، وبانتهائها رفعنا أيدينا وقرأنا الفاتحة قراءةً خافتة ومسحنا أيدينا على وجوهنا وتحركنا .

وحينما سرنا في ممر ضيق يؤدي من جهة البقيع الغربية الى الجهة الشرقية دخلنا مرقداً متواضعاً أُقيم فوق قبر الخليفة عثمان .. فعندما قتل أراد أصحابه ان يدفن في « الحجرة » ، لكن ثوار مصر قابلوا ذلك بعنف وأقسموا أن لا يدفن هناك ولا يصلى عليه ، وانما سمحوا فقط بنقله بعد تهديد حبيبة أم المسلمين (وبنت أبي سفيان) لهم . وفي خلال الليلة التي أعقبت وفاته نقل عثمان الى البقيع من قبل أصحابه ، لكنهم طردوا من هناك أيضاً فاضطروا الى ايداع حملهم في بستان تقع في الجهة الشرقية الخارجية من مقبرة الأولياء هذه . وكانت تدعى « حصن كوكب » حتى أدمجها مروان بالبقيع . وقد وقفنا على مرقد عثمان هذا وتلونا الزيارة .. وبعد ذلك دفعنا الصدقات وأرضينا الخادم بعشرة قروش .

وبعد هذا سرنا خطوات قليلة الى الشمال وتوجهنا نحو الشرق فزرنا أبا سعيد الخدري صاحب النبي الذي يقع قبره في خارج البقيع . وكان المكان الثالث الذي زرناه‌قبة تحتوي على قبر السيدة حليمة البدوية (السعدية) مرضعة النبي محمد.. ومن هناك توجهنا الى الشمال فوقفنا أمام‌مبنىً صغير يحتوي على أكوام بيضوية الشكل من الأحجار المتناثرة ، وهي قبور شهداء البقيع الذين قتلهم مسلم قائد كبير الفاسقين يزيد . ويقول بورتون في حاشية له هنا (الص ٣٧ ج ٢) ان الامام الشافعي يسمح لأتباعه بسب يزيد بن معاوية الذي جعلته قساوته مع آل البيت ، وجرائمه وموبقاته ، يهودا الأسخريوطي المسلم . وقد سمع بورتون مسلمين أحنافاً يسبون يزيداً كذلك . أما الوقفة الخامسة فكانت بالقرب من وسط المقبرة على قبر ابراهيم ابن النبي الذي توفي وعمره ستة أشهر ، أو سنتان على قول البعض . وكان ابن مارية القبطية التي أهداها الى النبي (ص) جارح مقوقس الاسكندرية في مصر . فقد أهال النبي التراب بيديه الكريمتين عليه ، ورشه بالماء ، ثم وضع الحجارات الصغيرة فوق ذلك وقرأ السلام الأخير

عليه . ولهذا السبب دفن الكثيرون من الرجال المقدسين في هذا الجزء من المقبرة ، لأن كل أحد كان يطمع في ان يلحد في الأرض التي شرفتها يدا النبي . وزرنا بعد هذا النافع ابن عمر المسمى نافعاً القاري عادة ، لأنه كان يجوّد القرآن ، والى جنبه مالك بن أنس ابن المدينة ورجلها الفذ . وكانت الوقفة الثامنة على قبر عقيل بن أبي طالب أخي الامام علي . وهنا يعلق بورتون في حاشية له ويقول ان عقيلاً توفي دمشق على عهد معاوية ، لكن البعض يذكر انه دفن هناك بينما يقول غيرهم ان جثمانه نقل الى المدينة بعد ذلك ودفن في مكان كان يقوم فيه بيته من قبل وكان يسمى دار عقيل .. وقد زرنا بعد هذه البقعة التي دفنت فيها أزواج النبي جميعهن عدا خديجة التي دفنت في مكة . وكان محمد (ص) قد تزوج خمس عشرة امرأة عاش منهن بعده تسع ، وبعد أمهات المؤمنين قرأنا الفاتحة على قبور بنات محمد اللواتي يقال أنهن كن عشراً .

وبعد ان يصف بورتون (الص ٢٩ ج ٢) الشحاذين وأنواعهم وكيف يستقبلون الزوار يقول : .. وقبل ان نترك البقيع وقفنا وقفتنا الحادية عشرة في القبة العباسية ، أو قبة العباس عم النبي . وهنا يعلق في الحاشية بقوله ان البعض يرون ان مراسيم الزيارة كانت ولاتزال تبدأ هنا ، لكن ترتيب الزيارات يختلف ولا يتفق عليه اثنان ، وكانت مسؤولية ما فعله تقع على ما فعله مزوّره الشيخ حميد ، لأنه لم يشأ المجازفة بشيء من عنده .. ثم يستأنف وصف القبة ويقول : وهذه القبة التي بناها الخلفاء العباسيون من قبل في ٥١٩ للهجرة أكبر وأجمل جميع القبب الأخرى ، وتقع على يمين الداخل من باب المقبرة . ويدل على أهميتها تجمع الشحاذين بقربها ، فقد جاءوا اليها وتكأكأوا عليها حينما وجدوا الايرانيين متجمعين فيها بكثرة وهم يبكون ويصلون . وبعد ان اجتزت العتبة بصعوبة طفت حول عدد من القبور كانت تشغل وسط المبنى من دون ان يكون بينها وبين الجدار الا ممر ضيق . وهي محاطة بسياج ومغطاة بعدة كساوى من القماش الأخضر المكتوب عليه بأحرف بيضاء . وتبدو هذه كأنها كومة مرتبكة ، لكنها ربما بدت لي كذلك بسبب الازدحام المحيط بها . وتوجد في القسم الشرقي

قبور الحسن بن علي سبط النبي ، والامام زين العابدين بن الحسين ، وابنه محمد الباقر (الامام الخامس) ، ثم ابنه الامام جعفر الصادق — وهؤلاء جميعاً من نسل النبي وقد دفنوا في نفس المرقد الذي دفن فيه العباس بن عبد المطلب عم النبي .. وبعد أن خرجنا وتخلصنا من أيدي الشحاذين الصغار وجّهنا وجهنا نحو الجدار الجنوبي الذي يوجد بقربه قبر ينسب الى السيدة فاطمة وقرأنا الدعاء المعروف . ويقول بورتون في حاشية مستفيضة (الص ٤١ ج ٢) : .. ويبدو ان المؤرخين المسلمين يبتهجون بالغموض الذي يكتنف مدفن السيدة فاطمة الزهراء (ع) .. فبعضهم يذكر أنها دفنت في الحرم الشريف ويستند في ذلك الى الرواية التي تقول انها حينما علمت بدنو أجلها قامت فرحة مستبشرة فغسلت الغسل الكبير ولبست ملابسها النظيفة ، ثم فرشت حصيراً على أرض بيتها الواقع بقرب قبر الرسول ، وتمددت مستقبلةً القبلة فوضعت يدها تحت خدها وقالت لمن حضر بقربها .. لقد تطهرت ولبست ثيابي الطاهرة ، فلا تسمحوا لأحد بأن يكشف عن جسدي بل ادفنوني حيث أنا .. وحينما عاد علي وجد زوجته قد توفيت ، ونفذت رغبتها الأخيرة . وقد كان عمر بن عبد العزيز يعتقد بهذه الرواية فألحق الغرفة تلك بالمسجد ، ولذلك فالاعتقاد العام في الاسلام هو ان الزهراء البتول قد دفنت في الحرم . اما اولئك الذين يعتقدون بأنها مدفونة في البقيع فيستندون الى قول الامام الحسن : « .. فاذا لم يسمحوا بدفني عند قبر جدي فادفنوني في البقيع الى جنب أمي فاطمة .. » وهؤلاء يرون الخبر التالي في هذا الشأن : .. فقد غسلها وكفنها علي وأم سلمة ، اما غيرهم فيقولون ن اسماء بنت عميس زوجة أبي بكر كانت بجنب فاطمة حينما اعترضت في ساعتها الأخيرة على حملها للدفن كما يحمل الرجال . لكن أسماء وعدتها بأن تصنع لها نعشاً أشبه بمحفة العروس ، من جريد النخل ، على غرار ما رأته في الحبشه ، وعند ذاك ابتسمت فاطمة للمرة الأولى منذ ان توفي والدها وأخذت عهداً بأن لا يدخل عليها أحد طالما كان جثمانها الطاهر مسجى في البيت . ولذلك لم تسمح أسماء لعائشة بالدخول حينما طرقت الباب عليها بعد ذلك ، فذهبت شاكيةً الى أبيها وقالت له ان زوجة أبيها ستعمل محفة

عرش خاصة تحمل بها جثة الزهرا الطاهرة الى مدفنها . فذهب أبو بكر الى الباب وسمع من زوجته ما كانت قد أوصت به فاطمة ، فعاد راجعاً الى بيته من دون اعتراض . وقد أُخفيت وفاة ابنة النبي عن الكبير والصغير برغبة منها ، فدفنت خلال الليل من دون ان يشيع نعشها أو يصلي عليها أحد سوى زوجها الامام علي وعدد قليل من أقربائها ..اما المكان الثالث الذي يقال انها دفنت فيه فهو مسجد صغير في البقيع جنوبي قبة العباس بن عبد المطلب ، وكان يسمى « بيت الحزن » لأنها قضت آخر أيامها فيه تندب فقد ابيها الغالي . ويبدو ان قبرها كان موجوداً هنا من قبل ، لكن الزوار يصلون عليها الآن في مكانين : اي في الحرم وفي القبة العباسية .. وبعد ان غادرنا مقبرة البقيع تقدمنا شمالاً تاركين باب المدينة الى يسارنا حتى أتينا على قبة صغيرة قريبة من الطريق ، تحتوي على قبور عمات النبي ولا سيما صفية بنت عبد المطلب أخت الحمزة ، وإحدى بطلات الاسلام في أول عهده .. ونقول تعليقاً على ما جاء عن دفن فاطمة الزهراء عليها السلام انه يفهم من هذه الروايات ، ومما جاء في « الامامة والسياسة » لابن قتيبة ان الزهراء توفيت وهي غير راضية عن ابي بكر ، ولذلك لم تشأ ان يعلم بموتها هو أو غيره لئلا يصلي عليها وهو خليفة للمسلمين فدفنت في بيتها الذي أُدخل في الحرم بعد ذلك . وعلى هذا فقد تكون الرواية المنسوبة الى الامام الحسن ، التي يفهم منها انها مدفونة في البقيع ، غير صحيحة .

مساجد المدينة

يوجد في المدينة ، على ما يذكر بورتون (الص ٤٤ ج ٢) ما بين خمسين وخمسة وخمسين مسجداً ، وبقعة مقدسة ، لا يعرف معظمها اليوم حتى أهالي المدينة أنفسهم . وسأذكر أهمها فيما يأتي نقلاً عن أفواه الناس .

فعلى بعد ثلاثة أميال من شمالي غربي المدينة ، وفيما يقرب من وادي العقيق ، يقع مسجد القبلتين . ويطلق البعض هذا الاسم على مسجد التقوى في قبا ، بينما يدعي البعض الآخر ان النبي (ص) بعد أن زار بيت امرأة عجوز

تدعى أم مبشر وأكل فيه ذهب ليصلي في مسجد بني سلمه . وما صلى ركعة واحدة وهو متجه نحو بيت المقدس حتى أنذره الوحي فجأةً فاتجه الى الجنوب ، وأكمل الصلاة وهو يستقبل القبلة الجديدة . وقد علمت ان هذا المسجد لا يخرج عن كونه قبة حقيرة ليس له منارة ولا سور . وهناك أيضاً مسجد بني ظفر ، أو مسجد البغلة ، وقد سُمي بالاسم الأخير لأن حجراً يوجد بالقرب من جهته الجنوبية تلاحظ فيه آثار بغلة النبي التي غرست حافرها فيه حينما وقف النبي (ص) بقربه ومال بذراعه عليها ، وهي البغلة التي أهداها له المقوقس مع مارية القبطية وحمارها يعفور . وتوجد في هذا المسجد قطعة من المرمر كان النبي قد جلس عليها ذات يوم واستمع لتلاوة الذكر الحكيم ، ويقول المؤرخون ان كثيراً من النساء اللواتي جلسن على هذه المرمرة أنعم الله عليهن بالأولاد . ويقع هذا المسجد شرقي البقيع .

وهناك في وادٍ بالقرب من قبا مسجد يسمى مسجد الجمعة ، وهو المسجد الذي صلى فيه النبيّ (ص) ووعظ الناس في أول جمعة بعد هجرته من مكة . ويوجد ايضاً مسجد يسمى مسجد الفضيخ ، وقد سُمي بهذا الاسم لأن أبا أيوب الأنصاري وجماعة آخرين كانوا جالسين في موقعه ذات يوم وفي أيديهم كؤوس الشراب فسمعوا وهم في تلك الحالة بنزول الآية التي تحرم الخمر ، فما كان منهم الا ان أراقوا الشراب في الحال وامتنعوا عنه . وقد صلى النبي في هذا الموضع ستة أيام حينما انشغل في تأديب بني النضير من اليهود . ويطلق على هذا المسجد ايضاً مسجد الشمس لان أشعة الشمس الأولى تشرق عليه في كل يوم . وفي شرقي مسجد الفضيخ يقع ما يسمى بمسجد قريظة ، وهو مسجد شُيد في البقعة التي نزل منها النبي لمهاجمة بني قريظة اليهود . وكان ذلك حينما عاد من موقعة الخندق وهو تعب ، وجلس ليغسل يديه ووجهه ، فظهر له جبرائيل فجأةً على شكل فارس يلبس الدرع وقد علاه الغبار ، وقال له « ان ملائكة الله ما زالوا شاكي السلاح أيها النبي ، وتقضي مشيئة الله ان تعود قدماك الى الركاب ، سأتقدمك لأمهد لك النصر على الكفار بني قريظة » .

وتضيف الأسطورة الى ذلك ان الغبار الذي أثاره الصيف الملائكي شوهد من شوارع المدينة . لكن عيون الناس لم تقع عليه هو نفسه . فأمر النبي بدعوة تباعه الى الحرب . وسلم الراية الى علي وهي علامة العرب في تعيين القائد العام . فقضي على هذه القبيلة المناوئة ، وكان هذا الحكم قد أصدره عليهم سعد بن معاذ شيخ الأوس الذي احتكموا اليه لأن قبيلته كانت حليفة لهم .

وهناك أيضاً مسجد « مشربة أم ابراهيم » ، وهو مشيد في موقع كانت لمارية القبطية فيه حديقة . وهو بناية صغيرة تقع في العوالي شمالي مسجد بني قريظة وبالقرب من الحرة الشرقية . وتقع في شمالي البقيع بناية صغيرة أخرى تدعى مسجد الأجابة ، وسبب هذه التسمية ان النبي وقف ذات يوم ليصلي في هذا المكان الذي كان يعود لطائفة من الأوس تسمى بني معاوية . وقد قرأ دعاءً طويلاً بعد الصلاة ثم التفت الى أصحابه وقال : سألت الله ان يهبني ثلاثاً ، فأنعم علي باثنتين منهما ورفض الثالثة .. اما اللتان استجاب لهما فهما ان لا يهلك المسلمين غرق ولا مجاعة . لكن التي لم يستجب لها فهي ان لا يهلكهم نزاع داخلي .

ويقع في وادي السيح الذي يأتي من اتجاه قبا . على بعد حوالي نصف ميل من شرقي القبلتين ، أربعة مساجد تسمى اعتيادياً بمسجد الفتح . ويُسمى أكبرها ايضاً مسجد الفتح او مسجد الأحزاب اشارةً الى ذكر الاحزاب الوارد في القرآن الكريم ، لأن النبي ظل يصلي في مكان هذا المسجد ثلاثة أيام خلال موقعة الخندق ، او موقعة الأحزاب التي يقال انها كانت آخر موقعة حارب فيها المسلمون قريشاً وهم بقيادة أبي سفيان . وبعد هذه الأيام الثلاثة هبت ريحٌ صرصر باردة يصحبها مطر نصف متجمد فأنزلت بالعدو خسائر فادحة . وبذلك استجاب الله لدعاء الرسول ، ولهذا يعتقد المسلمون المتدينون ان كل أدعاء يتلى في هذا المكان لا بد من ان يستجاب .. ومن جملة ما يؤيد ذلك ان الامام الشافعي كان يتلو الدعاء الخاص بهذا المكان حينما غضب عليه هارون الرشيد فنجا من سخطه . ويختلف فقهاء المسلمين اختلافاً كثيراً في تعيين موقع

البقعة التي وقف فيها الرسول ، لكن معظمهم يقول انها كانت في موقع مسجد الأحزاب هذا هو أشد ارتفاعاً بين المساجد الأربعة . والى غرب هذا المسجد ، وفي نقطة أوطأ منه ، يقع مسجد سلمان الفارسي صاحب فكرة حفر الخندق .. وفي أسفل مسجد سلمان يوجد مسجد علي ، كما ان البناية الصغرى التي تقوم في جنوب الجبل هي مسجد أبي بكر . ويعزى الفضل في تشييد هذه الجوامع الى الوليد الأموي ، وقد رممت مرات عديدة في أيام خلفائه .

وقد شيد مسجد الراية في بداية الأمر الوليد في المكان الذي كان الرسول عليه السلام قد نصب خيمته خلال أيام معركة الخندق . ويسميه البعض أيضاً بمسجد الضباب اي باسم التل الذي يقوم عليه المسجد . ويفصل بين مسجد الراية ومسجد الفتح مرتفع من الأرض يسمى جبل سلع أو جبل الثواب . ويعتبر هذا الموقع موقعاً مهماً لأنه يتسلط على منظر الحرم الذي يبين منه بوضوح . وعلى بعد ما يقرب من ميل ونصف من جنوب شرقي البقيع هناك قبة يطلق عليها « قوة الاسلام » . وكان النبي قد غرس سعفة يابسة هنا فنمت وأزهرت ثم حملت ثمراً يانعاً . يضاف الى ذلك ان النبي استطاع هنا ، حينما لم يكن بوسع المسلمين الحج الى بيت الله الحرام في سنة ما ، أن يظهر للناس منظر الكعبة وعرفات وجميع متطلبات الحج الأخرى . وهنا يقول بورتون : انني يجب ان أنبه قرائي بأن لا يلوموا نبي الاسلام على هذه التلفيقات الصبيانية .

ويقع مسجد عُنين في جنوب قبة الحمزة ، على تل يسمى جبل الرماة ، وهو المكان الذي وقف فيه رماة السهام المسلحون في معركة أحُد . ويذهب البعض الى أن أمير الشهداء أصيب بجرحه المميت في هذا المكان ، بينما يذهب الآخر الى ان هذا الحادث وقع في مكان مسجد العسكر أو مسجد الوادي . ويقول بورتون في حاشية له هنا ان المكان الذي خر فيه الحمزة صريعاً قد شيدت عليه الآن « قبة المصرع » .

وفيما عدا هذه أحصيت اسماء ، أسماء فقط ، اربعين مسجداً آخر ، وها اني أذكر المهمة منها : مسجد بني عبد الأشهل ، مسجد بني حارثة ،

مسجد بني حارم ، مسجد الفش ، مسجد السوقية ، مسجد بني بياضة ، مسجد بني حطمة .

مشاهدات جون كين في المدينة

وفي موسم الحج لسنة ۱۸۷۷ — ۷۸ استطاع رجل انكليزي مغامر يدعى جون كين ان يدخل الحجاز ويحج البيت الحرام في مكة ، ثم يزور المدينة ، بعد ان تظاهر باعتناق الاسلام وتسمى « محمد أمين » او الحاج محمد أمين . بعد ذلك . وقد فعل كل هذا وهو في ركاب أمير هندي مسلم وحاشيته . تعرف عليه في جدة التي نزل فيها الى الحجاز لأول مرة . وحينما عاد الى بلاده كتب ما شاهده ومر به من تجربة في كتاب خاص أسماه « ستة أشهر في الحجاز »[1] .

واول ما يذكره عن الحج في تلك السنة ان عدد الحجاج الذين نزلوا في جدة ذلك الموسم يقدر بـ(٤٢,٧١٨) . وهو ينقل هذا عن تقرير للقنصل البريطاني في جدة نُشر في جريدة التايمز اللندنية ، في عددها الصادر يوم ٢٦ تشرين الثاني ۱۸۷۸ . فقد جاء فيها : يقول القنصل البريطاني في جدة ان موسم سنة ۱۸۷۷ — ۷۸ نزل فيه الى جدة (٤٢,٧١٨) حاجاً ، أي بزيادة (٤٠٠٠) حاج على عددهم في السنة السابقة .. وقد قُدر مجموع الحجاج الذين تجمعوا في مكة يوم العيد الأكبر ما يزيد على (١٨٠.٠٠٠) نسمة .

وقبل ان ينضم الى موكب الأمير الهندي المسلم ذهب المستر كين الى قنصل بريطانية في جدة وأعطاه اسمه وعناوين اصدقائه في انكلترة . ثم أخبره بما عزم عليه . لكن القنصل حاول ان يثنيه عن عزمه وان يخوفه بما يمكن ان يتعرض اليه في الطريق غير الآمنة ، لكنه لم ينثن عن ذلك فباع ملابسه الافرنجية واشترى ملابس عربية ليلبسها . ومن طريف ما يذكره عن مشاهداته

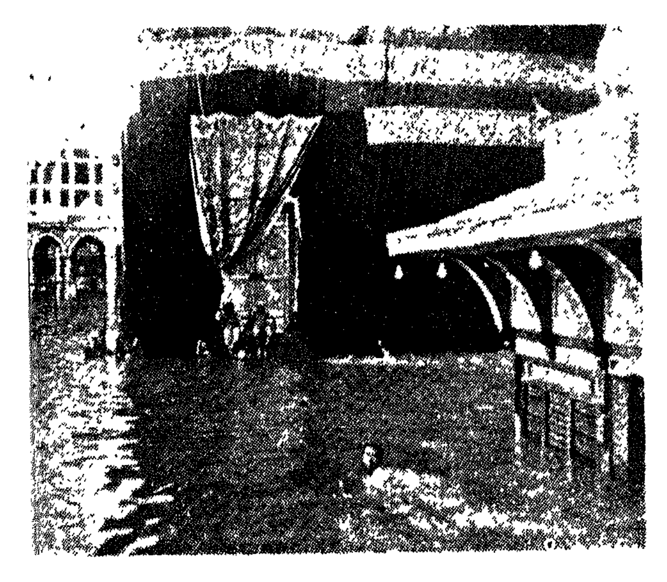
---

(۱) Keane, John F Six Monkhs in the Hejar, An Occount of the Mohammedan Piligrimahges to Meccah d Medinah, OccomPlished by an English. mon Professing ˝Mohammedanism. London 1887

في مكة نفسها يثان : أولهما أنه سمع بوجود امرأة انكليزية تعيش فيها باسم « زهرة بكم » منذ سنين عديدة ، وكانت قد جاءت الى مكة مع زوجها الهندي ، بعد ان اغتصبها في الهند ، فتوفي فيها واضطرت هي للبقاء والعيش في مكة من كدّ يدها . فدبّر (كين) مواجهتها واستطلاع أمرها عدة مرات فكتب قصةً مؤثرة عنها (الص ٣٥ و ١٣٧ و ٣٠٠) . وثانيهما انه شاهد غرق المسجد الحرام في اليوم الثامن الذي أعقب انتهاء الحج ، على أثر زوبعة رعدية قوية وأمطار غزيرة هطلت خلال فترة طويلة فأنزلت المياه كأفواه القرب ، وتسبب عن ذلك سيلٌ عرم اكتسح الطرق ودخل المسجد الحرام ، ثم أحاط بالكعبة المشرفة وتراكم فيها الى عمق سبع أقدام . وقد وصف كين كل هذا وصفاً واضحاً جد الوضوح (الص ١٣٨ – ١٤٣) .

اما المدينة المنورة فقد كتب عنها فصلين موجزين (الثالث عشر والرابع عشر) يستهل الفصل الأول منهما بقوله ان المدينة عندما تشاهد من بعيد أول مرة يمكن ان تقارن باستانبول حينما ينظر اليها من بحر مرمرة ، أو أية مدينة أخرى من المدن الجميلة في العالم . وحينما تلوح للحاج التعب القادم اليها من مكة ، بأسوارها البيضاء الطويلة ، ومنائرها العديدة المطلية بالذهب ، والشمس تشرق عليها في الصباح ، وبنطاق زرعها العريض الأخضر الذي يحيط بها فيحجزها عن جدب الصحراء المخيف المترامي الأطراف ، تبدو كأنها جوهرة متلألئة جديدة محاطة بفسيفساء من اللؤلؤ والأوپال المطعم في حاشية متألقة من الميناء الخضراء اللماعة .. ولذلك يقول كين ان المدينة كان يجب ان تسمى « المحظوظة» ايضاً ، لأنها تحتوي على جميع ما يمكن ان يريده

المسجد الحرام وقد غمره سيل الأمطار حتى صار بحيرة يسبحون فيه



العقل الشرقي ويرتاح اليه من البيوت المنتظمة والحقول النضرة والمياه الجارية وما أشبه . وعلى هذا فحينما أشرفت قافلتهم على المدينة وبانت لهم معالمها من بعيد ضجت القافلة بأجمعها فرحةً مسرورة وابتهل المسافرون بالشكر والدعاء ، وحتى الابل العجماء المسكينة رفعت اعناقها الطويلة المتهدلة الى أعلى وبذلت قصارى ما عندها من جهد لتصل الى النهاية الدانية بأسرع ما يمكن ، وقد وصلت القافلة بعد ان قطعت ميلين ونصف .

ويقول كين عن داخل المدينة انه وجد شوارعها نظيفة منتظمة جداً بالنسبة لما تكون عليه سائر المدن الشرقية . ووجد فيها جواً عاماً من الازدهار والرفاه الذي يلوح على المكان والسكان معاً ، الأمر الذي يعطي انطباعاً حسناً للواصلين الجدد اليها . ثم يقول : وحتى الكلاب الموجودة فيها لم تكن نهمة شرسة مثل كلاب المدن الاسلامية الأخرى .

وقد زار الأمير الهندي الذي كان المستر كين في معيته عددٌ من تجار التمور الذين كانوا يحملون معهم نماذج من هذه الفاكهة . وقال له أحد هؤلاء ان خمسين نوعاً من أنواع التمور تزرع في المدينة ، وأن أحسن أنواعها هو النوع المعروف باسم « الجلبي » ، وهو نوع لا يمكن ان يجود بأحسن التمر الا في المدينة نفسها . وثمرته طويلة جداً ولذيذة ، ولذلك اشترى الأمير نصف طن منه . اما النوع الآخر الذي يليه فهو نوع ثمرته صغيرة ذات فصمة أو نواة متضائلة جداً في الحجم .

ويعود كين الى ذكر المدينة نفسها فيقول انه لا يمكن ان يوجد في أنحاء الشرق كله مدينة صغيرة أكثر ازدهاراً من المدينة المنورة . ويبلغ عدد نفوسها حوالي عشرين ألف نسمة ربما يكون ثلاثة أرباعهم من العرب ، والباقون أتراك ومن جميع الأمم الاسلامية الأخرى تقريباً . وقد شيدت بيوتها من نفس المواد الانشائية التي شيدت بها بيوت مكة ، لكن المدينة لا يرى الزائر فيها بيوتاً مهدمة أو مهملة مثل ما يجد في مكة . وبالحرارة الكافية الموجودة تجود ضواحي المدينة المروية بالمياه الوافية بانتاج أنواع لا حصر لها من الفواكه والخضروات .

فان قائمة ما يمكن ان يشترى يومياً من السوق يمكن ان تحتوي على البصل والثوم والجزر والشوندر والفجل والفاصوليا والخيار والعنب الفاخر . ويكاد ينمو في المدينة جميع ما يمكن ان يتصوره الانسان تقريباً ، علاوةً على الحبوب المعتادة مثل الذرة والحنطة والشعير .

اما الفصل الثاني (الص ٢٢٧) فيفرده المستر كين لوصف الحرم الشريف وما شاهده فيه ، وهو فصل صغير مختصر لا يمكن ان يقارن بفصول الكتب الأخرى عن الموضوع . ولما كنا قد وفينا وصف الحرم حقه فيما انتقيناه من المراجع المار ذكرها فسوف نقتصر هنا على ذكر بعض النبذ الواردة في هذا المرجع .. فهو يذكر مثلاً أن الأروقة المعمدة يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثين قدماً ، ويبلغ عرضها أربعين قدماً . وان سطحها المقبب تحمله ثلاثة صفوف من الأعمدة المدورة ، وان التبليط يتألف من ألواح حجرية كبيرة صقيلة . ويخصص الرواق الغربي للنساء فيصلّين فيه ، ولذلك فهو معزول بمشبك خشبي .

وحينما انضم إلى صفوف المصلين في داخل الحرم جلس في صف بعيد عن المنبر حتى يحين الوقت لصلاة الظهر ، وراح يلاحظ الجالسين من حوله فوجد أن أكثر من نصفهم من الهنود ، أما النصف الباقي فكان من أهل المدينة مع عدد قليل من الأتراك والأيرانيين . وفيما عدا بعض الهنود والعبيد كان الجميع يبدون بمنظر محترم نظيف ، ويفضلون في ذلك على المجتمع الذي شاهده في مكة من قبل .. ومن الغريب أن يقول المستر (كين) أن عرب المدينة يميلون إلى السمرة في سيمائهم أكثر من اخوانهم المكيين بينما يذكر السر ريتشارد بورتون قبله بخمس وثلاثين سنة أن العكس هو الصحيح ، ويقول علاوة على ذلك أن المدنيين أكثر تحفظاً تجاه الأجانب من المكيين وأشد وقاراً . ويخطىء حين يذكر الزهراء (ع) ودفنها في الحرم الشريف فيقول انها كنّة النبي .. ثم ينهي الفصل بالقول ان المدينة تبدو بقدر ثلث مكة في حجمها ، لكن ضواحيها تمتد إلى مسافة ميل أو ميلين من كل جهة خارج السور إلا من جهة الجبل . ويأخذ بوصف السور وكيفية بنائه ،

وبمنزلة المدينة بين المدن المقدسة ، وبأن الصلاة فيها تعادل ألف صلاة تصلى في أي مكان آخر .

سكة حديد الحجاز

ويرد ذكر المدينة بعد هذا مقروناً بمشروع سكة حديد الحجاز التي تربط المدينة بدمشق ، وقد بدأت الدولة العثمانية في أيام السلطان عبد الحميد بالتفكير فيه واخراجه إلى حيز التنفيذ في بداية القرن العشرين ، تنفيذاً لأغراضها السياسية المقنّعة بالأغراض الدينية . وهو مشروع على جانب كبير من الأهمية ، وقد قدر له ان يؤثر تأثيراً كبيراً في تاريخ الحجاز وسائر البلاد العربية لأنه ربط البلاد المقدسة بالعالم الخارجي وأدخل اليها أساليب الحياة الحديثة وأفكارها .

وخير من يصف سكة حديد الحجاز ومنشأها جورج أنطونيوس في كتابه « يقظة العرب » ، وجورج[1] هذا رجل فلسطيني عربي من أم انكليزية اتصل كثيراً بالانكليز وحافظ على شعوره العربي الأصيل فألف مؤلفه الثمين هذا باللغة الانكليزية عن نهضة العرب الحديثة ويقظتهم في هذا العصر .

ويبدأ قوله في هذا الشان بالحديث عن سياسة السلطان عبد الحميد التي كانت تستهدف اجتذاب العالم الأسلامي اليه وتثبيت مركزه بين الدول بواسطته . وقد اعتمد في ذلك على رجال عديدين كان من أبرزهم عزت

---

(١) Antovius, George - The Arab Awakesing, The Story of the Arab Natioual Movement New York. 1939.

وقد ترجم هذا الكتاب ونشره في سنة ١٩٤٦ (مطبعة الترقي في دمشق) الأستاذ علي حيدر الركابي .

باشا العابد الرجل العربي السوري .. فيقول جورج أنطونيوس أن عزت باشا العابد[١] ، وهو عربي سوري ، كان من المغامرين الذين استطاعوا أن ينالوا حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس ، وقد قضى ثلاث عشرة سنة (حتى سقوطه عام ١٩٠٨) في خدمة السلطان بصفة سكرتير ثان . فاستطاع خلالها ان يصبح أقوى موظف في الامبراطورية ، ولا يبزه في الثروة والخبث والنفوذ الا سيّده . ومع ان استانبول كانت في العهد الحميدي تعج بالدهاة فقد كان دهاء عزت باشا خارقاً وطاغياً ، إذ جمع إلى المكر نشاطاً وحركة ولكنه لم يخل في أعماقه من البلادة التي كثيراً ما تختفي وراء فكر جاد . أما ميزته البارزة فكانت في معرفة الصفات البشرية الدنيئة الكامنة في خلق الناس معرفةً صحيحة لا تخطىء . وهذا هو سر نجاحه العجيب لأنه بهذه المقدرة استطاع أن يفهم جبن سيّده وغروره مع ادراك حقيقي للحد الفاصل بين هاتين الصفتين ، واحساس دقيق بمزاج السيد في ظروفه المختلفة . ولكنه في سره كان يحتقر عبد الحميد احتقاراً تاماً فسهل عليه التلاعب بعواطفه . ويعود اهتمامنا بسيرة عزت باشا هنا إلى سببين ، أحدهما عام ، والآخر خاص : أما السبب العام فهو أنه أصبح المحور الذي تدور حوله سياسة عبد الحميد العربية ، والسبب الخاص هو إنشاء سكة حديد الحجاز .

ولدينا ما يشير إلى أن فكرة مد خط سكة حديد إلى الحجاز كانت من بنات أفكار عزت باشا ، وان كان يصعب الجزم بذلك . ومهما يكن من الأمر فقد كان هو الأداة الفعالة الرئيسية في تحقيق المشروع الذي يقضي بمد سكة الحديد من دمشق إلى المدينة فمكة ، وكان الغرض الظاهر منها تسهيل الحج بينما كان السبب الحقيقي يتعلق بعوامل سياسية وعسكرية .

---

(١) الص ٧٣ – ٧٥ في الأصل الإنكليزي ، والص ٧١ – ٧٤ من الترجمة العربية التي ننقل النص هذا منها .

فقد عيّن السلطان لجنة برآسة عزت باشا ووجه نداءً إلى العالم الأسلامي يوضح فيه الدوافع الدينية الحميدة التي استوحى منها الخليفة فكرة مد الخط. ويطلب من المسلمين الاكتتاب لتغطية نفقاته. وقد لاقى النداء قبولاً حسناً، ثم فرضت في الوقت نفسه ضريبة جديدة في جميع أنحاء المملكة تجبى بلصق طابع خاص، وطولب الموظفون العاملون في الحجاز بالتبرع بنسبة معينة من رواتبهم. وبدأ تشييد الخط في ربيع ١٩٠٠ على يد مهندسين ألمـان، وفي خريف عام ١٩٠٨ وصل الخط إلى المدينة. وهي مسافة تناهز التسعماية ميـل. وقد غطت تبرعات العالم الأسلامي ما ينوف على ثلث النفقات البالغ مجموعها ثلاثة ملايين من الجنيهات.

وقد كان هذا المشروع من نواحٍ عديدة لعبة سياسية رائعة، لأنه خلق في جميع أنحاء العالم الأسلامي حماساً كبيراً وعمل أكثر من مشاريع عبد الحميد الأخرى على إعلاء شأن الخلافة، كما أنه من الناحية العسكرية أوجد واسطةً للنقل البري تحمل جنده إلى الجزيرة ومنها، وكانت الحاجة إلى هذه الواسطة ملحة فاستطاع تأمينها من دون أن يثقل خزائنه بعبء كبير. وكان

محطة سكة حديد الحجاز ومسجد العنبرية في المدينة سنة ١٩٣٨



حتى ذلك الوقت مضطراً إلى استعمال طريق البحر المارة بقناة السويس وتحمل بطئها وكثرة تكاليفها . أما الآن فقد غدا صاحب خط حديدي يمتد كله في ضمن مملكته ، فراح يتطلع إلى اليوم الذي يستطيع فيه تمديد الخط جنوباً إلى مكة وربما إلى أبعد من مكة ليثبت قدمه في بلاد اليمن المضطربة .

ومع ذلك ، كان من أكبر النتائج لمدّ سكة حديد الحجاز ، ولعلهـــا نتيجة لم تخطر على بال عبد الحميد في البداية ، أنها بتسهيلها أسباب السفر والانتقال بين مكان وآخر ساعدت على سريان الأفكار في الأجزاء الغربية من بلاد العرب . إذ كانت القوافل السريعة قبل تسيير الخط الحجازي تقطع المسافة ما بين دمشق والمدينة في أربعين يوماً على الأقل ، بينما كان السفر بالبحر من بلاد الشام إلى الحجاز يستغرق عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً ، ويتوقف على وجود المراكب المسافرة أو عدمه . لأن سير الخط لم يكن منتظماً ، فقرّبت سكة الحديد المسافة بين المدينتين حتى جعلتها لا تتجاوز خمسة أيام ، فكان لهذا الاختصار في الطريق كما سيتضح لنا فيما بعد أثرٌ كبير جداً في توجيه الحركة العربية ومصيرها عندما أتتها الفرصة للانفجار في ثورة علنية .

وقد كتب[١] السفير البريطاني لدى الباب العالي في تقريره السنوي لعام ١٩٠٧ ما يأتي : .. يمكننا أن نقرر بأنه بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان في الموقف السياسي العام : الأول هو خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاث مائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الأسلامي ، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة

---

(١) نقلا عن : Gooch & Temperley -- British Documents on the Origins of the War, Vo' V. p, 43.

الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . وبهذا تفتح له أبواب الحياة الأخرى وما تحويه من جنة ونعيم . وقد ترتب على هذه السياسة أنه أصبح حائزاً على خضوع رعاياه له خضوعاً أعمى بشكل لم يسبق له مثيل ، فباتوا بنتيجة هذا الخضوع راضين عن حكمه الاستبدادي الذي قد لا نجد في جميع أدوار التاريخ ما يحاكي شدته . وهكذا أصبحت ارادة السلطان قانوناً في البلاد ، فإذا ما كتب لمسلم بائس أن يئن تحت وطأة الاضطهاد والاستعباد القاسي من جانب الحكومة ، أعلن شكواه من الموظفين من دون ان ينسب للخليفة عمل أي شيء ..

وافتتح هذا الخط الحيوي الذي وصل إلى المدينة افتتاحاً رسمياً في أيلول سنة ١٩٠٨ . وقد رافق هذا الحدث تعيين الشريف (الملك بعد ذلك) حسين بن علي لأمارة مكة وشرافتها الكبرى ، وكان في الثالثة والخمسين من عمره يومذاك ، من قبل الاتحاديين برغم معارضة عبد الحميد في ذلك .

المدينة في الثورة العربية (٩ شعبان)

ويرد ذكر المدينة كثيراً في المراجع الغربية التي تبحث في الثورة العربية التي انطلقت من مكة سنة ١٩١٦ ، أو ثورة ٩ شعبان التي أطلق أول رصاصة فيها ضد الأتراك في الحجاز الحسين بن علي شريف مكة . ويعود السبب في ذلك بطبيعة الحال إلى أن المدينة كانت نهاية سكة حديد الحجاز ، ومركز تجمع القوات التركية بعد مكة ، بحيث أصبحت هدفاً للثورة مدة طويلة من الزمن ومداد خططها حتى انتهت بوصول الثوار إلى دمشق الشام في النهاية.

ويعلم الجميع أن هذه الثورة اشتهر فيها عدد غير يسير من ضباط الانكليز ، الذين ساعدوا الثورة ، ورجال استخباراتهم من أمثال ماكماهون ولورنس ، وستورز ، وويلسن ، ويونغ ، رهوغارث ، وغيرهم كثيرون . لكن الذي اشتهر منهم على الأخص تي أي لورنس الذي صار يعرف باسم لورنس

العرب أو لورنس بلاد العرب[1] . وعلى هذا فقد كتب هؤلاء عن هـذه الثورة ، وذكر الثورة جميع من كتب عن لورنس من الكتاب والصحفيين ، ومن السياسيين والمؤرخين . وكانت هذه الكتابات في معظم اللغات العربية ، وفي الانكليزية والفرنسية على الأخص .

لكن أبرز كتاب انكليزي كتب واشتهر في هذا الشأن هو كتاب « أعمدة الحكمة السبعة[2] » الذي كتبه لورنس نفسه وضمنه جميع ما عنّ له عن الثورة العربية ووقع له فيها . وهو كتاب ضخم يقع في مائة واثنين وعشرين فصلاً ، لكنه كان قد لخصه ونشره بمقياس واسع في كتاب يسمى « ثورة في الصحراء[3] » ، قبل ان يطبعه في الأصل .

ويبدأ لورنس في الفصل الخامس من أعمدة الحكمة السبعة (الص ٤٩) بتحليل مقدمات الثورة العربية التي بدأ الحسين بن علي يعد العدة لها منذ سنة ١٩١٥ على ما يبدو . فهو يقول : « ان نشوب الحرب قد أحدث اضطراباً في حالة الحجاز . فقد انقطع توارد الحجاج عليه فانقطعت بذلك واردات المدينتين المقدستين ، وتوقفت الحركة التجارية فيهما . وكان هناك خوف له ما يبرره ، من أن المراكب الهندية التي تحمل الأطعمة إلى الحجاج سينقطع مجيئها اليه نظراً لأن الشريف قد أصبح من رعايا العدو . ولما كان القطر كله لا ينتج الأطعمة التي يأكلها في العادة فسيعتمد اعتماداً مخطراً على ما يضمره الأتراك تجاهه ، وهؤلاء يمكن ان يجيعوه بتوقيف سير القطارات اليه . وبذلك لم يجد الحسين نفسه مثل ما وجدها في تلك الأيام مطلقاً ، فقد

---

(١) Lawrence of Arabia.

(٢) Lowrence, T. E -- Seven Pillars of Wisdon, A Triumph, London 1935.

(٣) Lowrence. T, E -- Revolt in the Desert. London 1926.

أصبح تحت رحمة الأتراك بالكلية . لكنهم في هذه اللحظة البغيضة كانوا يحتاجون احتياجاً خاصاً لوقوفه إلى جانبهم في « الجهاد » ضد العالم المسيحي .

« ولأجل ان يكون هذا الجهاد مؤثراً في كل مكان يجب ان يقترن بمصادقة مكة المكرمة عليه ، وإذا ما تم ذلك فقد يزج الشرق كله في بحور من الدم . وكان الحسين شريفاً حاذقاً ، وعنيداً شديد التدين . فقد كان يعتقد أن الحرب المقدسة لا يمكن أن تتفق شرعياً مع الحرب الاعتدائية ، وشيئاً سخيفاً إذا كانت تشن مع حليف نصراني هو المانية . ولذلك رفض طلب الأتراك ، وقدم في الوقت نفسه استغاثة مبجلة إلى الحلفاء طالباً فيها عـــدم تجويع بلاده بسبب الحرب التي لم يكن لقومه ناقة فيها ولا جمل . فرد الأتراك على ذلك في الحال بفرض حصار جزئي على الحجاز بالسيطرة على

لورنس في زي البدو وهو بجانب جمله في الصحراء



سكة حديد الحجاج. لكن البريطانيين تركوا سواحله مفتوحة لسفن الطعام ونُظّم تواردها تنظيماً خاصاً.

« على أن الحسين لم يتسلم طلب الأتراك وحده. فقد بعث اليه في كانون الثاني ١٩١٥ ياسين (الهاشمي) رئيس الضباط العراقيين، وعلي رضا (الركابي) رئيس الضباط السوريين، وعبد الغني العريسي عن المدنيين السوريين، خطة مرسومة للقيام بتمرد عسكري كبير في سورية ضد الأتراك. وقد خاطبه أهل العراق وسورية المضطهدون ولجان « العهد » و « الفتاة » في هذا الطلب بـ (أبي العرب)، وزعيم المسلمين، وأميرهم الأكبر، وناشدوه بأن ينقذهم من خطط طلعت وجمال الشريرة.

« وقد اضطر الحسين بصفته سياسياً، وأميراً، ومسلماً، وعصرياً مجدداً، ووطنياً مخلصاً، إلى أن يستمع لاستغاثتهم به. فأوفد فيصلاً، ابنه الثالث، إلى دمشق ليبحث مع الضباط العرب مشاريعهم في هذا الأمر بالنيابة عنه، ويقدم تقريراً بما يتوصل اليه. ثم انتدب ابنه الأكبر علياً إلى المدينة ليجند الجنود بهدوء من قرويي الحجاز وابناء عشائره، متذرعاً بأية حجة يراها مناسبة، وليكون على أهبة الاستعداد للعمل إذا ما تطلبت مهمة فيصل ذلك. أما عبد الله ابنه الثاني اللبق، فقد كُلف بجس نبض البريطانيين عن طريق المخابرة، ومعرفة الموقف الذي سيتخذونه فيما لو ثار العرب ضد الأتراك.

« وفي كانون الأول ١٩١٥ أخبر فيصل والده بأن الأحوال المحلية كانت موآتية للعمل، لكن شؤون الحرب العامة لم تكن تسير بموجب ما كانوا يريدون ويأملون. فقد كانت في دمشق ثلاث فرق من الجنود العرب المستعدين للثورة، وكانت في حلب فرقتان أخريان تفشت بين جنودهما فكرة القومية العربية بحيث كان من المؤكد أن ينضموا إلى الثورة فيما لو بدأ بها الآخرون. وكانت هناك فرقة تركية واحدة فقط في هذا الجانب من طوروس، ولذلك كان من الأكيد أن يستولي الثوار على سورية في أول

جهد يبذلونه . لكن الرأي العام من جهة أخرى كان أقل استعداداً للأقدام على اتخاذ تدابير متطرفة ، وكانت طبقة العسكريين واثقة من أن المانية سوف تربح الحرب في القريب العاجل .

« ثم أعقب ذلك حصول تأخيرات في الخطة ، لأن الحلفاء هاجموا الدردنيل بدلاً من مهاجمـــة الاسكندرون . فذهب فيصل إلى استانبول للحصول على أوثق المعلومات عن الأحوال في جبهة غاليبولي ، لأن اندحار تركية فيها سيكون بمثابة اشارة للعرب بالحركة . وحينما تبين لفيصل أن خسائر الأتراك كانت جسيمة هناك عاد إلى سورية وفي نيته أن يبدأ بالعمل ، لكنه وجد أن الأحوال المحلية قد أصبحت غير ملائمة .

فقد ألفى مؤازرية فيها بين موقوف أو مختف ، وأن أصدقاءهم كانوا يعلقون على المشانق بالعشرات بتهم سياسية مختلفة . كما وجد أن الفرق العربية التي كانت مهيأة للثورة قد سيقت إلى جبهات بعيدة ، أو جزئت إلى أجزاء وزعت كلها على الوحدات التركية في كل مكان . يضاف إلى

جمال باشا (السفاح) الفريق في الجيش التركي يحيط به ضباط المان سنة ١٩١٧ مؤشراً اليه بالعلامة :



ذلك أنه وجد ان الفلاحين العرب قد جندوا للخدمة العسكرية بحيث وقعت سورية مستلقية تحت رحمة جمال باشا السفاح .

« وعلى هذا الأساس كتب فيصل إلى أبيه يشير عليه بتأجيل الأمر إلى فرصة أخرى أي إلى الحين الذي تكون فيه انكلترة مستعدة للمساعدة وتركية قد دخلت في مأزق حرج . لكن المؤسف أن انكلترة كانت في وضع مزرٍ ، لأن قواتها أخذت تتقهقر مضعضعة في الدردنيل . وكانت نكبة الكوت المتطاولة في آخر دور من أدوارها ، كما كانت ثورة السنوسي التي نشبت في وقت دخول بلغارية إلى الحرب تهدد أجنحتها (أي أجنحة انكلترة) .

ولذلك تأزم موقف فيصل إلى أقصى الحدود ، لأنه أصبح تحت رحمة أعضاء الجمعية السرية التي كان يرأسها قبل الحرب . فقد كان مضطراً إلى العيش في ضيافة جمال باشا بدمشق ، فاستهدف بذلك زيادة الأطلاع على الوضع العسكري وتظاهر بأن أخاه علياً أخذ يجند الجنود في المدينة بحجة قيادة وحداتهم التي سيقودها مع أخيه في الزحف على قناة السويس مع الجيش التركي . ولما كان فيصل عثمانياً مخلصاً وضابطاً في خدمة الجيش التركي كان لا بد من ان يعيش في المقر العام ، ويتحمل بصبرٍ وأناة ما كان يصبه جمال المستأسد في كؤوسه من ضروب التحقير والأهانة لقومه العرب .

« فقد كان جمال يدعو فيصلاً ويأخذه معه إلى حيث كان يشنق أصدقاؤه السوريون . ولم يتجرأ ضحايا العدالة هؤلاء على المجاهرة بمعرفة آمال فيصل وأمانيه الحقيقية ، بأكثر من عدم تجروءه هو على الأعراب عما كان في فكره بالكلام أو النظر ، لأن الكشف عن ذلك كان سيدين أسرته وربما بني قومه كلهم فيؤدي بهم إلى نفس المصير . لكنه انفجر مرة واحدة فقط وقال لجمال بأن أحكام الأعدام هذه ستكلفه جميع ما كان يحاول تحاشيه وتجنبه ، فتطلب ذلك تدخل أصدقائه ، من رجال تركية الموجودين في استانبول ، وتشفعهم في إنقاذه من جريرة هذه الكلمات المنطوية على التسرع .

« وقد كانت مراسلات فيصل لأبيه في تلك الظروف مجازفة بحد ذاتها . فقد كان يراسله بواسطة أتباع أسرته وحفدتها القدماء ممن كانوا فوق الشبهات ، وكان هؤلاء يذهبون ويعودون في قطار الحجاز وهم يحملون الرسائل في أغماد السيوف ، أو في داخل قطع « الكيك » ، أو مخاطة في أنعل الأحذية ، أو بكتابات غير منظورة على أوراق تلف بها رزم لا خطر فيها . وفي جميع هذه الرسائل كان فيصل يذكر أشياء غير سارة ، ويسترحم من والده تأجيل العمل في أي شيء كان إلى الوقت المناسب .

« على أن الحسين لم يكن يتأثر بمثبطات الأمير فيصل ولو بمقدار ذرة ، لأن الاتحاديين الأتراك كانوا في نظره شرذمة من الأتراك الملاحدة الخارجين على الدين والأنسانية ، الخونة لروحية العصر ومصالح الاسلام العليا . ومع أنه كان رجلاً كبيراً تجاوز الخامسة والستين من عمره ، فقد كان عازماً على إعلان الحرب عليهم برحابة صدر واعتماده الوحيد في ذلك على عدالة قضيته . وقد كانت ثقة الحسين بالله عظيمة بحيث ترك حسه العسكري بائراً غير مستغل ، وظن أن الحجاز يستطيع الوقوف ضد تركية في الحرب على قدم المساواة . ولذلك أنفذ عبد القادر العبدو يحمل رسالة إلى فيصل يقول فيها ان كل شيء كان جاهزاً ليقوم هو بتفتيشه في المدينة قبل أن يبدأ بالزحف إلى الجبهة . فأخبر فيصل جمالاً بالأمر ، وطلب ترخيصه للذهاب إلى المدينة ، غير أنه فوجىء بما أفزعه حينما رد عليه جمال يقول ان القائد العام ، أنور باشا ، كان في طريقه إلى هناك أيضاً فانهم سيزورون المدينة سوية فيفتشون الجيش فيها . وكان فيصل قد رتب أن يرفع علم والده القرمزي حالما يصل إلى المدينة ، ويباغت الأتراك على غفلة منهم ، بينما اضطر الآن إلى أن يرافق ضيفين ثقيلين يحتم واجب الضيافة العربية المحافظة عليهما وعدم مسهما بسوء ، وقد يؤدي ذلك إلى تأخير ما كان ينوي الأقدام عليه بحيث تتعرض أسرار الثورة كلها إلى الخطر بسببه .

« على أن الأزمة انتهت بسلام بعد ذلك ، برغم ان سخرية الاستعراض

كانت شيئاً مزعجاً . فقد وقف أنور وجمال وفيصل يستعرضون القطعات وهي تسير وتنعطف ثم تدور في السهل المغبر خارج باب المدينة ، ويغير بعضها على بعض صعداً ونزلاً كما يفعلون في حربهم على الأبل ، أو يهاجمون بخيولهم في لعبة الرمح والجريد طبقاً لتقاليدهم العربية الخالدة . وأخيراً توجه أنور إلى فيصل يسأله بقوله : هل تطوع هؤلاء كلهم للجهاد ؟



فخري پاشا قائد حامية المدينة

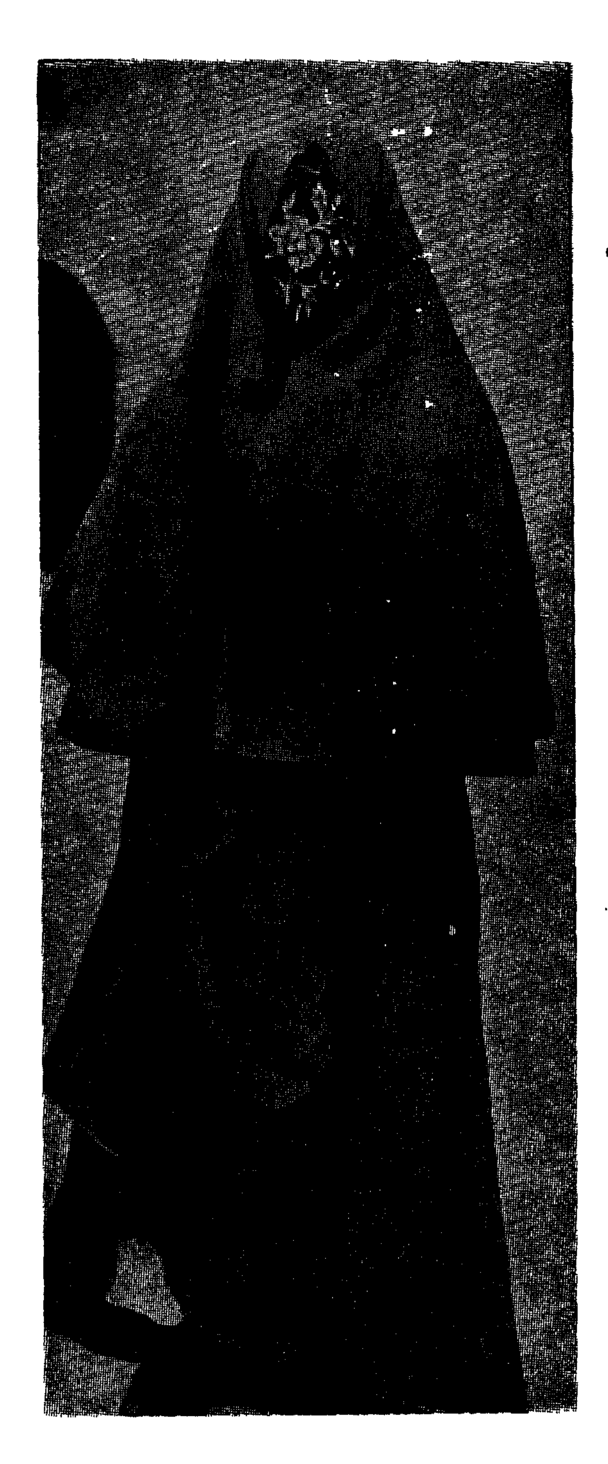
فأجابه فيصل بالأيجاب . ثم سأله من جديد : وهل عزم هؤلاء على القتال حتى الموت ضد أعداء المسلمين ؟ فرد فيصل بالأيجاب مرة ثانية . وقد جاء الرؤساء بعد ذلك ليسلموا على القائد العام بعد ان يتم تقديمهم له . فتنحى الشريف علي بن حسين ، من مذحج ، بفيصل جانباً وهمس في أذنه يقول : هل يأذن سيدي بقتلهم الآن ؟ لكن فيصلاً رد عليه يقول : كلا انهم ضيوفنا .

« واحتج الرؤساء مرة أخرى على هذا الرفض . لأنهم كانوا يعتقدون أنهم يمكنهم ان ينهوا الحرب بضربتين حاسمتين . وقد كانوا عازمين على اجبار فيصل على ما يريدون ، ولذلك اضطر أن يذهب اليهم ثانية على مرأى من الواقفين ويتوسل لأنقاذ حياة

الديكتاتورين التركيين ، اللذين كانا قد علقا خيرة أصدقائه وأخلصهم على أعواد المشانق . واضطر في الأخير الى ان ينتحل الأعـــذار المناسبة ويعود بالضيفين إلى داخل المدينة ، ويملأ قاعة الاستقبال فيها بعبيده ورجاله ، ثم يرافقهما في العودة إلى دمشق لينقذهما من الموت في الطريق اليها . وقد فسّر هذه المجاملات المنهكة بأن شهامة العرب تقضي بـــان يكرس كل شيء الى ضيوفه. ولما كان أنور وجمال على جانب كبير من الشك والريبة مما شاهداه ، فقد فرضا حصاراً شديداً على الحجاز ، وأمرا بسوق امدادات قوية آليه . وقد أراد جمال ان يحتفظ بفيصل عنده في دمشق ، لكن البرقيات صارت تصل تترى من المدينة تطلب حضوره العاجل للحيلولة دون وقوع الفوضى والاضطراب ، فسمح له جمال بالعودة إلى المدينة وهو مكره بشرط أن يبقي رجال حاشيته رهائن عنده .

« وقد وجد فيصل أن المدينة أصبحت ملأى بالجنود الأتراك ، وبضباط مقر الفيلق الثاني عشر وعلى رأسهم فخري پاشا ، الجزار القديم الشجاع الذي طهرّ (زيتون) و(أورفه) تطهيراً دموياً من الأرمن . ومن الواضح أن الأتراك كانوا قد أشعروا بما كان يدبر لهم في الخفاء . فأصبح أمل فيصل بتدبير هجوم مفاجىء ، والحصول على نجاح من دون ان ترمى أية رمية تقريباً ، شيئاً غير ممكن . على ان الأمر قد تأخر بحيث لم تعد معالجته بالفطنة وحدها شيئاً ممكناً . فبعد أربعة أيام فرت حاشية فيصل من دمشق على ظهور الخيل والتجأت إلى نوري الشعلان شيخ الرولة في البادية ، وشمـّر فيصل عن ساعده للعمل في اليوم نفسه . وحينما رفع رايته العربية انتقلت الدولة الأسلامية الكبرى ، التي اشتغل من أجلها عبد الحميد وذبح الناس ومات ، وأمـّل الألمان في تعاون الأسلام على تنفيذ خطط القيصر العالمية ، إلى عالم الأحلام . فقد أنهى الشريف بمجرد اعلانه الثورة هذين الفصلين الوهميين من فصول التاريخ » . انتهى

وكانت خطط الثورة في بادىء أمرها تتركز حول مهاجمة المدينة ،



وتطهيرها من الأتراك ، لأنها أصبحت مقرهم الوحيد في الحجاز ومركز تجمعهم وقد أعد الشريف وأنجاله جميع ما كان عندهم من امكانيات لذلك، لكنهم لم يحرزوا شيئاً من النجاح في هذا الشأن . ويقول لورنس في هذه المناسبة (الص ٩٣ ، الفصل ١٣) :

« وقد كان أول هجوم شنه الثوار على المدينة عملاً من الأعمال اليائسة ، لأن العرب كانوا مسلحين تسليحاً سقيماً وتنقصهم الذخيرة والعتاد بينما

لورنس متنكر بملابس غجرية من غجريات سوريا وكثيراً ما كان يتسلل إلى المناطق التركية بهذا الزي

كانت قوة الأتراك فيها عظيمة لأن مفرزة فخري باشا كانت قد وصلت حديثاً .. وفي أوج الأزمة تخاذل بنو علي فأخرج العرب إلى الخارج فيما وراء السور ، وعند ذاك أصلاهم الأتراك بوابل من نيران مدفعيتهم الحامية فأثّر هذا تأثيراً مرعباً فيهم . فقد التجأ العقيل وعتيبة إلى مكان آمن ورفضوا التحرك من جديد ، وعبثاً حاول فيصل وعلي المذحجي الركوب أمامهم من دون خوف ليبرهنا لهم أن القذائف المتفجرة لم تكن شيئاً مميتاً كما قد يفهم من أصواتها المدوية . ثم ازداد الذعر وضعفت العزائم .

« يضاف إلى ذلك ان فريقاً من بني علي اتصلوا بالقيادة التركية ، وعرضوا عليها الاستسلام إذا وعدوا بسلامة قراهم . فاحتال فخري عليهم ، وفي خلال ما أعقب ذلك من توقف في المناوشات طوق ضاحية العوالي بجنوده . ثم أمرهم فجأةً بمهاجمتها والاستيلاء عليها بالقوة ، وبقتل كل حي يوجد فيها . فذبح مئات من السكان واغتصبوا ، وتلا ذلك إضرام النار في البيوت فاحترق فيها الأموات والأحياء سويةً » .

ويقول لورنس ان مثل هذه المعاملة القاسية ، وهذا الفتك، قد هز أنحاء الجزيرة العربية كلها لأنه جاء مخالفاً لجميع القواعد والأعراف .. ولم يعد من الممكن للعرب أن يخضعوا ثانيةً للأتراك الذين كان ما اقترفوه في العوالي قد ولـّد روحية الثأر عند الجميع . ولذلك : تراجعوا من السهل المنبسط القريب من المدينة إلى الجبال القائمة في عبر الطريق السلطاني حوالي عـاد والراحة، وبير عباس . وهناك أخلدوا قليلاً إلى الراحة حتى يتمكن علي وفيصل من تدبير السلاح والمال والأطعمة لشن حملة جديدة ..

وبعد وصول الامدادات والمساعدات التي قدمتها بريطانية للثوار صاروا يحاصرون المدينة بالتدريج ، وكان الأمير عبد الله مكلفاً بشيء غير يسير من هذه العملية . ومما يقوله لورنس في هذا الشأن[1] : « وأخيراً فقد غادر الشريف

(١) أعمدة الحكمة السبعة الص ١١٥ .

عبد الله مكة . وبعد اسبوعين تركز في المكان الذي كان يقصد ان يخيم فيه أي في شمال شرقي المدينة ، حيث يكون قادراً على قطع طريق التجهيزات التي ترد اليها من القصيم والكويت . فقد كان تحت تصرفه أربعة آلاف رجل ، لكنه لم تكن عنده معهم سوى ثلاثة مدافع رشاشة وعشرة مدافع جبلية غير جيدة كان الشريف قد استولى عليها عند استسلام الأتراك في الطائف ومكة ، ولم يكن على درجة كافية من القوة لتنفيذ خطته الأخرى بالهجوم المشترك على المدينة مع علي وفيصل . فكان بوسعه فقط ان يحاصرها ، ومن أجل هذا أقام في الحناكية وهي مكان صحراوي على بعد ثمانية أميال من شمال شرقي المدينة » .

ويذكر لورنس في هذه المناسبة قصة أشرف[1] المغامر التركي الذي قبض عليه رجال الشريف عبد الله بالقرب من المدينة ، وهو مكلف منها بالتوجه إلى اليمن في مهمة حربية خاصة . وكان أشرف هذا مغامراً تركياً من أهالي ازمير في الأصل ، وقد ثار مرةً على الدولة فقبض عليه في أيام السلطان عبد الحميد ونُفي إلى المدينة المنورة لمدة خمس سنوات . وظل محجوزاً فيها حتى استطاع ان يفر من سجنه ويلتجىء إلى شهد أمير العوالي المناوىء للأتراك يومذاك فآواه . ثم تمكن في يومٍ من الأيام أن يأتي الى المدينة فجأةً على فرسٍ عربية أصيلة ، ويدخل إلى ثكنتها فيخطف منها ضابطاً شاباً كان يدرب جنوده فيها ،وهو ابن خصمه حاكم المدينة ، ويعتصم به في منطقة جبل أحُدٍ . ولأجل ان يستعيد حاكم المدينة ابنه المخطوف ، وينقذه من براثن هذا الوحش الضاري ، اضطر إلى تحريره من الحجز ووعده بعدم التعرض له ثم دفع له خمس مائة باون . وعند ذاك اشترى له عدداً من الأبل وبعض الخيام ، وتزوج زوجةً من بنات المدينة ، ثم أخذ يتجول بين العشائر حتى نشبت ثورة الشبان الأتراك في استانبول . فتوجه اليها ، وأصبح هناك

---

(١) المرجع السابق الص ١٥٥ .

من رجال أنور باشا . وحينما أُعلنت الحرب العامة الأولى أوفد إلى المدينة ، وجهز بالأموال والرسائل اللازمة من السلطان ليتصل بأمراء العرب والحامية التركية التي اصبحت معزولة في اليمن . وقد صادف خلال المرحلة الأولى من رحلته إلى اليمن أن مر بالمنطقة التي كان يخيم فيها الشريف عبد الله في وادي العيص بالقرب من خيبر ، فأُلقي القبض عليه بعد معركة حامية وقع جريحاً فيها ، وجاء به الشريف فوزان الحارث إلى عبد الله فوجدت معه أشياء كثيرة منها عملة بمبلغ عشرين ألف باون ، وعدد من الخلع الثمينة ، والهدايا النفسية ، وبعض المستندات والأوراق المهمة ، مع عدة أحمال من البنادق والمسدسات ..

وهنا يصف لورنس الجبهة العربية يومذاك بكلمات موجزة تشير إلى ان الأتراك صاروا يتخذون وضعاً دفاعياً في المدينة ، حينما كان القائد الانكليزي موري يضغط في جهات سينا ، وفيصل يرابط في الوجه ، وعبد الله يخيم بين الوجه والمدينة .

ويستفاد من تسلسل الحوادث في فصول أعمدة الحكمة السبعة بعد ذلك أن لورنس بدأ يعتقد بضرورة إبقاء فخري باشا ، مع قواته التركية التي يبلغ عددها خمسة وعشرين ألف مقاتل ، في المدينة وضرب طوق من الحصار حولها لئلا يستفيد منها الأتراك في جبهات أخرى . وهذا ما كان يريده الكولونيل الفرنسي بريمون كذلك ، وهو رئيس البعثة الفرنسية التي جاءت إلى الحجاز لتشارك في مساعدة العرب مساعدة اسمية أو رمزية على الأقل . وكانت وجهة نظر بريمون في هذا الشأن إلهاء العرب بمحاصرة فخري باشا في المدينة وعدم السير إلى الشام وتكوين حكومة عربية فيها ، كما تم بعد ذلك ، لأن فرنسة كانت تطمع في سورية منذ ذلك الوقت بطبيعة الحال ، وكانت سورية من حصتها في المقاسمة السرية التي أُجريت بين انكلترة وفرنسة بموجب اتفاقية سايكس — بيكو .

لكن الأتراك على ما يبدو قد أدركوا وضعهم الميئوس منه في المدينة ،

وفائدة خصومهم منه ، فأوعزوا إلى قائدهم في المدينة بأخلائها . ويقول لورنس[١] في هذا الشأن : « وقد جاءني ماكروري بنسخة من تعليمات برقية صادرة من جمال باشا إلى فخري باشا في المدينة ، وكانت هذه التعليمات قد صدرت في بادىء الأمر من أنور باشا وهيأة أركان الحرب الألمانية في استانبول ، وهي تقضي بأخلاء المدينة وتركها في الحال ، وإخراج الجيش منها بمسيرات برية عدة تسير إلى هدية أولاً ، ثم إلى العلا ، وإلى تبوك ، وأخيراً إلى معان حيث تحفر الخنادق ويتخذ موضع قوي فيها متصل بخطوط سكة الحديد . وكانت هذه الحركة تعد شيئاً مناسباً للعرب ، لكن جيشنا في مصر اضطرب للخبر وأزعجته فكرة نزول خمسة وعشرين ألف جندي أناضولي مع مدفعيتهم غير الاعتيادية على جبهة بئر السبع بصورة مفاجئة . ولذلك أخبرني كلايتون بكتابه بان أعير هذه التطورات أهمية فائقة ، وأن أبذل كل جهد للاستيلاء على المدينة ، أو القضاء على الحامية عندما تخرج منها . وكان نيوكومب منشغلاً بتخريب خطوط السكة تخريباً شديداً ، ولذلك وقعت المهمة على عاتقي . وقد شعرت بأني لا استطيع عمل شيء كثير في هذا الشأن ، لأن البرقية جاءت متأخرة وقد أزف وقت إخلاء المدينة المشار اليه .. »

وحينما نشط لورنس للعمل على تنفيذ الأوامر التي تسلمها ذهب إلى الشريف عبد الله في وادي العيص للوقوف على أسباب عدم قيامه بأية حركة خلال الشهرين الأخيرين ، ولأقناعه بمهاجمتهم حالما يخرجون من المدينة ، لكن الأتراك لم يستطيعوا تنفيذ الأوامر التي صدرت لهم ولم يستطع الثوار العرب الاستيلاء على المدينة والقضاء على الحامية التركية فيها لأسباب كثيرة لا مجال لشرحها هنا . ولذلك تأكدت فكرة محاصرتهم والابقاء على قوتهم مجمدة في داخل المدينة المقدسة . وهاك ما يورده لورنس (الص ٢٢٥ و

---

(١) المرجع السابق الص ١٧٧ .

٣٨٠) في هذا الشأن : « .. فيجب علينا ان لا نأخذ المدينة ، فقد كان الأتراك غير مضرين لنا فيها ، لكننا في مصر سوف نضطر إلى اطعامهم وحراستهم لو وقعوا أسرى في أيدينا . وكان الشيء المثالي لنا ان نبقي سكة الحديد عاملة بالكاد .. وعلى هذا الأساس ظل الثوار العرب مع لورنس في جبهة المدينة وسكة الحديد الموصلة لها يدمرون القطارات وينسفون الكثيرين من جسورها وأجزائها على طول الخط ، إلى ان وصلوا الى خطوطها المارة في منطقة الأردن حين استولوا بالتمام على ثمانين ميلاً منها تقع ما بين معان والمدورة ، وبذلك انتهى أمر الدفاع الفعال عن المدينة بهذه العملية على ما يقول لورنس . وبقيت القوة التركية محاصرة في المدينة إلى ما بعد اندحار تركية ، وإلى ان وضعت الحرب أوزارها . لكن الغريب في الأمر ان المنتمين إلى المدرسة القديمة من القادة الأتراك ، على ما يقول لورنس ، كانوا (الص ٤٦٠) يعيرون المدينة أهمية كبرى ويعتبرونها آخر أثر من آثار سيطرتهم على البلاد المقدسة ، وحجة حية للتمسك بالخلافة . ولذلك دفعت بهم هذه العاطفة إلى اتخاذ قرار مخالف لمقتضيات الحالة العسكرية فيها .

أما مصير فخري باشا ، والقوة التي بقيت محاصرة معه في المدينة ، فيقول الصحفي الأمريكي ليدل هارت[1] في كتابه المشهور عن لورنس (الص ٣٧٥) أن حامية المدينة هذه لم تستسلم إلا في كانون الثاني ١٩١٩ . ولم يكن حتى الاستسلام من رأي فخري باشا نفسه ، لكن ضباطه الذين أخذ منهم الجوع مأخذه اغتنموا فرصة مرضه فاستسلموا للعرب وسلموا قائدهم المريض اليهم كذلك ، وكانت روحية هذا القائد العسكرية قد أدت به الى ان يتمسك بالمدينة تمسكاً عنيداً أسهم به في خسارة بلاده إلى حد كبير . ونذكر بالمناسبة أن المستر ليدل هارت يأتي في كتابه هذا على جميع

---

(١) Hart, Liddell - T. E. Lawrence in Arabia & After (golmalban Cape . London 1948).

ما نقلناه عن لورنس ويؤيده ، ويضيف إلى ذلك قوله ان خط سكة الحجاز ما بين معان والمدينة يبلغ خمس مائة ميل في طوله ، وان هذه المسافة تقسم إلى ثلاثة قطاعات متساوية تقريباً ، وهي قطاع معان ، وقطاع تبوك مدائن صالح ، وقطاع مدائن صالح المدينة .

الشريف علي حيدر في المدينة

كان الشريف علي حيدر ، حفيد الأمير عبد المطلب ، من شرفاء مكة المنتمين إلى ذوي زيد ، وقد جيء به إلى استانبول في أيام السلطان عبد الحميد وهو حدث صغير في السابعة من عمره ليكون رهينة عند الدولة العثمانية عن سلوك جده الحسن تجاهها . وقد نشأ نشأة ارستقراطية في العاصمة التركية وترعرع فيها ، وتعين في شبابه عضواً في مجلس المبعوثان ثم تسنم عدة وظائف مرموقة في الدولة . فأصبح وزيراً للأوقاف ونائباً للرئيس في المجلس المذكور كذلك . وكان خلال إقامته هناك قد تزوج بالمس يزابيل دن Isabel Dunn ابنة الكولونيل دن خبير الأسلحة الانكليزي الذي ظلت تستعين به الحكومة التركية عدة سنوات ، بعد أن أسلمت على يده وصارت تسمى فاطمة . فأنجب عدة أولاد منها ، ومنهم الشريف محيي الدين والشريف محمد أمين ، والشريفة مصباح . وقد تثقف هؤلاء ثقافة عالية فيما بعد ، واستطاعت الشريفة مصباح ان تكتب كتاباً[١] بالانكليزية تسرد فيه نشوء أسرتها في استانبول وقصة والدها وأحقيته بشرافة مكة باعتباره من ذوي زيد ، وتتحامل فيه على الملك حسين باعتباره من ذوي عون الرفيق وثورته على الأتراك . ومن كتابها هذا استقينا هذه المعلومات .

وحينما ثار الحسين بن علي في مكة على الأتراك في ١٩١٦ ، رد عليه الأتراك بأعلان عزله عن الشرافة الكبرى في مكة المكرمة وتنصيب الشريف

---

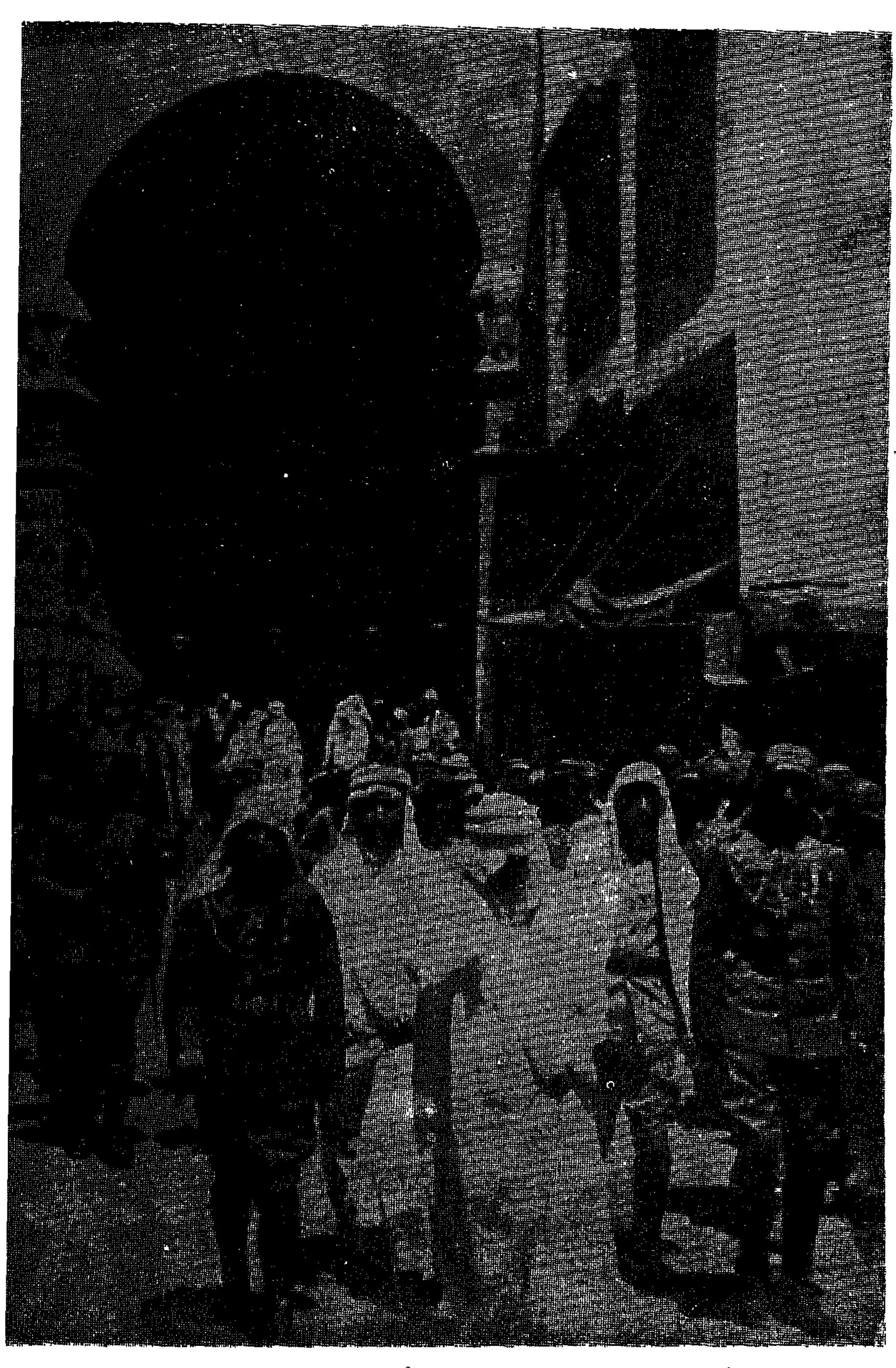
(١) Princess Musbah Haidar - Arabesgue (Hutcliuson & Co. London 1944),

علي حيدر هذا في مكانه . واتخذت التدابير اللازمة لتسفيره إلى المدينة المنورة وتسلم منصبه فيها ، على أن يعمل بالاشتراك مع القوات التركية الموجودة فيها على استرداد مكة وسائر أجزاء الحجاز بعد القضاء على الثورة العربية فيه . فترك استانبول في يوم ١٩ حزيران ١٩١٦ متوجهاً إلى الشام ، ومن هناك توجه إلى المدينة بالقطار في أول آب ١٩١٦ .

وتقول الشريفة مصباح في الفصل الرابع عشر من كتابها (الص ٩) عن مرور أبيها الشام أن جمال باشا القائد العام فيها قد ساءه تقاطر العرب وتواردهم للسلام علي الشريف حيدر . وكان من بين الذين فعلوا ذلك نوري الشعلان شيخ مشايخ الدولة الذي أهدى له الشريف حيدر ساعة ذهب ، وكان يتقاضى يومذاك مخصصات محترمة من الحكومة العثمانية لقاء ولائه لها . وتقول كذلك :

.. ومع أن القائد العام قد بذل جهداً في إخفاء شعوره الشخصي تجاه الشريف ، فقد كان من الواضح عند أول التقاء الشريف الأكبر به انه كان يكرهه كراهية شديدة ، حتى انه لا يثق بوجوده في الشام . ولا شك بأن شكوكه بأن ينضم إلى الثورة العربية في يوم من الأيام ، أو يقلل من منزلته هو في البلاد ، لم يكن له أي أساس من الصحة مطلقاً . لكنه لما كان يعد العدة يومذاك ليعلن نفسه ملكاً على سورية في أول فرصة تسنح له ، فليس من الغريب أن يكره رجلاً في مثل منزلة الأمير ومكانته .. غير أنه مع جميع ما كان يكنه من شعور تجاهه فانه عامله بأكثر ما يكون من الحفاوة والتكريم خلال الأيام الأخيرة من وجوده في دمشق ...

.. وقد قوبل الأمير بحماسة وترحيب على طول الخط الممتد من الشام إلى المدينة ، وحينما وصل إلى مدينة الرسول في اليوم الأول من آب ١٩١٦ استقبل استقبال الملوك باطلاقات المدافع ، ورحب به فخري باشا ، الحاكم العسكري ، ترحيباً كبيراً . وكان جمهور كبير من العرب المتحمسين قد احتشد في خارج بناية المحطة المزدانة بمعالم الزينة لاستقبال أميرهم والسلام عليه .



الشريف علي حيدر وهو خارج من باب السلام

وأعقب ذلك انشغاله الشديد بالتعرف على الوضع عن كثب ، فقد توافدت القبائل من كل مكان لتؤدي يمين الأخلاص والطاعة ، وتعبر عن فرحها بوصول عميد أسرة ذوي زيد صاحب الحق الشرعي في شرافة مكة الكبرى . وتقاطرت الألوف منهم للانضواء تحت رايته ووضع أنفسهم تحت تصرفه ، حتى تألف منهم جيش بخمسة عشر ألف مقاتل ليسير وراءه . لكن مصاعبه ومشاكله أخذت تزداد يوماً بعد يوم ، لأنه مع كونه قد تقبل ولاءهم بفرحٍ وسرور فقد اضطر إلى أن يوعز لهم بالتفرق بعد ذلك لأنه لم يكن قادراً على تزويدهم بأي شيء من الذخيرة والتموين. فإن المدينة كانت تخلو من كل شيء ، وكانت وحدات الجيش النظامي فيها فقيرة التجهز إلى أقصى حدٍ ممكن .

ولم تأت الاتصالات المتكررة بالحكومة بأي شيء ، لأن المسؤولين كانوا يخضعون لأسيادهم الألمان في فكرة تركيز القوات العسكرية في جهات أخرى ضد الأنكليز . ولذلك تحتم على الأمير ان يتجرع مرارة الخيبة في ان تفلت من يده الفرصة الوحيدة التي سنحت له لسحق الثورة العربية ، واستعادة مكة . فان قبيلة بعد أخرى أخذت ترسل رسلها لتقول ان الوقت قد حان ، وأن الفرصة قد سنحت ، لتخليص الحجاز من حسين المكروه وحلفائه الكفار . لكنهم كلهم كانوا يحتاجون إلى الذخيرة الحربية والطحين ، وهما الشيئان الحيويان اللذان لم يكن علي حيدر يملكهما ولم يكن قادراً على استحصالهما من الحكومة التي سبق لها أن أخذت تفقد سيطرتها على الشؤون الحيوية في البلاد . وكانت القبائل في الوقت نفسه تعاني الجوع والحاجة إلى كل شيء تقريباً ، فاضطروا في الأخير إلى الرضوخ واحداً بعد آخر إلى لسان الدعاية المقنعة التي كان يبثها رؤساء الثورة المدعومون بذهب الأنكليز وطحينهم .

وكانت من بين الرسائل التي تسلمها الشريف الأكبر في هذا الوقت

رسالة من ابن سعود أمير نجد يومذاك . وندرج نصها[١] في الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى سمو الشريف الأكبر أمير مكة المكرمة الشريف علي حيدر المحترم

حياك الله وجعل النصر لك ، وبعد فقد حصل لي الشرف بتسلم كتابكم الكريم . وأن كل ما يحدث في البلاد العربية اليوم فأنا على علم تام به ، وقد علمت بتعيينكم لسدة الشرافة الكبرى في مكة ، واعتراف صاحب الجلالة الخليفة وأمير المؤمنين بكم على هذا الأساس . وأني أعلم كذلك ان قبولكم لهذا الشرف العظيم لم يكن الدافع اليه أطماعكم الشخصية ، ولا الرغبة في الفوائد المادية ، وإنما كان ذلك بدافع حماستكم واخلاصكم للأسلام ، ولتحسين أحوال المسلمين بوجه عام . وقد رفعتم رايتكم من أجل الأسلام ضد حسين وأولاده ، الذين خرجوا على شرع النبي المقدس .

ولم تقم أسرة الحسين حينما أعلنت الثورة على خليفة المسلمين وحكومته الا بانزال الضرر بالمسلمين وزرع بذور التفرقة بينهم ، ولكن ليس هناك قوة أعظم من قوة الله عز وجل . وقد كان سماح الحسين للنصارى بالدخول إلى الأراضي المقدسة من جملة التجاوزات التي تجاوز فيها على الأسلام ، ولا بد من أن تؤدي هذه إلى سقوطه في النهاية . لأن سلوكه يعتبر سلوكاً مغايراً لروحية الاسلام بالكلية ، ومنافياً لتقاليد العرب وعقائدهم . وتدل ثورته ضد خليفته على سوء نيته . فهو يريد الاستقلال بأي ثمن ، ولهذا فأنه سوف يمارس أنواع الدس بين أبناء البلاد العربية ، وتحريك أحدهم ضد الآخر لخدمة مصالحه وأطماعه . وقد أخذ الذين تتفق مصالحه مع مصالحهم يؤازرونه ويؤيدونه . ولذلك فان الوضع المهم الحالي يتطلب من حكومة

---

(١) اضطررنا إلى ترجمة النص عن الانكليزية لأننا لم نعثر على النص العربي الأصلي مع الأسف .

سموكم شيئاً كثيراً من الالتفات والرعاية . ان دسائس الحسين وأولاده قد سببت هياجاً غير قليل بين قبائلي أنا أيضاً ، وقد أخبرت سموكم وموظفي الحكومة بهذه الأعمال غير المرغوب فيها التي تجري في الوقت الحاضر .

وها أنا ذا أضع نفسي اليوم تحت تصرف الحكومة التركية وأوامرها ، وانا على استعداد لعمل ما تريدونه ، لكننا نطلب المزيد من الذخيرة الحربية والتجهيزات . ويعتبر وضع الشريف حسين في الوقت الحاضر وضعاً ذا أهمية قليلة ، وبوسعنا ان ندحره بسهولة اذا ما توفر لنا مزيد من التجهيزات. ونحن بانتظار ذلك مع تعليمات سموكم . فالعرب اليوم يجتمعون هنا ، وهذه أحسن لحظة لأية حركة يمكن ان نقوم بها .

عبد العزيز السعود

حاكم نجد

أما مصير الشريف حيدر وحركته في المدينة فتفرد له الشريفة مصباح فصلاً خاصاً في كتابها هو الفصل الخامس عشر (الص ١٠١) . وهي تقول فيه : لقد أخذ الوضع يزداد سوءاً في المدينة . وكان الأمير قد بعث بتقارير مستعجلة عديدة ، وبرقيات كثيرة ، يشرح فيها الأحوال السيئة ويطالب بأرسال الأغذية والذخيرة العسكرية والذهب . فلم تكن للعملة الورقية أية قيمة عند القبائل ، التي كانت تريد الذهب وحده الذي كان بوسع فيصل ولورنس توزيع كميات غير محدودة منه .

وحينما وصل الأمير حيدر إلى المدينة في بداية الأمر كان الوضع ما يزال مؤاتياً فيها ، فقد كانت الطائف ما تزال في أيدي الأتراك ، وكانت الفرصة سانحة للحصول على انتصار سريع فيما لو زحفوا في الحال على مكة وينبع ، وهو ما كان يرتأيه الأمير . على ان هذا لم يكن من الممكن الاضطلاع به من دون وجود تجهيزات كافية . وبينما كان الأتراك مترددين في هذا الشأن تغير الوضع من سيء إلى أسوأ ، ولم تؤد التضرعات المرسلة الى سعيد

حليم الصدر الأعظم الى أية نتيجة . لأن الجهود كلها متركزة في جبهة فلسطين .

وفي شباط ١٩١٧ حصل تغيير وزاري فأعقب طلعت باشا سعيد فهيم في رآسة الوزارة . وفي برقية بعث بها طلعت الى الأمير أعلن حصول هذا التبدل ، وطلب اليه ان يبعث بأخيه الشريف جعفر الى جمال باشا في دمشق ، ومن ثم الى استانبول ، لمناقشة الوضع مع أنور ومعه هو نفسه . وقد لمّح له في هذه البرقية الى أن جمالاً وأنور لم يكونا يدركان الخطر الذي كان يحاول شرحه لهما . لأن كلاهما كان متأثراً بحجج الألمان التي تبرر ترك المدينة والانسحاب منها ، مع تحشيد القوى كلها في فلسطين . ولذلك بعث الشريف الأكبر بأخيه وابنه الأكبر عبد المجيد . ليحاولا أقناع الجهات المختصة بالخسارة العظمى التي ستصيب نفوذ الحكومة وهيبتها بين العرب والمسلمين فيما لو تم ذلك . فتقرر الدفاع عن المدينة حتى النهاية . وبعد أن أنهى الشريف جعفر مهمته على هذه الشاكلة قفل راجعاً الى المدينة .

ولما اصبحت مشكلة التجهيزات والمؤن على جانبٍ أكبر من الحدة والصعوبة تقرر ان يترك الشريف حيدر المدينة مع حاشيته ويقيم في سورية . وقبل ان يرحل عنها سلم الى فخري باشا آمر الحامية في المدينة جميع ما كان عنده من عدد وتجهيزات طبية وخيول وابل ليستعين بها في الدفاع عنها . وقد خزن جميع ما كان عنده من خيام كبيرة . وسجاد يكفي لجلوس مائة نفر عليه ، في داخل المسجد النبوي مع امتعته الشخصية التي كانت من بينها عشرة صناديق سدر ثمينة ملأى بأنواع الفرو الفاخر والخلع التي كان قد أهداها السلطان اليه . وقد سلم الأمير مفتاح الغرفة التي خزنت فيها الى زوجته ، لكن تلك المخزونات لم تسترجع بعد ذلك مطلقاً ؛ لأنها وقعت في أيدي أتباع فيصل حينما دخلوا المدينة .

ويشير السر رونالد ستورز ، عضو مكتب الاستخبارات البريطانية في القاهرة يومذاك وحاكم القدس وقبرص بعد ذلك . إشارةً عابرة الى مجيء

الشريف علي حيدر هذا الى المدينة في كتابه[1] المشهور . إذ يذكر عن بداية الثورة أولاً ان مكة استسلمت للثوار في ١٣ حزيران ١٩١٦ ، واستسلمت جدة في يوم ١٦ منه بعد ان قصفتها الباخرة البريطانية فوكس من البحر . ثم سقطت الطائف بعد ذلك ، لكن المدينة بقيت تدافع عن نفسها بقيادة قائدها الباسل فخري باشا حتى النهاية .. ثم يقول ان الباب العالي بادر في ١٦ تموز الى تعيين الشريف علي حيدر شريفاً لمكة برتبة وزير . وهناك نشر بياناً في آب عليه ختم امارة مكة يشير فيه الى ان الثورة العربية دبرت بأصابع مسيحية . ويقول في حاشية في أسفل الصفحة نفسها انه زار الشريف حيدر في بيروت سنة ١٩٢٣ فوجده رجلاً مهذباً ذا شخصية جذابة ، وكان أحد أبنائه كمنجاتياً بارزاً (يقصد الشريف محيي الدين الذي اشتغل في معهد الفنون الجميلة في العراق بعد ذلك) ، وكان ابنه الآخر ممثلاً لشركة جنرال موتورز فزاره في قبرص .



الملك حسين بن علي

المدينة في ١٩٢٥

كانت الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ من الفترات الحاسمة في تاريخ الحجاز الحديث . فقد هاجم الوهابيون فيها ، بقيادة ال سعود ،

(١) Storrs, Ronald - Orintations. London 1937 - 45.

البلاد الحجازية واستولوا عليها بعد ان أخرجوا منها الأسرة الهاشمية المالكة ، وهي أسرة الحسين بن علي المنتمية إلى أسرة ذوي عون الحسنية . وقد زار الحجاز في هذه الفترة التاريخية الحاسمة كاتب انكليزي يدعى أيلدون رتر ، مدعياً الأسلام ، ومنتحلاً اسم « أحمد » أو الحاج أحمد ، وناسباً نفسه إلى البلاد الشامية . فنجح في تستره هذا ، وحج البيت الحرام في مكة ، ثم زار المدينة المنورة ، وكتب أشياء كثيرة عن رحلته هذه فضمنها في كتاب له سماه « مدن الجزيرة العربية المقدسة[1] » .

ويذكر المستر رتر في مقدمة كتابه أنه جاء الى القاهرة في مايس ١٩٢٥ ، وهو عازم على الرحلة في بلاد الجزيرة العربية لزيارة مكة وأداء فريضة الحج التي يؤديها المسلمون كل سنة ، وزيارة المدينة بعد ذلك حيث يوجد قبر النبي (ص) . ويقول بعد ذلك : وكانت الحرب في هذا الوقت ناشطة في المملكة الحجازية كلها . ففي صفر سنة ١٣٤٣ للهجرة (ايلول ١٩٢٤) كانت قوات السلطان عبد العزيز بن سعود قد احتلت واحة الطائف العظيمة المرتفعة ، التي تقع في واد عريض بين قمم جبل كرا المثلمة .. وبعد ان نهب الوهابيون من أتباع ابن سعود هذه البلدة الجميلة وذبحوا عدداً كبيراً من سكانها العزل ، دخلوا الى مكة بلباس الأحرام واستولوا عليها من دون عنف أو إراقة دماء . وكان الحسين ، ملك الحجاز الهاشمي قد تنازل عن العرش لابنه الشريف علي ، وبعد ان تراجع الملك علي الى جدة تبعه الوهابيون وضربوا نطاقاً من الحصار حوله فيها . وكانت المدينة ، وميناؤها ينبع ، لا تزال في أيدي الحكومة الهاشمية لكنهما حوصرتا كذلك من قبل قوات ابن سعود . وقد سدت جميع الموانىء الحجازية في وجه حركة السفن الاعتيادية ، فكانت الوجه وينبع وجدة محاصرة ، بينما كانت اللث وقنفدة في جنوبي جدة قد استولى عليهما الوهابيون فضرب الملك الهاشمي نطاقاً

---

(١) Ruttes, Eldon - The Holy Cities of Arabia (London, 1928 & 1930.

من الحصار حولهما. ويقول المستر رتر – غير اني صممت على ان لا أعبأ بهذا الحصار، فأصل الى الحجاز بطريقة من الطرق.. وقد وصل بالفعل بعد ان أقلع عن طريق قناة السويس الى مصوع، ثم الى القحم والبرك، ومن هناك الى قنفذة. وبعد ان ادى فريضة الحج وزار الأماكن التاريخية والمقدسة في مكة كلها، توجه الى رابغ ومنها الى المدينة المنورة.

ومما يذكره المستر رتر عن مكة انه استطاع المثول بين يدي السلطان عبد العزيز بن سعود فيها، قبل ان تسقط جدة في يده. وكان ذلك في أثناء جلوسه في «الحميدية» بواسطة رجل سوري كان يشتغل محرراً في جريدة «أم القرى». ثم زاره بعد ذلك عدة مرات في قصره في الأبطح. ويشير كذلك الى أنه قد اكتشف أمره في مكة وعرفه بعض الناس انه رجل انكليزي لكنه استطاع ان يبرهن على أنه انكليزي مسلم. وبهذه الصفة واجه ابن سعود وتحدث معه عن أشياء عامة كثيرة، منها قضية احتلال امارة شرقي الأردن وتعني يومذاك العقبة ومعان، واستياؤه من ذلك، وعطفه على الثورة السورية ضد الفرنسيين واستعداده لمساعدتها فيما لو سكت الأنكليز عنه، وتصفية بعض قضايا الحدود مع العراق في مؤتمر بحرة. ويذكر أيضاً أنه لقي الدكتور عبد الله الدملوجي في مجلس ابن سعود، حينما كان يعمل مستشاراً للشؤون الخارجية عنده، وهو يثني عليه ويشيد بثقافته ومعلوماته العامة.

ويخصص المستر رتر ثلاثة[1] فصول كبيرة من كتابه لما يذكره عن المدينة، ويعنون أحدها بعنوان «قبر النبي» والثاني بعنوان «ملاحظات طوبوغرافية وتاريخية» والثالث بعنوان «حرم المدينة». ولما كان معظم ما يذكره رتر في هذه الفصول قد ورد فيما انتقيناه من المراجع السابقة المشار اليها في هذا المبحث لم نر حاجة الى تكرار ذكره هنا، ولذلك سنقتصر على ايراد

---

(١) هي الفصل ٣٠ و ٣١ و ٣٢، الص ٤٩٥ – ٥٤٦.

بعض الفقرات والملاحظات العامة منها مما قد يدل عــلى شكل الحرم في السنوات المتأخرة فقط . ويلاحظ هنا ان المدينة حينما وصلها رتر كان قد تم احتلالها من قبل الوهابيين .

فهو يقول مثلاً عن الحرم النبوي الشريف ان باب السلام يقع في نهاية السوق الشرقية وينتهي بها ، وانه يعد الباب الرئيسي للمسجد الذي يتحتم على الزائر الدخول منه اليه لأول مرة . ويذكر عند الأشارة الى محراب النبي (ص) انه مغلف بقطع من الرخام الأبيض والأسود والأحمر والأخضر ، وهي مرتبة بأشكال معقدة . ويقول كذلك ان صيغة الزيارة الطويلة المفصلة التي قرأها المزوّر معه كان يحرمها الوهابيون . وقبل ان يبدأ المزور في قراءتها أخبره همساً بأنه سيزوّره القبر المقدس على طريقة المسلمين الذين يحبون رسول الله (ص) ، فعلم من ذلك ان المزور يجازف في مثل هذه الزيارة لأنه ربما يتعرض للأهانة والعنف بسببها من الوهابيين المتعصبين الذين استولوا على المدينة مؤخراً . وبهذه المناسبة يذكر ان الوهابيين يعملون بتعاليم ابن تيمية التي بني المذهب الوهابي عليها ، وان المزور حينما يطلب شفاعة النبي يكون قد ارتكب جريمة « البدعة » ، وان الصلاة في المساجد التي تحتوي على قبور الأولياء في داخلها تعتبر باطلة في نظر الوهابيين .

ومن طريف ما يذكره المستر (رتر) كذلك القصة المنسوبة الى السلطان محمود نور الدين (١١٤٥ ــ ٧٣) ملك الشام ، نقلاً عن « تاريخ المدينة » للمؤرخ السمهودي . فقد شاهد هذا السلطان النبي ثلاث مرات في حلمه ذات ليلة ، وكان النبي يقول له في كل منها « أنقذني يا محمود من هذين الشخصين » ، وكان هناك في مقابله شخصان أحمرا الشعر . فنهض السلطان قبل بزوغ الفجر ودعا وزيره اليه فقص عليه الرؤيا . فقال له الوزير ان هذا الشيء لا بد من ان يكون قد حصل في المدينة ، ولا يمكن ان يتولى معالجته سوى السلطان نفسه . وعلى هذا الأساس ركب السلطان مع عدد كبير من رجال حاشيته وقادة جيشه وتوجه الى المدينة المنورة . ودخلها من

دون ان يعلم بقدومه أحد ، وكان أول ما فعله فيها انه أمر ان تسجل له اسماء سكان المدينة بأجمعهم ليوزع عليهم الصدقات بنفسه . فوزع مبالغ كبيرة بهذه الطريقة حتى يستطيع التأكد بنفسه من الناس ، ويكتشف الشخصين اللذين أشار اليهما النبي في حلمه . لكنه لم يجد أحداً منهما بين جميع من حضر من سكان المدينة ، فسأل : هل تأخر أحد عن الحضور ؟ وأجابه الناس ان الجميع قد حضروا ما عدا غريبين اثنين من أهالي الأندلس ، يقيمان في التكية القائمة تجاه حجرة النبي (ص) ، وجدّوا في التفتيش عنهما حتى وجدوهما فأحضروهما بين يدي السلطان الذي عرفهما حالما وقع نظـره عليهما ، وقال لوزيره انهما هما بعينهما . وحينما استفسر منهما عن هويتهما ، أجابا بأنهما جاءا للاقامة في مدينة النبي . لكنه أصر عليهما بان ينطقا بالحقيقة وشدد عليهما النكير والتعذيب حتى اعترفا بأنهما نصرانيان ، وانهما جاءا لسرقة رفات النبي (ص) المدفونة في الحجرة ، بايعاز من ملكيهما .

وقد وجد أنهما كانا قد حفرا نفقاً تحت جدار المسجد المتجه إلى مكة ، يؤدي الى الحجرة بطريقة بارعة كانا يخفيان بها التراب ويأخذانه بعيداً عن الأنظار . وحينما سمع السلطان اعترافهما هذا قطع رأسيهما بالقرب من شباك الحجرة الشرقي ، وأحرق جثتيهما بالنار . واخيراً أمر بحفر خندق يحيط بالحجرة المقدسة وصب فيه الرصاص والنحاس الأصفر ، لئلا يمكن تدنيسها أو العبث بها بهذه الطريقة بعد ذلك* .

اما من الناحية الطوبوغرافية فيقول رتران المدينة تقع فوق هضبة أواسط الجزيرة العربية ، فتختلف بذلك عن مكة التي تعد من مدن السهل الساحلي . وتتوسط عدداً من المجموعات الجبلية التي تحيط بها على شاكلة حـدوة الحصان التي تقع فتحتها في الجهة الجنوبية الشرقية . وتتألف الأرض ،

(*) لقد شحنت الكتب بمثل هذه الأخبار والأساطير فاوغرت الصدور وبعدت بين القلوب وشتتت الآراء في حين ليس لها أصل ، وليس هي من الواقع في شيء الخليلي

الممتدة من جبل عير الى مسافة تقل بمقدار نصف ميل عن أسوار المدينة ، من منحدر متكسر يتكون من صخور بركانية ، وفي السهل الممتد الى شرقي المدينة تقع كتلة راكبة من اللابا السوداء . وهذه تمتد الى مسافة ميل عن باب المدينة الشرقية المسماة باب الجمعة أو باب البقيع ، وتعرف بالحرة . ويبلغ سمك الحرة حوالي عشرة أقدام ، وهي ترتفع ارتفاعاً فجائياً عن التربة الرملية المحيطة بها فتبدو كأنها جدار أسود . ويروي سكان المدينة ان النبي (ص) حينما حارب اليهود في المدينة عمدوا الى دفن أموالهم وجواهرهم في الحرة ، فحاول المسلمون بعد ذلك العثور عليها من دون جدوى . وقد زرع الفراغ الممتد بين المدينة والحرة ببساتين النخيل الكثيفة ، وفي ظلال هذا النخيل يزرع البرسيم والحنطة والشعير والطماطة وأنواع عديدة أخرى من الخضروات . وفي الجهة الجنوبية للمدينة تمتد بساتين النخيل والأثل والنبق بشكل اسفين ما بين الحرة وجبل عير الى مسافة ستة أو سبعة أميال . وتنتشر ما بين الأشجار البيوت والقرى الصغيرة ، لكن هذه كلها كانت مهجورة وفي حالة خربة ، كما كانت الحقول جرداء غير عامرة بالزرع ، حينما زار المستر رتر المدينة . ويعزى ذلك كله الى الحصار الذي كان الوهابيون قد فرضوه خلال السنة الأخيرة . والى شمال غرب أُحُد وراء الجناح الغربي للجبل توجد واحة واسعة تسمى « العيون » .

وتكوّن المدينة شكلاً بيضوياً يمتد طوله من الشرق الى الغرب . ويحميها سور عالٍ متين توجد فيه عدة حصون وتسعة أبواب . والأبواب هي : باب الجمعة أو باب البقيع وتقابل الشرق ، والباب المجيدي والباب البصري والباب الشامي وتقابل الجهة الشمالية ، والباب الصغير والعينية والباب المصري وتقابل الغرب ، وباب الشونة وباب الحمام وتقابل الجنوب .

ويذكر المؤرخون أن أول شخص شيد سوراً حول المدينة هو محمد ابن اسحق حاكم المدينة في سنة ٢٣٦ للهجرة (٨٥٠ م) . وقد أعيد بناؤه في ٥٤٠ للهجرة بأمرٍ من سلطان الموصل . وحينما زار المدينة السلطان محمود

نور الدين للنظر في أمر المسيحيين اللذين حاولا العبث بالحجرة المقدسة أمر بتشييد الجدار الخارجي . وقد أعيد ترميم السورين عدة مرات بعد ذلك ، وآخر من رمم السور الداخلي السلطان عبد العزيز العثماني سنة ١٨٦٧ .

ويقوم في خارج السور من الجهتين الشمالية والغربية عدد غير يسير من المباني الكبيرة ، التي يبدو ان بعضها كانت قصوراً منيفة في يوم من الأيام . وكانت هذه البيوت قد شيدها الأتراك وغيرهم ممن سكن هنا في أيام السلطان عبد الحميد . ولا شك أن المدينة ببساتينها ، وقطارها الذي كان يأتي اليها بالفواكه والخضروات والمؤن والسلع المختلفة من دمشق ، كانت منتجعاً لطيفاً يعتزل فيه الناس الذين أتعبهم عناء العالم الحديث وأقض مضجعهم تناقص الاهتمام بالدين وشؤونه . وبافتتاح سكة حديد الحجاز سنة ١٩٠٨ تبدأ فترة مزدهرة في المدينة تقاطر فيها الأغنياء عليها بقصد الأقامة الدائمة .

على ان ظهور الوطنيين الأتراك على مسرح السياسة التركية بعد ذلك جاء بشعور عدم الثقة والاطمئنان في هذا الحرم الأمين ، لأنهم لم يقدروا قيمة امتلاك الحرمين ، ونادراً ما كانوا يعدون هذا الشرف قميناً بصرف المبالغ الطائلة عليه وإرشاء القبائل العربية للامتناع عن قطع الطرق المؤدية اليهما . ولذلك فقد أدى الخوف من إقدام ابن رشيد على احتلال المدينة أو قيام الوهابيين بتكرار ما كانوا قد فعلوه في أوائل القرن التاسع عشر بها ، الى ترك الكثيرين لها قبل ان يعمد الشريف حسين الى اعلان الثورة على الأتراك في ١٩١٦ .

ومنذ أن وقع ذلك الحادث المهم توالت على المدينة ويلات عديدة تتوجت بحصار الوهابيين لها مدة خمسة عشر شهراً على ما يقول المستر رتر . وكانت النتيجة التي أدى اليها الحصار الكريه هذا أن قل عدد السكان فيها الى ستة آلاف نسمة فقط ، مع ان هؤلاء السكان كان عددهم قد وصل الى سبعين او ثمانين ألف نسمة من قبل .. ثم يأخذ رتر بوصف الشوارع والأزقة الفارغة والبيوت المتهدمة ، ويخرج من ذلك الى وصف محطة القطار

المهملة في نهاية المدينة الغربية بالقرب من باب العنبرية.

وبعد ان يصف اشياء كثيرة مرت الأشارة اليهـا قبل هذا في المراجع الأخرى، يقول رتر: ان كثيراً من طلبة العلوم الدينية الذين كانوا يقيمون في المدينة سابقاً فروا هاربين الى بلاد آمنة مع شيوخهم، لكن قليلاً منهم ظلوا مقيمين فيها خلال مدة الحصار الوهابي. وها هم يدرسون الآن على ابن تركي في الحرم الشريف، وابن تركي هذا نجدي سلفي معتدل لا يمكن ان يسمى وهابياً لأنه على ما يقول رتر لا يعتقد بجميع تعاليم ابن تيمية ومحمد ابن عبد الوهاب. ومن علماء المدينة الآخرين الذين يذكرهم رتر أحمد الطنطاوي المصري الذي امتنع عن التدريس في الحرم منذ قدوم الوهابيين الى المدينة، وأخذ طلبته يراجعونه في بيته.

مكتبات المدينة

وبعد ان يأتي رتر على وصف الحرم الشريف على النحو المار ذكره في هذا البحث بصورة عامة يتطرق الى ذكر مكتبة عارف حكمت العامة، ويقول انها تشغل بناية تتألف من غرفتين مقببتين.. وكانت هذه المكتبة قد تبرع بها مؤسسها الشيخ عارف حكمت شيخ الأسلام السابق في استانبول وأثثها تأثيثاً كاملاً. وكتب هذه المكتبة كلها مرقمة يمكن استعادتها والاستفادة منها في الخارج. وقد شاهد رتر على منضدة خاصة فيها كرة أرضية كبيرة يدل وجودها على ان الشيخ عارفاً كان يؤمن بكروية الأرض، كما شاهد فيها عدداً من الشيبة يطالعون الكتب وهم جالسون على السجاد بالقرب من الشباك. ويلاحظ ان مأمور المكتبة ومساعده كانا تركيين مطلعين على تصنيف الكتب وأماكنها في الرفوف، فسألهما (رتر) أن يحضرا له مجلداً مـن مجلدات فخر الرازي في تفسير القرآن فجاء له به المساعد في الحال بكل عناية واهتمام. وقد أخبره هذا المساعد انهم لا يعيشون على ما يقبضونه من الملك ولا من الحسين بن علي أو ابن سعود، بل يعيشون على ما يأتي اليهم

من الوقف الذي أوقفه الشيخ على المكتبة في استانبول .

ويخلص رتر من هذا الحديث الى الأشارة الى ان المدينة كانت تشتهر بخزانات كتبها منذ زمن طويل ، لكن مجموعات ثمينة من كتبها قد اختفت بمجيء الوهابيين الى المدينة ، ولم يعرف لها أثر . وقد قيل ان مكتبة السلطان محمود الكائنة بجوار باب السلام بقيت من دون ان يتعرض لها أحد ، لكن المستر رتر وجدها مغلقة من دون ان يستطيع أحد فتحها . اما مكتبة بشير أغا الشهيرة ، ومكتبات الشفاء والسلطان عبد الحميد وعمر افندى فيقال انها لم يعد لها وجود في المدينة . ويقول البعض ان معظم كتبها كانت قد سرقت حينما هرب السكان من المدينة . بينما يدعي آخرون أن الوهابيين قد أحرقوها ، وهناك غير هؤلاء يقولون انها كانت قد بيعت من قبل المكلفين بحفظها وحراستها .

وهناك في المسجد الأكبر حوالي مائة نسخة كبيرة من القرآن الكريم موضوعة على الرفوف بجانب محراب النبي (ص) . وقد خُط معظمها بخط جميل ممتاز وزُينت بالذهب وباللونين الأحمر والماوي وغيرهما . وكانت هذه النسخ الثمينة قد أهديت الى المسجد النبوي في مختلف الأوقات ليستفيد منها الزوار في القراءة والترتيل .

ابواب الحرم ومحاريبه

ويذكر رتر ان هناك خمسة أبواب عامة كبيرة في الحرم المدني الشريف ، وهي : باب السلام وباب الرحمة في السور الغربي ، ويحمل الموتى من باب الرحمة الى داخل الحرم للصلاة عليهم قبل الدفن ، والباب المجيدي المسمى باب التواصل أيضاً في السور الشمالي ، وباب جبريل وباب النساء في السور الشرقي ، ويقع باب النساء بالقرب من مصلى النساء في الحرم اما باب جبريل فيحمل منه الموتى لدفنهم في البقيع .

وهناك علاوة على هذه الأبواب الخمسة باب آخر في السور الشمالي

يوٌدي الى جناح المخازن ، لكنه يظل مغلقاً في الغالب . وهناك باب صغير آخر في السور الجنوبي يوٌدي الى حديقة عمر ، وهذا ايضاً يبقى مغلقاًولا يفتح ما لم يدفع الزائر مبلغاً من المال الى البواب لفتحه لأجل ان يمر من الممر الذي كان يسلكه عمر . ويوجد كذلك عدد من الأبواب الصغيرة التي توٌدي الى المنائر .

وهناك عدد من المحاريب التي تقع في مختلف أنحاء المسجد . ولهذه المحاريب ذكريات تاريخية عديدة ، وكثير من المسلمين يفضلون الصلاة أمام محراب واحد منها دون المحاريب الأخرى لأسباب شخصية لا غير . لكن بعض الناس يصلون امامها كلها ، وقد يشير المزوّرون على الزوار بالصلاة ركعتين أمام كلٍ منها . ولا حاجة للقول ان أهم هذه المحاريب هو محراب النبي (ص) . وهــاك أسماءها بالترتيب : محراب النبي في الروضة ، ومحراب عثمان في الوسط الشرقي من السور الجنوبي ، والمحراب السليماني الذي بني في القرن التاسع الهجري وكساه بالرخام السلطان سليمان القانوني في القرن العاشر ، ويقع في خط المحراب النبوي من الجهة الغربية ، ومحراب المتهجد في الجانب الشمالي من حجرة الزهراء البتول وقبرها . وهناك منصة مرتفعة بين يدي هذا المحراب ، ويعتقد ان النبي (ص) كان يتهجد في هذا الموقع طوال الليل . وفي داخل الحجرة التي تحتوي على قبر فاطمة يوجد محراب آخر ، لكن هذا لا يمكن الوصول اليه . وآخر محراب هو محراب باب النساء .

البقيع في ١٩٢٥

ذكرنا سابقاً فيما اقتطفناه من رحلة بورخارت ، والسر ريتشارد بورتون الى الحجاز ، وغيرهما الحالة التي وجدت فيهما هذه المقبرة التاريخية وما أصابها من الوهابيين الذين لا يوٌمنون بتوقير القبور ، حينما استولوا على المدينة في بداية القرن التاسع عشر . وقد لاحظنا ان المستر رتر يذكر الشيء

نفسه تقريباً عند زيارته لها في ١٩٢٥ ، اي بعد ان احتل الوهابيون المدينة للمرة الثانية بعدة شهور فقط .

فهو يذكر في وصفها (الص ٥٦٢) بعد ان زارها عدة مرات في أيام الخميس بعد الظهر انه وجدها عبارة عن قطعة أرض محاطة بسور من الطين ، تبلغ أبعادها مئتي ياردة في مئة وعشرين ، وتقع فيما يقرب من السور الشرقي للمدينة . وقد دفن فيها على ما يقال عشرة آلاف صحابي من أصحاب النبي . ثم يقول :

.. وحينما دخلت الى البقيع وجدت منظره كانه منظر بلدة قد خُربت عن آخرها . فلم يكن في انحاء المقبرة كلها ما يمكن ان يرى أو يشاهد ، سوى أحجار مبعثرة وأكوام صغيرة من التراب لا حدود لها ، وقطع من الخشب والشيش ، مع كتل كثيرة من الحجر والآجر والسمنت المتكسر ، هنا وهناك . وقد كان ذلك أشبه بالبقايا المبعثرة لبلدة أصابها الزلزال فخربها كلها . وألفيت بجنب السور الغربي للمقبرة أكواماً كبيرة من ألواح الخشب القديمة ، والكتل الحجرية ، وقضبان الحديد . وكانت هذه بعض ما جمع من المواد الأنشائية المبعثرة وكوّم هنا بانتظام . وقد أُزيلت الأنقاض من بعض الممرات الضيقة حتى يمكن للزائرين ان يمروا منها ليصلوا الى مختلف انحاء المقبرة ، وفيما عدا ذلك لم يكن هناك ما يدل على شيء من الانتظام . فقد كان كل شيء عبارة عن وعورة تتخللها مواد الأبنية المهدمة وشواهد القبور المبعثرة ، ولم يحدث هذا بفعل الزمن وعوارض الطبيعة بل صنعته يد الأنسان عن عمد وتقصد .

فقد هدمت واختفت عن الأنظار القباب البيضاء التي كانت تدل على قبور آل البيت النبوي في السابق ، وقبر الخليفة الثالث عثمان ، وقبر الأمام مالك ، وغيرهم . وأصاب القبور الأخرى نفس المصير ، فسُحقت وهُشمت حتى الأقفاص المصنوعة من أعواد الجريد التي كانت تغطي قبور الفقراء من الناس قد عزلت جانباً أو أحرقت .

ويقول رتر وحينما توغلنا في داخل المقبرة لمشاهدة الأكوام التي تدل في يومنا هذا على قبور المسلمين الأوائل الذين صنعوا التاريخ الحافـــل ، سمعت دليلي عامداً يكرر بهمس : استغفر الله ، استغفر الله ، لا حول ولا قوة الا بالله . وكان القلة ممن بقي من سدنة القبور التي بقيت معالمهـــا شاخصة للعيان يقفون أو يجلسون بجنبها بأوجه غير معبرة ، ومن دون ان تبدر منهم أية حركة . فلم يطلبوا الصدقة ، ولم يتكلموا بشيء سوى بعض الكلمات الخافتة برغم عدم وجود أحد من الوهابيين على مقربة منهم غير اثنين من عبيد ابن سبهان في الباب . لكن بعض النواخلة كانوا لا يزالون منشغلين في التقاط بعض القطع الصالحة للاستعمال من الخشب وغيره ، من بين الخرائب والأنقاض . وليس بوسع هؤلاء النخاولة في العادة ان يدفنوا موتاهم بين الأولياء في البقيع ، لكنهم قاموا الآن تحت اشراف الوهابيين بتهديم قبور المسلمين السنة وتدميرها .

وقد سرنا في ممر ضيق ، نظف من بين الزبل المبعثر ، نحو قبر عثمان الواقع في الجبهة الشرقية من المقبرة . وفيما كنا نخطو هذه المسافة خطواً مستأنياً التقينا بجماعة من الهنود راجعين من زيارة هذا القبر . وكان الذي يتقدمهم رجلاً مسناً ذا لحية طويلة قد وخط الشيب سوادها ، وكان وهو يمشي منتصب الرأس لا يحرك عينيه يمنةً ولا يسرة ، بل كان ينظر الى الأمام على الدوام والدموع تنحدر من عينيه بتيار مستمر . اما الذين كانوا يسيرون وراءه فقد نظروا الينا نظرةً خاطفة ثم حولوا أنظارهم الى الأمام بسرعة . فوصلنا الى مرتفع بسيط ، وعندئذ عرفت سبب الحزن الذي كان يبدو على الهندي المسن . فقد كان هناك بين يدينا على الأرض منشأة طويلة قليلة السُمك لا يكاد يبلغ سمكها ست بوصات . وكان يبدو أنها مصنوعة من اطار خشبي دقت فيه بالمسامير قطع خشنة من التنك . فكان هذا هو قبر عثمان الخليفة الثالث نفسه . وكان يجلس بجانبه هندي آخر وهو ينتحب .

المدينة في مؤلفات فيلبي

كان سنت جون فيلبي ، أو الحاج عبد الله فيلبي ، قد عاش مدةً طويلة في نجد والحجاز في كنف الملك عبد العزيز السعود ، وأعلن اسلامه على يديه فأصبح حراً يتجول في البلاد المقدسة كما يهوى ويريد ، وأجرى دراسات تاريخية وجغرافية عديدة في تلك البلاد . وقد ألف مؤلفات عدة في هذا الشأن ، فكان لا بد من ان يتطرق الى ذكر المدينة فيها بين حين وآخر .

ومن أحسن مؤلفاته عن الملك عبد العزيز السعود كتابه « اليوبيـــل العربي[1] » الذي كتبه في تفصيل حياة هذا الملك بمناسبة بلوغه الثانية والسبعين من عمره . وقد ورد ذكر المدينة في هذا الكتاب بمناسبات مختلفة ، وأقدم ما يذكره عنها فيه أشارة (الص ٢٦) الى ان سكة حديد الحجاز قد تم انشاؤها ووصلت نهايتها الى المدينة في ١٩٠٨ برغم معارضة القبائل البدوية وأمراء مكة لها . ثم عين السلطان عبد الحميد في السنة نفسها الشريف حسين ابن علي في شرافة مكة الشاغرة . ويشير كذلك (الص ٤٤) الى وصول الشريف علي حيدر الى المدينة في ١٩١٦ ليحل محل الحسين ويشغل شرافة مكة الكبرى بعد ان ثار الحسين على الأتراك بالنحو الذي مرّ ذكره في هذا المبحث من قبل . فهو يقول ان الحسين أعلن الثورة على الأتراك وبلّغ ابن سعود رسمياً بذلك طالباً مساعدته . لكن ابن سعود بعث بنسخة من الكتاب الى الأنكليز في البصرة للمعلومات ورفض التملق للعدو جواباً على الكتاب الثاني الذي تسلمه بعد ذلك من الشريف علي حيدر في المدينة . ولكن الذي نلاحظه نحن في ادعاء فيلبي يدل على عدم اطلاعه التام عـــلى ما جريات الأحوال في تلك الفترة . لأن الحقيقة هي ان ابن سعود قد رد على كتاب

---

(١) Philby, H. St. gobn - Arabian gubilee. London. 1952.

الشريف علي حيدر بكتاب رسمي يتودد فيه الى الأتراك وخليفتهم في استانبول ، ويهاجم الحسين بن علي لأنه ثار عليهم ففرق بين المسلمين وحالف النصارى فسمح لهم بالدخول الى البلاد المقدسة . ثم يطلب منه ان يمده بالمال والذخيرة ان أمكن . وقد أثبتنا نص الكتاب في ضمن ما اقتطفناه

جون فيلبي (الحاج عبدالله فيلبي) بالملابس العربية والغليون الانكليزي



من كتاب الشريفة مصباح حيدر .

على ان أهم ما يذكره فيلبي في هذا الكتاب تطرقه الى استيلاء الوهابيين على المدينة بعد محاصرتها ردحاً من الزمن . فهو يقول (الص ٧٦) ان ابن سعود بعد ان احتلت قواته الطائف وذبحت سكانها العزل في مذبحة رهيبة ، ثم احتلت مكة المكرمة ، صار يعد العدة للاستيلاء على المدينة ، وجدة بعد ذلك . وقد شهد هو نفسه – اي فلبي – في رابغ جيش الأمير محمد ثالث أنجال ابن سعود يتوجه في طريقه الى المدينة التي طلبت التسليم اليه ، وليس الى فيصل الدويش وأتباعه « الأخوان » الذين ظلوا يحاصرونها مدة طويلة من الزمن ، ورفضت دخولها الى المدينة خوفاً من عبثهم بمقدساتهم وإقدامهم على ذبح الناس فيها . وقد تم ذلك بالفعل ، فما ان وصل الأمير محمد الى أبوابها حتى استسلمت له في يوم ٥ كانون الأول ١٩٢٥ . ومن أهم ما يذكره عن المدينة كذلك (الص ٨٤ و ٨٥) وصول وفد جمعية الخلافة الاسلامية من الهند الى البلاد المقدسة بعد احتلال السعوديين لها بقصد التأكد من مصيرها والاطمئنان على مستقبلها ، والتحقيق في قضية المذابح والانتهاكات التي نسبت لهم فترددت أخبارها في أرجاء العالم الأسلامي كلها . ويقول فيلبي ان وفد هذه الجمعية غادر البلاد المقدسة ، في النصف الثاني من كانون الأول ١٩٢٦ ، وهو نصف مقتنع بمستقبل الحجاز المضمون برغم ما بذله عبد العزيز السعود من جهود باقناعهم في هذا الشأن . وما ترك وفد هذه الجمعية الحجاز حتى وصل وفد اسلامي آخر من الهند يمثل « جمعية خدام الحرمين » فيها ، ومعه ستون ألف روبية لمساعدة ضحايا الجور الذي حصل في المدينة . وكان موقف هذا الوفد أكثر تصلباً وصراحة في عدائه للعهد الجديد منذ البداية ، وأشد انتقاداً للأعمال التي جرت ، الأمر الذي اضطر ابن سعود الى اخراجهم من البلاد في أول سفينة أبحرت من الساحل الحجازي الى السويس في اليوم الأول من شهر مارت . وكانت انتقاداتهم تتركز في الغالب حول المزاعم المبهمة التي تنطوي عـلى خضوع ابن سعود للنفوذ

البريطاني كما يستنتج من اتفاقيتي الحدة وبحرة ، اللتين طلبوا الأطلاع على نصهما الأصلي الموقع لأنهم كانوا يشكون بوجود فقرات سرية فيهما . يضاف الى هذا أنهم أبدوا استياءً عظيماً من الفظائع التي حصلت في الطائف والمدينة وسائر الأماكن ، وطلبوا تقديم تفسير لذلك . وانتقدوا بشدة إقدام ابن سعود على مراوغة الرأي العام الاسلامي وعدم أخذه بنظر الاعتبـــار حينما أعلن تسنمه العرش من جانبه هو فقط .

ويقول فيلبي في مناسبة أخرى[1] ان المجازفة في حصول تعقيد مع الدول الأوربية ، في حالة وقوع اصابات في القتال الذي قد يحصل في جدة ، قد اضطره (اضطر ابن سعود) على الشاكلة نفسها الى تأخير الهجوم على تلك البلدة حتى يتسنى له ان يتولى إدارة العمليات الحربية بنفسه . وكان قد أمر من قبل فيصلاً الدويش واتباعه المتعصبين بالتوقف عن مهاجمة المدينة المنورة التي استسلمت بعد ذلك بصورة أصولية منتظمة الى الأمير محمد . ومع هذا فقد حصلت تخريبات في الأماكن التقليدية المقدسة في المدينة ومكة معاً ، فكان لها وقع سيء في أنفس المسلمين وأثارت حفيظة الناس في ايران وسائر البلاد الأسلامية .

ويشير في موقع آخر (الص ١٥٣ و ١٥٤) الى أن نصب مكبرات الصوت في الحرمين الشريفين قد تم قبل حلول شهر الصوم في شبـــاط ١٩٢٦ ، بعد ان لم يكن من المناسب الاستفادة من مثل هذا الاختراع من قبل في هذه البقاع المقدسة . ثم يتطرق فيلبي في صفحات أخرى الى مساهمته هو والشركة التي كان يمثلها في الحجاز في مكافحة البعوض في المدينـــة وغيرها ، ونصب الأجهزة اللاسلكية التي أوصلت لمدينة بجدة ومكة (خلال الثلاثينات) . ويناقش فيلبي في صفحات أخرى (الص ١٩٨ و ٢٢٧) من كتابه هذا الأتهامات التي وجهها الملك عبد الله في مذكراته الى الملك

---

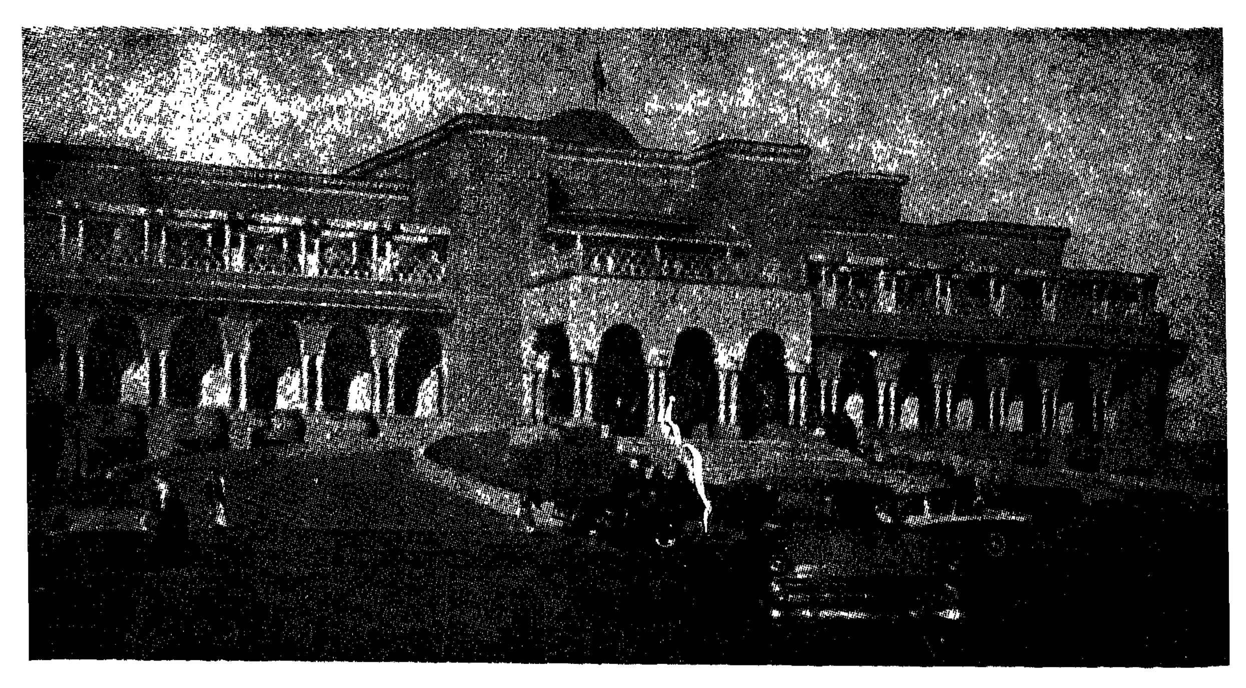
(١) اليوبيل العربي ، الفصل الثامن ، الص ٨٨ .

عبد العزيز السعود حول استغلال ثروات الحجاز من النفط والذهب ، مشيراً بذلك الى المذكرة التي قدمها في ٥ نيسان ١٩٤٤ الى المندوب السامي في فلسطين ، فيقول ان الحجاز لم تظهر فيه ثروة نفطية وان الذهب أمكن استخراج مقادير مناسبة منه بواسطة المشروع الذي استغل « مهد الذهب » الكائن في منتصف الطريق بين مكة والمدينة . وآخر ما يتطرق فيلبي الى ذكر المدينة فيه خلال هذا الكتاب (الص ٢٤٥) تطرق الى زيارة الملك فاروق الرسمية الى الحجاز في سنة ١٩٤٤ وقضائه بضعة أيام مع الملك عبد العزيز السعود في مخيم جميل أقيم لهما في ظلال جبل رضوى ما بين المدينة وينبع

ويأتي ذكر المدينة كذلك في صفحات كثيرة من كتاب فيلبي المهم الآخر ، وهو كتاب « أربعون عاماً في الأوعار »[1] الذي نُشر في سنة ١٩٥٧ . ففي الفصل الذي يخصصه لحصار جدة من الكتاب (الص ١٢٢)

Philby, H. St. gobn - Forty Yeatrs in the Wilderness. London 1957. (١)

قصر الملك في المدينة سنة ١٩٥٧



يتعرض الى خروج الحسين من الحجاز بعد تنازله عن العرش الى ابنه الملك علي ويدعي أنه أخذ معه (٨٠٠,٠٠٠) باون انكليزي ذهب بعد ان اقتصدها من المبالغ التي قدمتها الحكومة البريطانية له خلال الحرب ، ومن الضريبة التي كان يفرضها بمقدار خمسة باونات على كل بعير يستأجره الحجاج من جدة الى المدينة أو من ينبع الى المدينة ، وبمقدار ثلاثة باونات عن كل حاج يتسلمه المطوفون في مكة .

ويتطرق في هذا الكتاب ايضاً (الص ١٢٨) الى حصار الوهابيين للمدينة قبل استسلامها لهم ، فيقول ان ابن سعود بعث برسله الى المدينة طالباً استسلامها في الحال ، هي وحاميتها وما فيها من أسلحة وعتاد وعدد لاسلكية وسائر الذخائر العسكرية ، الى قائده في الميدان صالح العاذل من شمر ، الذي كان قد وصل مع قوة من البدو الى الحناكية . وبهذه الشروط وُعدت مدينة الرسول بضمان سلامتها وعدم التعرض لها بشيء ، بينما طُلب الى قبائل حرب المحيطة بها بان تفعل الشيء نفسه لتتجنب مغبة العناد . لكن قائد المدينة الشريفي أخبر ملكه بهذه التطورات وطمنه بانه اتخذ ما يلزم للصمود في وجه الحصار .

ويشير فيلبي في بعض صفحات الكتاب (الص ١٩٩) الى ايعاز الملك عبد العزيز السعود الى حكومته بالعمل على تحقيق مشروع انشاء سكة حديد الى البحر الأحمر ، فلم يتأخر المستر غيلديا Gildaa مسؤول هذه الأعمال عن القيام بمسح خط منتظم يمتد ما بين الرياض والمدينة عن طريق مرّات والقصيم ، ومن هناك الى ينبع وجدة مع انشاء فرع الى مكة ، أي الى مسافة يبلغ طولها حوالي ألف ميل . وفي نهاية عام ١٩٥٤ كان كل شيء جاهزاً للبدء بانشاء الخط المقترح ، لكن المبالغ التي أُرصدت له في الميزانية لم تكن قد وفرت له بعد .. ويتطرق بعد ذلك الى تشغيل سكة حديد الحجاز وإعادة ترميم المتخرب منها ما بين معان والمدينة ، فيقول متذمراً انه يود لو تجنّب الخوض في حديثه . لأن هذا المشروع ظل يدور البحث فيه منذ ثلاثين سنة ،

وظل المسؤولون عنه يصرحون بترميمه في القريب العاجل بين حين وآخر. لكنه لم يصل قط الى مرحلة إجراء المسح التفصيلي له برغم أوامر سعود المشددة في انجازه. ثم صرفت مبالغ طائلة على السفرات واللجان لدراسة التقارير، ولم تكن هناك صعوبة فنية تحول دون إعادة تسيير الخط. والمفهوم ان المشروع كله لا تزيد كلفته على أربعة ملايين باون تتحملها السعودية وسورية والأردن. وقد قيل في كانون الأول ١٩٥٥ ان لجنة ثلاثية غادرت الشام الى معان لترتب المباشرة باصلاح الخط ما بين معان والمدينة.. لكن شيئاً من هذا لم يظهر للوجود حتى الآن بطبيعة الحال.

وآخر ما يرد ذكر المدينة فيه خلال هذا الكتاب أشارة فيلبي الى خصومته مع يوسف ياسين وزير الخارجية السعودية الأسبق، واتهام يوسف لفيلبي بتأثيره على الملك في إلغاء مقاولة تبليط طريق المدينة المبهض من دون انزال عقوبة بالشركة البريطانية، التي كانت قد خسرت مبالغ غير يسيرة فيه ولم تنجزه (الص ٢١٢).

ومن كتب فيلبي التاريخية الآثارية المهمة كتابه الموسوم «أرض مدين[1]»، المنشور في سنة ١٩٥٧ أيضاً. فقد ضمن فيه التحريات التي أجراها ما بين تشرين الثاني ١٩٥٠ ومارت ١٩٥٣ في منطقة مدين القديمة التي تقرب من المدينة، وكان فيلبي قد جعل المدينة مقراً له وظل يذهب منها الى مختلف الجهات المطلوبة للبحث والتنقيب على ما يقول بمساعدة من الملك عبد العزيز الذي قدم له منحة مالية قدرها ألف باون لهذا الغرض. وهو يقول انه أجرى هذه التحريات العلمية في سهول وجبال ووديان بلاد قديمة جداً تعود في أيام عزها الى عهد ابراهيم الخليل وموسى وسليمان، والى عهد نابونيدس البابلي الذي كان يجعل عاصمته الصيفية في تيماء، أو الى عهود الملوك اللحيانيين والمعنيين والنبطيين الذين تعاقبوا على حكم العرب من أهل عاد

(١) Philby, H. St. gobn - the Land of Midian. London 1957.

وثمود ، وسيطروا على الطرق التجارية التي كانت تصدر بواسطتها توابل « بلاد العرب السعيدة » وعطورها الى مراكز المدينة الكبرى في الأزمنة السحيقة في القدم (الص ٤) .

ومما يدونه فيلبي في المقدمة عن تفصيلات مهمته هذه حول المدينة قوله ..: وقد قررت ان تكون المدينة نقطة تحركي الفعالة في حملتي الى مدين ؛ التي جعلت من أهدافها الرئيسة جمع الكتابات التاريخية القديمة في ميدان كان قد ارتاده جزئياً من قبل تشارلز هوبر وجوليوس يوتنغ في أوائل الثمانينات من القرن الماضي ، والأبوان جوسن وسافينياك من القدس ما بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩١٠ . ونادراً ما كنت أتوقع أن أجد خلال حملتي هذه شيئاً مثل اسطوانة تيماء المشهورة ، الموجودة في متحف اللوفر الآن ، أو مثـــل الكتابات الملكية المعنية التي وجدت في مدائن صالح والعلا (التي كانت تسمى ديدان في الزمن القديم) . لكنني توقعت انني لا بد من أن أعثر على نصوص ثمودية ونبطية جديدة ، فضلاً عن بعض النصوص السبأية والمعنية وحتى الأغريقية ، بينما كان الحلم الذي استوحيت منه رغبتي في زيارة مدين هو إمكان العثور في الجهة الشمالية الغربية من جزيرة العرب على أصل الخط السينائي الأولي المشهور ، الذي لا يعرف له وجود اليوم الا في منطقة سيناء ويعتقد بأنه أساس الأنباء المعروفة . والحقيقة ان إحدى الكتابات التي عثر عليها ريتشارد بورتون في مدين من قبل كان قد أدخلها الدكتور ليبوفتش في مخططه الخاص بنصوص الخط السينائي الأولي ، الذي نشره في ١٩٢٠ ، مع أنه يبدو الآن بأنه خط ثمودي في الحقيقة . ويمكنني ان أقول في الحال بان تحرياتي عن مواد تاريخية من هذا النوع لم تكن موفقة في نتائجها ، مع أنني جمعت بالفعل حوالي ألفي نموذج للخطوط من مختلف الأنواع من منطقة واسعة جسيمة تمتد من المدينة المنورة الى خليج العقبة . وقد يكون من الصحيح ان نفترض بأن الخط السينائي لم يكن مصدره جزيرة العرب . على انني عثرت على بعض النماذج التي يمكن أن تقارن على ما يبدو بنصوص

بورتون المشار اليها قبل هذا في بعض الاماكن الأقرب الى الرياض .

وفيما عدا هذا فمن أهم ما ورد ذكر المدينة فيه قول المؤلف بأن هذه الرحلة قد جعلتهم يتذوقون طعم لحم الوعل أكثر من مرة خلال مرورهم بالأوعار الجبلية المقفرة التي تمتد من المدينة الى ما وراء خيبر بمسافة. وتمر سكة حديد الحجاز من هذه المنطقة على مسافة غير بعيدة من المخيم الذي نصبوه ، ولا يعتقد فيلبي ان هناك أي أوربي آخر تسنى له من قبل أن يمر بالبقاع الممتدة الى شرق الخط الذي يربط المدينة بجهات خيبر . ثم يذكر في مناسبة أخرى (الص ٣٠ و ٣١) أنه وجماعته كثيراً ما كانوا يأكلون خلال رحلاتهم هذه تمر المدينة مع الشاي ، ويصنعون منـــه أكلة تسمى « الحنيني » بخلط سحيق التمر بالطحين والبصل . كما يذكر ان المسافة بين المدينة وخيبر تبلغ في الطريق الاعتيادي مئة وتسعة وسبعين كيلومتراً . وهكذا يرد ذكر المدينة في طول هذا الكتاب وعرضه ، ولا سيما خلال الفصل الأول المعنون بعنوان « المدينة الى خيبر » .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

هذه الموسوعة

على الرغم من انتشار الحضارة والثقافة التي دفعت بالكثير من العلماء والمحققين والباحثين في العصور الأخيرة الى احياء مختلف التراث الاسلامي والآثار العربية فيما بحثوا ، وحققوا ، وكتبوا ، فقد ظلت هنالك كنوز ذات قيمة كبرى في تاريخ العالم الانساني فضلاً عن تاريخ الاسلام والعرب .

لقد ظلت هذه الكنوز مطمورة في بطون الكتب المخطوطة والمطبوعة لم يمسها احد الا من بعض اطرافها، ولم يتطرق اليها باحث الا من بعض جوانبها ، وهي كنوز لم تقتصر على ناحية دون ناحية ، فهي تخص العلم ، والادب، والفن، والفلسفة ، بقدر ماتخص الفقه والتاريخ ، متمثلة كلها في تاريخ العتبات المقدسة :

مكة المكرمة ـ المدينة المنورة ـ القدس الشريف ـ النجف الاشرف ـ كربلاء ـ الكاظمين ـ مشهد الرضا ـ سامراء .. الخ

فلكل عتبة من هذه العتبات تاريخ ذو علاقة جد وثيقة بالثقافة والحضارة الاسلامية والعربية ، مما اختزنته من المخطوطات الاثرية ، والروائع الادبية، وما قامت به من المدارسة طوال العصور المظلمة ، اذ لولا هذه العتبات لما بقي اليوم بايدينا من تلك الكنوز الا النزر اليسير .

وهذا هو الذي دفع بطائفة من اهل الفضل واساتذة جامعة بغداد من ارباب الاختصاص الى ان تتضافر جهودهم في اخراج موسوعة تاريخية ـ علمية ـ اثرية ـ ادبية ـ عامة ، تتناول جميع العتبات المقدسة بالبحث المفصل الشامل منذ اول تمصير العتبة المقدسة حتى اليوم ـ على ان يكون لكل عتبة اجزاء خاصة ، وان يكون كل جزء منها مستقلاً بمواضيعه .

وهو اول عمل من نوعه ، واول مجهود خطير يقوم به مؤلفه ، ويكفي ان يستدل القارىء على خطورته مما يقع تحت عينيه من اجزائه .







